أحمد مراد





دار الشروق


محمد خطاب

مُقدمة

يَضُم ذَلك الكِتاب «اليوميات الممنوعة من النشر سابقًا» للمُصوِّر الفوتوغرافي للمَوتى والخبير الجِنائي «سُليمان جَابر مُختار ناجي سِراج مَهران عيّاد زكي نَصر أبو صَبيحة أفندي السيوفي»؛ والتي دوَّنها في القاهرة خِلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث تَم العُثور على أوراقه في حالة جيدة نِسبيًا، مَلفوفة بعناية في جِلد ثور، بداخل جرَّة نُحاسية مليئة ببقايا فروع نبات اللبلاب، ومُودَعة خلف حَائط موازٍ - بفارق ٣٤ سنتيمترًا – للحائط الأصلي، في الغُرفة التي سَكنها بالدور الثالث في «لوكاندة بير الوطاويط»(1) بحي «السيدة زينب» العريق، وذلك أثناء إجراء أعمال الترميم التي بدأت في يناير من سنة ٢٠١٩م تمهيدًا لتحويل مبنى اللوكاندة إلى مُتحف تاريخي، تحت إشراف قطاع المشروعات التابع لوزارة الآثار، وبمشاركة منظمة اليونسكو العالمية.

الكِتاب الذي بين يديك أيها القارئ الكريم والذي اختارت لجنة الترميم له عُنوان «أبو الهول»؛ يُصنَّف ككِتاب مُنفصل مُستقل بذاته، يَستطيع القارئ أن يقرأه دُون الحاجة للرجوع إلى «لوكاندة بير الوطاويط». وإن كانت القراءةُ والاطلاع يُساعدان القارئَ بشكل أفضل على فَهم طبيعة الزمن، وتاريخ الشخصيات، وتُضفي بُعدًا آخر لتلك القصة العجيبة التي ستقرؤها بعدما انقطع «سليمان أفندي» لثلاث سنوات عن الكتابة، والمُرجَّح أنه أتلف ما كَتب، أو رُبما أخفاه عَمدًا في مَكان لم يَستدِل عليه الباحثون بَعد.

يُقدم الكتاب - دُون حذف أو تنقيح - تحقيقًا وقراءة ليومياته المكتوبة بين عامَي ١٨٦٨- ١٨٦٩م، والتي تتناول قضية جِنائية غامضة، دَارت أحداثها خِلال عَهد الخديوي إسماعيل، حيث دوَّن «سليمان أفندي» أول تفاصيلها أثناء فترة حَبسه في سجن ليمان(2) «الديميرخانة» بورَش الحديد في منطقة بولاق، في الطابق السُّفلي «فئة م»، أشغال شاقة مؤبدة - رِجال، وتحت وَطأة ظُروف قاسية مُهلكة وغير إنسانية، انعكَست آثارها على حالته الجسدية والنفسية، وأدَّت إلى تفاقُم اضطِرابه الذي صنفه أطباء الأمراض العقلية؛ كفِصام ارتيابي/ بارانويدي – شديد (Severe Paranoid Personality Disorder)، أعراضه: أوهام اضطهادية، وجُنون عظَمة (Megalomania) مَصحُوب بضَلالات شديدة، تضاعفَ تأثيرُها بسبب توقف «سُليمان» المُفاجئ والاضطِراري عَن تَعاطي «أعشاب يُوحنَّا»(3) المُهدِّئة المثبِّطة، ورَغم ذَلك؛ فقد استطاع «السيوفي» أن يُدوِّن ويُؤرخ لِمُغامرة مُثيرة حفَّتها المَخاطر من كُل جَانِب.

وأخيرًا، أتوجّه بكل الشُّكر والتقدير إلى أعضَاء اللجنة العلمية المُشكَّلة لدراسة وتحقيق يَوميات «سليمان أفندي السيوفي»، والتي استطاع أفرادُها خلال عامين ترميمَ أوراقها المتهالكة باحترافية، وتمكنوا من تفسير خطّه اليدوي المُضطرب بكُل دِقة وأمانة، مَع إضافة حَاشية سُفلية للصفحات، تُفيد كَثيرًا في شَرح وتبسيط بَعض مُصطلحات ذلك النص التي ترجع أحداثُه إلى أكثر من مائة وخمسين عامًا مَضت. وأخُص بالشُّكر الدكتورة «نِعمت مَجدي صَبرة» مُديرة

شُعبة الترميم، والدكتور «عَادل سَعيد حسُّونة» رئيس اللجنة والمُشرف العام على المشروع؛ لِسعة صدره، وتصريحه «المُستنير» بطِباعة ونشر ذَلك الجُزء الجَديد مِن المُذكرات، بَعد منع وحجب استمرَّا لأكثر من ثَلاث سَنوات، وكَذلك الموافقة على حَذف جُملة «اليوميات الوحيدة التي تصلُح للنشر» مِن مقدمة «لوكَاندة بِير الوَطاويط».

أحمد مُراد

---

(1) شيِّدت سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م.

(2) ليمان: كلمة تُركية بمعنى ميناء، وقد استُخدم هذا الاسم ليشير إلى الشُخرة أو العمل الإجباري الذي كَان يُجبَر عليه المُعتقلون.

(3) عُشبة يوحنا، وتسمى عُشبة القديسين: تُستخدم لعلاج الاكتئاب.

تنويه واجِب

اللَّجنةُ المُشكَّلة لتحقيق ذلك النص تُخْلِي مَسئوليتَها تمامًا مِن مُحتوى ذلك الكتاب.

الآراءُ المكتوبةُ على لِسان «سُليمان السيوفي» صَاحب المُذكرات؛ لا تُعبر بأي شكل من الأشكال عن قناعات اللجنة أو التوجُّهات الدينية الخاصة بالقائمين عليها.

«د. عادل سَعيد حسُّونة»

رئيس اللجنة

يَومية نِمرة ٧٧

«عَرضحال(4) مَنسوخ من الأصل».

مُقدَّم إلى كُل أفندي ومِسيو وسِنيور ببلاد الفول المَحروسة مَصر.

ويتولى حِفظه وتوصيله إلى جُرنال الوقايع المصرية «شِكيب عبد الصَّمد» عَامل مَشرحة قصر العيني، الأخ الذي لم ولن تلده أمي الحُرمة «نَواعم مَكرم» لتوقف دَورتها الشهرية دُون رَجعة.

أمَّا بَعد،

فتِلك هِي كلماتي الأخيرة، والتي أجد أن كِلاب المزابل أجدَر على تلقِّيها ومفهوميتها مِن البشر أمثالكم، مُوجَّهة بكُل شموخ وإباء إلى جُملة الخلق الضالِّين الهَالكين، بِداية من جِنس مُلوك الشَّرق، آكِلي المقرونة الإزباجت الملعونة الواردة من الغرب، ذوي الكُروش المَحشوة بدهون النفاق وصَديد الخبث وزلال الغدر والكسل، نُزولًا إلى السُّوقة والزعانف من قُرود السُّلطة الأنجاس، الراكعين للأسياد دُون وُضوء، مُتيمّمين بالسُّخام، وأستثني من مسئولية الاستجابة لذلك العَرضحال جُملة الجَواري الچركسيات والچُورچيات المولودات من بعد سَنة ١٨٤٣م، لأن أجنحتهن بَيضاء مَهيضة وأجسادهن بَضَّة رخوة؛ لا تقوى على مُواجهة قاسية مع النفوس المُظلمة.

إني؛ سليمان جابر السيوفي أفندي، العبد الفقير إلى الله، أخُط شكواي مِن قاع بالوعة اليأس، في ليمان «الديميرخانة» للأشغال الشَّاقة، والأقسى حالًا مِن مَنفى جَبل «فيزأوغلي» بالسودان، حيث

أرقد هنا مُنذ سبعة أشهر وأربعة عشر يومًا بالتمام، مَقهورًا مهزومًا مَدحورًا، ومقرفصًا كالنعجة في الدرك الأسفل من جهنم الحمراء، فوق أرض صَخرية لا يَحتمل قيظها خنزير إفريقي مَخصِيّ، مُكبلًا من رقبتي بسلسلة حَديدية مثبتة بالحائط في العنبر السُّفلي «فئة م» والمقصود «أرباب المناخوليا» مِن فاقدي العقل والرشد - عافانا الله وعافاكم - ومُراقَبًا من أعين البصَّاصة في كُل مَوضع أطؤه، حتى وأنا أستمني عَلى الذكريات، فبات أَيْري مُعرِضًا عني، وآثر السُكات، وذلك بسبب تآمُر ريِّس البوليس الإيطالياني الخسيس سنيور «كارليسمو»، والذي زجَّ بي في غياهب السجن خِشية المنافسة، ليستأثر برضى الحَضْرة الخديوية، وليأفُل نجمي على يَديه، ويضيع حظِّي في تولّي منصب مُدير مَصلحة الطب السياسي(5)، وقد نسيني الخديوي إسماعين - وجلَّ مَن لا يسهو - ونسي عَهد الدم الذي قطعناه مُنذ سنوات، حين وفَّقني الله إلى حَل وَرطة الجرائم المُعضِلة المُسمَّاة بقضية «كوبانية الأسد الشرقي»(6).

إن تِلك المِحنة التي تسحق رأسي الآن، لم تراود أسوَد كوابيسي، ولم ينزل بها وَحي من السماء، أو تُنبئني بها فُروع اللبلاب المنتشرة عَلى الحائط، بل لقد أصابتني المُصيبة بغتة ودون سابق إنذار، سَاعتها، أدركت أن امتحان السماء لا مَحالة آتٍ، فتوضأت وصلَّيت، ورسمت الصليب على رأسي وأكتافي واستغفرت، وانتظرت، انتظار «أيوب» للبلاء في صمت، حتى داهمَ أفرادُ القوّاصة(7) الظَّلَمة أُودة(8) اللوكاندة، كَسروا أقفال الباب السَّبعة، روّعوا القطة فوق السّجّادة وأفزعوا هِررها، صَادروا الكاميرا، زجاجات مَحلول

الكولوديون(9)، دَهسوا تصويرات المَوتى التي سهرت الليالي في تحميضها، بأرجلهم النجسة، انتهكوا برطمانات الأجنة وبعثروا أوراقي، ثم رَبطوني بالحبال كَمَن تأهَّل للإعدام، حقًّا. السَّبع لما ينام، تمشي على ضهره الفيران. والحمد لله على نعمة غياب حبيبتي، رفيقة الدرب وأميرة الليل غير المُقمر «قشطة»(10) قبل أن تَرى الكَفرة وهُم يكفنونني في جُوال مِن الخيش، ويُلقون بي بطَيش ودُون مُحاكمة، في غياهب ليمان «الديميرخانة»؛ مَنفَى مظاليم المحروسة من السوقة واللمامة، لدُخوله تاريخ، تَمحوه لَسَعات الكرابيج بقهر، وللخروج منه أجَل؛ يتخطى يوم القيامة بشهر، فيه المَحابيس إن عاشوا أكلوا الدبَّان، وإن ماتوا ما يلاقوشِ حتى الأكفان، فالماء آسِن، والطعام رغيف مقدَّد مَحشو بالقطران، وعُفونة الهواء طاغية، تفوح بالصُّنان مِسافة سبعين فدّان، وبين جُدرانه الغليظة يَسقينا الحرَّاسُ الأوساخُ زيت الخَروع، حتى ترتخي الأيور وتدخل في الجُحور، ونتوقف ساعتها عن نِكاح ثقوب الجُدران، فنأكل خِرانا من سَكرات الوحدة واعتلال المزاج الذي سدَّد لجسدي طَعنات كَادت لتنال مني فأتوفى، لولا جُود الزمان بحُرمة عَظيمة مِثل «عَديلة الفار» زوجة صُبحي المزين(11) بسوق السلاح، الأصيلة بنت الأصول التي لم تنسَ عِشرة العُمر والكفاح، ولن أنسى يَومًا أني كُنت بِها مُغرم صَبابة، ومِن جَمالها كِدت أضرب روحي رصاصة، فلولاها، مَا كُنت لأقوى على كِتابة تلك السُّطور.

لقد انتشلتني «عَديلة» مِن السُّقوط في مُستنقع الوَهَن، بحُضورها المُنتظم في ظهر كُل يوم جُمعة مِن بعد طلوع القرافة على أمها

الحُرمة اعتماد متولي، حَاملة رَضيعها «طلعت» على كَتِف، وعلى الكَتف الثاني صِينية سَمك بلطي مُكن وِصاية مِن قَلاء السمك، يَأكلها حُراس العنبر ولاد الوِسخة حَتتك بَتتك، فِردة وسُحت على أبدانهم، ليَسمحوا لها بزيارتي، تؤانسني بآخر أخبار المحروسة المظلومة المنكوسة، وفي غفلة مِنهم، تناولني بِزّها الأيسر، تُدليه مِن بين القضبان خِلسة، لأرضع لبن السَّرسُوب الناجع النافع، لا تُفرِّق بيني وبين طَلعت، فيَجري الدَّم حارًّا في عُروقي، وتتحسن صحّتي، فأستقوى، وأتحاشى الإصابة بالبواسير والزنطارية(12) وأكافح «الأفرنكي»(13) والنوشة(14) والجُدري المُنتشرين بَين المَحابيس، ثم أستمني حين ترحل.

ولكن، صَدَق المَثل اللي قال: «الدبّان ما يحُطّش إلا عَ العيّان»، فقد جَاء يَوم أغبر؛ واشتممت في سَرسُوب عَديلة الغدر، طَعم مُر، ورائحة خِيانة، ولَم أتخذ وقتًا لأُدرك بالمفهومية والفطانة، أن البَصّاصة الأوساخ وبأمر مِن الباب العالي بالأستانة(15) طبعًا، ومين غيره؛ السُّلطان «عبد العزيز» الأول، عَدوّي اللّدود، أرسل مَن تَوالَس مَع الحُرّاس حتى يُغروا «عَديلة» بأن تدهن بِزّها الشمال بالسُّم الزعاف، يُريدون التخلص مني بالقتل رِضاعة، والاستمناء عمّال على بطّال بعد كل زيارة، ولكن الله أراد ليُتِمّ نورَهُ ولو كَرِه الكَافرون، فأُوحي إليَّ في رؤيا مُباركة أن أنبذ عَديلة، ففعلتُ، وتففتُ لبن السرسوب في وَجهِها ووجه شريكها التافه طَلعت، ودَعوت الله أن يقطع لبنها، ويَطمس حَلماتها الوردية، وأن يُعينني عَلى أعدائي مِن البشر والفيران والبق والقمل؛ تِلك الجيوش الكَافرة التي لا تتوانى ليل نهار

عن نهش أجساد المَحابيس الهزيلة دُون رحمة، ذَلك بخلاف الضَّالين من جِنس الذباب الذين لم يكفّوا للحظة عَن مُهاجمتي، والحطّ على أنفي والاندفاع نحو عيني بلا هوادة، يَظنون جَسدي من شدة الهزال والضعف؛ جُثة مُستطابة، يُستحب وَضع البيوض في فتحاتها، غَير عَابئين ولا عاملين حِساب لوساطتي المُباركة، وسنين عِشرتي التي قضيتها مَع رفيق الدَّرب وحَكيم الزَّمان «عنتر»(16). بَل وحين تلوت سِيرته العَطِرة في موّال من أشعاري لعلّهم يَرجعون، ضَرَبهم الغَضب، وازدادوا عُدوانًا وأزيزًا من حولي، وكُل ده ليه؟ عشان سعادة البيه «عنتر» غَادر «تكيّة الدراويش المكفوفين» مِن بعد فضيحة بجلاجِل، واتجه إلى «باريز» مُستقلًّا سفينة بخارية، تحت اسم مُستعار، هربًا من ديون الدخاخنية(17) والقمسيونجية(18) والفوريجية(19)، ومِن سبعة رجال غاضبين حملت نِساؤهم منه سِفاحًا، والله أعلم بالنوايا.

إن الأسف يَملأ فؤادي على بختي المئندل بستين نيلة زرقا، وعلى ريعان شباب بَال فوقه الدّهر حتى تسرَّب من بين يداي كحبَّات الرمال، ظهري الذي انفلق مِن لسع الكرابيج دون رحمة، وذاكرة تداعت وتهرأت حتى صِرت أنسى ثلاثة أشياء: الأسماء، الوجوه، وشيئًا لا أذكره الآن. لقد انتحرت كَرامتي مِن فوق جَبل شاهق بعد أن كُنت أُجلُّ نفسي لدرجة أن لم يعُد هناك شيء يُمكنه تَشريفي، إلى مَتى سأقاسي كُل ليلة ويلات التهرُّب من نِكاح «فوزي خُنفسة» عبر حَشري لفأر ميت زُغيَّر في فتحة إسْتِي حتى ينفر البعيد مِني؟ لقد أصابتني التقيُّحات والتسلخات المزمنة بسبب البُكسات واللوكميات

التي أتلقاها يُوماتي بالرطل من ذلك المأبون، وكَم تحملت في صَمت أيوب، تَجنبًا أن يَطأني كَما وَطِئ «شِكيب عبد الصَّمد» يَومًا وهو نائم دُون أن يدري - وأزعُم أن ذلك تكفير عَن ذَنب «شِكيب»، لمُضاجعته الموتى المزمنة في مشرحة الإسبتالية منذ بَلغ الحلم - راضيًا بقدري المكتوب على الجبين، آسِفًا على سِندباد غَرقت مَراكبُه في بحر الظلمات، ومَحرومًا من «عُشبة يُوحنا» المهدِّئة والتي وَصفها لي الحكيمباشي «ساسون»(20) رَحمه الله وطيب ثراه، ومُستعيضًا عنها باصطياد العقارب المنتشرة في موضع تكسير الحجارة بالجبل، وتجفيفها في الشَّمس قبل سَحق إبر أذنابها واستنشاق دخان الحرق، عِلاج شافي مُكن، يَستمر مفعوله لعدَّة ساعات، يُجنبني الحُزن على ما فات، ويُطفئ حرائق أفكاري المُستعرة، ويمنع دفقات المُحن التي تجري في دَمي. ولا يُصبِّرني وَسط كل تلك الابتلاءات سوى استدعائي لسيرة أخي وزميل النبوة «يُوسف الصِّديق»، الخال الوسيم الذي سُجِن بسبب إغواء حُرمة، ثم نَصره الله بَعدها عَلى إخوته والنسوة والمَلك، لم أنقطع يومًا عن تَرديد قِصَّته على آذان المَحابيس، حتى يَهدأ بالي وبالهم، ونِهيّص، ويَغمرنا الصَّبر والسلوان، مؤمنًا بأنه لا كرامة لنبي في قومه، ولو بُعث في اليابان.

إنني أكتب ذلك العرضحال ببقايا الوعي وفتافيت الكرامة، وهُو مُوجَّه خُصوصي إلى مُحرر جرنال «الوقايع المصرية» الشيخ «أحمد عبد الرحمن»، والذي أناشده بأغلى مَا عِنده أن ينشر شَكواي هذه للعامة في صفحة «الحوادث الداخلية» بالجرنال، دُون تنقيح أو اختصار، أو مُراجعة نَحوية، ومَطالبي دون تكلُّف تتلخص في الآتي

دُون إطالة:

• ألتمس العفو والإفراج عن العبد الفقير لله بعد ثبوت براءتي من تُهمة الإساءة إلى الحضرة الخديوية، وكذا، العفو عن رفيقي ليوم الحساب وتابعي حتى المَمات «شِكيب عبد الصَّمد»؛ والذي حُبس مَعي ظلمًا وتلفيقًا دون وجه حق.

• استرداد عفشي كاملًا، والذي صُودر من أودتي بلوكاندة بير الوطاويط، ويشمل خزانة حديدية تحوي تحويشة العُمر والبالغة مئة جنيه وخمسين قرشًا، والتي استولى عليها ريس قواصة ثمن(21) السيدة زينب بعدما جرَّسني وسبَّني قائلًا بالحرف: «صُوص خرسيس ملعون، صُوص شَرموط قرموط بهلول مَجذوب» بشهادة جيراني الأنذال الذين تخلوا عَني وقت المحنة والعِزال، وبحضور مُدير اللوكاندة الچركسي المنكوح دائمًا وأبدًا «بشماف جودت أنزور»، إلهي يِكسر أسنانه الصفراء الباقية.

• طبقًا للفقرة خمسة إلا خمسة مِن الأحكام الشرعية، أطالب بمُحاكمة ريس البوليس الإيطالياني الخسيس «كارليسمو» أمام «مَجلس مصر» بتهمة الزَّج بي في سِجن الديميرخانة دُون وَجه حق، على أن يحضر للقاعة بالقميص واللباس، مدهول حَافي مَكشوف الراس، وتُوقع عليه أشد عقوبة ويُنفى إلى بلده مَذمومًا مَدحورًا راكبًا للحمار عكس عكاس.

• أُطالب بجلد «مُدير كُرباج أغا باشا قواص ليمان الديميرخانة» مئة وستين جلدة، بكرباج «جلد خرتيت» منقوع في زيت، ذلك

مجموع اللّسعات التي أحصيتها على ظهري خلال مدّة حَبسي حتى عصر الجُمعة اللي فاتت.

- أُطالب بجلد «ريس قواصة ثُمن السيدة زينب» مئتين وخمسة جلدة بالتمام، بكرباج «ذيل فيل»، وذلك لسَرقة الأموال من أودتي بلوكاندة بير الوطاويط أثناء القبض عليّ.

- وكذا جَلد الحُرمة «عديلة الفار» زوجة صُبحي المزين، تِسعة وسبعين جلدة بالتمام، وقرص ثديها الأيسر بكماشة حدّاد سُخنة، وذَلك لضلوعها في مُؤامرة تسميم العَبد لله بالسّم الزعاف، عَشان تعرف إن الكِيد للرجال مِش سَهل؛ ولو الحُرمة شخّة نحل.

- أرجو صَرف سبع وأربعين كِيسًا(22) تعويض مُستحق عَن قَضائي سبعة شهور في غياهب السجن ظلمًا وجورًا.

- استعادة حقي الإلهي والشرعي في تولي منصب مُدير مَصلحة «الطب السياسي» كما وَعدني الخِديوي إسماعين بذات نفسه.

- أن يُخصص للعبد لله أودة شِرحة وبِرحة مَعدومة المِرايات، تَطل عَلى نَاصية، ومزودة بكنيف ألافرانكة، فِطار، غَدا، عَشا، في لُوكاندة «شِبرد» الفخمة بالأزبكية، على أن يخدمني سبعة من العبيد، واحد منهم مخصص لهش الذباب.

- إصدار أمر كريم من الحضرة الخديوية إلي المثّال الفرنساوي الشهير «تشارلز هِنري جوزيف كورديبه» وتكليفه بنحت تمثال برونزي للعبد لله، بحجم جسمي الطبيعي «طول ١٧٦ سنطي متر» في وَضعية الجلوس فوق حصان فصيلة «أورلوف تروتر»، ويتم

نصبُه في سُرَّة ميدان العتبة، مَع تخصيص لوحة رخامية طالياني من نوع «البوتيتشينو» دَرجة «أَلِف» مُمتاز، بغُروق كريمي فاتح، خالية من التشوهات والشروخ، عَرض متر وارتفاع ١٧٦ سنطي، وتثبيتها أسفل قاعدة التمثال بعد كتابة نبذة مُختصرة عن سيرتي وسيرة عائلة السيوفي العطِرة.

وأخيرًا، اعتذار واجب.

لَم أكتُب تلك الرسالة بحِبر الزعفران الروحاني الطاهر كَما تعوَّدت طوال سِنين عُمري البالغة ثلاثة وثلاثين عامًا شمسية، لشدة البلاء، وضيق ذات اليد، وانعدام كل الوسائل في جُحر العرسة الأسود الذي أعيش فيه ميتًا تحت الأرض، فاضطرتني الظروف إلى الحيلة والتدبر، صنَّعت من رَماد آنية الطبخ النحاسية حِبر مُكن، خَلَطته بزيت القنديل، مع إضافة قَدْر يسير من البول الطازج. ولاستحالة حُصولي على أوراق للكتابة، ارتأيت - ومن بعد استخارة وصِيام ثلاثة أيام حتى أذان العَصر - أن أُوشم رِسالتي هذه بذلك الحبر، دَكًّا ونغزًا؛ بواسطة إبرة مِن ذنَب عقرب كبير، على ظَهر مُساعدي «شِكيب عبد الصَّمد»، والمَحبوس مَعي أسيرًا دون تُهمة، لِما وَجدت في بنيته مِن لَحم ودهون فائضة مُكتنزة، مسَاحة كَافية تصلح لوشم الاستغاثة، دُون اختصار قد يَعيب المَعني، بِداية من أسفل ثنايات قفاه الملظلظ، وبعرض أكتافه المتورمة، ونزولًا بطول الظَّهر، وقد حَرِصت على أن أُنهي رسالتي دون استفاضة، قبل فتحة إسْتِه، حتى لا تضطر أيديكم الكريمة إلي مُعاينة غير مَحمُودة العواقب.

كَما أَلِفت انتباهكم الكَريم إلى بِز «شِكيب» الشمال، والذي دككت

عليه قائمة كَاملة شَاملة لكل العفش التي تمت مصادرته مِن أُودتي باللوكاندة، أملًا في استعادته يومًا مِن أيدي الكفرة الظلمة. واكتمل الدهاء وحُسن التدبير منِّي؛ برسم طريقة جُهنَّمية لتهريب «شِكيب» من الديميرخانة، ووُصوله سالمًا إلى مقر جرنالكم الكريم «الوقايع المصرية» بحيّ الناصرية، لطلب الغوث مِنكم، ونسخ شكواي في جرنال «العسكرية، الديلي تلغراف، يَعسوب الطب» وباقي الجرانيل الأروباوية، صَفحة أولى، وكُلي ثقة في فَطانتكم بحصُول كُل المَساعي لتبرئتي، وتحرير رقبتي من الظلم، وأختم رِسالتي هذه ببيت للشاعر «المُتنبي» وَصَف فيه حَالة تفردي واختلافي عن الناس قائلًا:

«فإن تفُق(23) الأنام(24) وأنت منهم... فإنَّ المسكَ بعض دم الغزال»

والسلام ختام.

إمضا

سليمان جابر السيوفي أفندي

أوقطوبر سابعة... سنة ١٨٦٨م

ليمان «الديميرخانة» بورَش حَديد، حَي بولاق، أشغال شاقة مؤبدة رِجال،

الطابق السُّفلي «فئة م» آخر الرواق شمال في يمين بعد المبولة.

* * *

(4) عرضحال: طلب مكتوب يُقدَّم إلى صاحب الأمر إمّا تظلُّمًا وإما لاستجلاب نعمة.

(5) الطب السياسي: المُسمى القديم للطب الشرعي الجنائي.

(6) كوبانية الأسد الشرقي: القضية التي تولى حلها «سليمان السيوفي أفندي» في يومياته السابقة والتي يضمها كتاب «لوكاندة بير الوطاويط».

(7) القواصة: فئة من الشرطة الأتراك في عهود الدولة العثمانية.

(8) الأودة أو الأوضة: هي الغرفة باللغة التركية.

(9) الكولوديون: من تقنيات التصوير الفوتوغرافي الأولى، حيث كان يُستعمل كمادة مثبتة لنترات الفضة الحساسة للضوء على الزجاج قبل اختراع النيجاتيف الجيلاتيني.

(10) قشطة: زوجة سليمان السيوفي؛ التي تنتمي لقبائل «الأزاندي» الإفريقية.

(11) المزين: الحلاق.

(12) الزنطارية: الزحار أو الديزنطاريا؛ وهو التهاب واضطراب في الأمعاء، وخاصة في القولون، يؤدي إلى إسهال شديد.

(13) الأفرنكي: مرض الزُّهري؛ وينتشر عادة عبر الاتصال الجنسي.

(14) النوشة: مرض التيفوس، وهو عدوى بكتيرية تنتقل إلى البشر عن طريق لدغة القراد.

(15) الأستانة: عاصمة الدولة العثمانية، واسمها الحالي «إسطنبول».

(16) عنتر: ذبابة كبيرة في حجم الجاموسة، تملك وعيًا وتتكلم، عاشت في غرفة عنتر في لوكاندة بير الوطاويط، وفي مُخيلته. راجع رواية «لوكاندة بير الوطاويط».

(17) الدخاخني: بائع الدخان، والمسئول عن حشو المعسل في النارجيلة.

(18) القومسيونجي: تاجر متجول يبيع البضاعة بالعمولات.

(19) الفوريجي: رجل مهمته أن يتمايل طربًا في جلسات التحشيش، ويشيع البهجة بنثر الحكايات وإلقاء النِّكات الظريفة.

(20) الحكيمباشي «ساسون»: طبيب الأمراض العقلية الذي اعتنى بحالة سليمان السيوفي. راجع رواية «لوكاندة بير الوطاويط».

(21) ثُمن: وتعني قسم شرطة، حيث تم تقسيم القاهرة إلى «أثمان» لسهولة السيطرة عليها أمنيًا.

(22) الكيس: وحدة قياس نقدية.

(23) تفُق: تفوق وتتفوق.

(24) الأنام: جميع ما على الأرض من الخلق، وقد يشمل الجنّ، وغلبت في الدلالة على البشر.

يومية نِمرة ٧٨

تَسجيلًا لآخر أيامي في ليمان «الديميرخانة» للأشغال الشاقة، وما طرأ بعدها من أحداث جِسام يشيب لها الولدان وتقشعرّ لها جلود النسوان في كل زمان.

من بعد دَكِّ الحِبر المُحمَّل بمُر شكواي في الطَّبقة الثالثة لظهر وبز صِهريج الغباوة «شِكيب عبد الصمد»؛ تقيَّح جلده، وضربه الأرق، وأخذ ينخر ويظرط كبغل حرون يخبط الجُدران، فأقلق مَضجعي، وأصابني بصداع نصفي وضَجر، وحِرت في علاجه دون أعشاب عطَّار مُعتبر، متلافيًا استدعاء حكيم صحة ليُعاين ظهره حتى لا ينكشف الملعوب. وزاد الطين بلّة، حين طفحت البثور فوق كلمات رِسالتي المَوشومة، فاعتراني الفزع من زوال الحروف وتبدُّل المَعاني المدكوكة، والتي استغرقت شَهرًا وأربعة أيام متواصِلة في صِياغتها الأدبية قبل دكّها على ظَهره، حتى انقصفت رقبتي، وضَعُف بَصري من عَمل دءوب متواصل على ضوء شمعة هزيلة صنعتها من بقايا دُهون القطط النافقة في الجبل.

لذلك؛ فقد ارتأيت التعجيل بتنفيذ الهروب من السجن، والذي درست سُبل تنفيذه بحِكمة وفطانة، وإن لم تنطبق شُروط تحقيقه كاملة على العبد لله بكل أسف، لضَعف في البَدن، وهزال أصاب الأعصاب برعشة، واستحالة تحمل عواقب الفرار مِن ليمان «الديميرخانة»، خشية المُجازفة بفقدان رجُل مِثلي هيهات هيهات أن يجود الزمان بمثله، في مُواجهة رصاص بنادق «الشاسبوت»

الفرنساوي التي يحملها القواصة، فتخسر المَحروسة بتلك الفعلة البركة والكفاءة، ويزول الحق بزوالي، ويَسود الباطل بسيادة أمثال ريس البوليس الإيطالياني «كارليسمو».

استلزم الأمر منِّي صِيام ثلاثة أيام عن استنشاق دُخان العَقارب المُجففة، حتى تجلَّت علامة السَّماء طاغية خاطفة أمام عينَيّ، أثناء تكسيري لحِجارة الليمان، إذ انفلقت وقت أذان الظهر صَخرة كَبيرة بعد نسفها بصباع ديناميت، وانبثق منها أسد مَهيب مُكن، له لبدة حمراء غزيرة الشعر، وأرجل بشرية غليظة واثقة، يَرتدي أربع فردات من قبقاب خشبي بإبزيم جِلد، ومن موضع ذيله، انبثقت إبرة عقرب عظيمة، تأرجحت في عزيمة وتحفز. اقترب مني الأسد دُونًا عن أقراني من المحابيس، فتذكرت سيرة القائد والمُحارب الجِريجي العَظيم «تيودور أمبروزيوس»، والذي فُوجئ يومًا بجيوش الفرس تتقدم مِن حُدود بلاده لتحتلها، وكَان في مُقدمتها؛ أسد غضنفر شديد البأس، مُدرَّب على افتراس المُقاتلين وتمزيق أوصالهم، فما كَان مِن ذلك المُحارب المَهيب إلا أن رفع سَيفًا طوله ثلاثة أمتار وأربعون سنطي، وتصدَّى لذلك الوحش الجبَّار، بشجَاعَة ليس لها مثيل، أثارت في جُنده الانبهار، فانتصر عليه الأسد، وفَصَل رأسَ المحارب بأنيابه عَن الجَسد، قبل قرقشة الجمجمة وسحب الجثة إلى رُكن لاستكمال التهامه على مهل، في ذلك اليوم احتلَّت جيوش الفرس مَدينته، وتم ذبح كل رجالها واغتصاب النساء وأولهم أُمّه الله يرحمها، ولذلك، لم يُذكر في التاريخ اسمه، وبما تعلمت من سيرته العطرة قررت ألا أستأسد على الأسد، وإن بُلت في السروال طبعًا

والعذر مَعي.

وكان مني أن بركتُ على رُكبتَيّ في خُشوع وخُضوع، كَاتمًا أنفاسي مكسكسًا في إذعان وطاعة واستكانة، نطقت الشهادة من الرعب بالمقلوب، فاقترب الأسد، ولَحس أذني اليمنى بلسانه قبل أن يهَمَس بصوت يملؤه الأسى: «القهوة ادّلقت يا سليمان»، ثم رفع رأسه وزأر زئيرًا حَزينًا اهتزت له جُدران السِّجن، فطارت الغربان، وطارت طبلة أذني كمان، والمُعجزة تجلت في أن الزئير لم يَسمعه غَيري، لأن أرباب السجن قلوبهم من خيش مبلول نَتِن، لا يَملكون كَرامات الصفوة، ولا ينكشف لهم غِطاء الغيب وعَلامات السَّماء كَما تنكشف للعبد لله، رَغم أنني أفقر الأنبياء، حُرِمت من عَصا مُوسى والبُراق، ولا يُقبل لي دُعاء، كُنت سُليمان «الثاني - مُكرر» بين جُملة الرُّسل، ولم أفهم لغة الحيوانات، لكن يَكفيني شرفًا ومجدًا؛ أن روضت الذباب الأزرق يومًا، وعلّمت أسماك البحر السباحة والغوص في الأعماق.

في اليوم الموعود، صلّيت العصر في خُشوع مَبحوح، ثم توكّلت على الحي الذي لا يموت، مُنتويًا تنفيذ التكليف الذي أتاني من جَوف أسد ذي لِبدة حمراء بكلام باطني مستكوفي لا يفهمه السوقة والزعانف من المحابيس: «القهوة ادّلقت يا سليمان»، يا لَها من كَلمة بليغة عظيمة المعنى والبيان، أوحت إليّ بأن الكيل قد فاضَ، وآنَ الأوان لتنفيذ الهروب من السجن والزوغان. طحنت على شرف تلك النبوءة سبع عقارب، بعد تجفيفها تحت لهيب الشمس، وخلطث رَمادها بورقتين من نبتة «الداتورا»، سلتُّها بصنعة لطافة مِن جَيب الحارس الليلي أثناء غَفلته اليومية، وأضفت بعض البول الحديث

على المزيج، حتَّى يتيسّر طحنه، فبات قوامُه عَجينة سوداء، دَسستُها بسبابتي تحت لسان شِكيب فالتقمها، ثم أمرته بالرقص الصوفي دَورانًا مع المزمزة والاستحلاب، حتى يَسري المَفعول في الأطراف، وتحِل علينا بركة الرب، يا خفيّ الألطاف نَجِّنا مما نخاف. بعد نِصف سَاعة من الدَّوران المستمر، تعرَّق الجسد السمين، أصابته رعشة، اتسعت حدقتاه وسال لُعابه على صدره، ثم توقف عن اللَّف بغتة، قبل أن يَهوي على الأرض، فِيل عرقان تلقَّى دانة مدفع.

حين اطمأننت أن أنفاس «شِكيب» خفتت حتى قاربت الاختفاء، وغابت دقّات القلب السمين عن مَسامعي، صَرخت مُلتاعًا كأرملة ثكلَى، وكُلي ثِقة في إعادة إحيائه مِن جديد بمشيئة المولى: «شِكيب مات... شِكيب مات». ولأن توليفة العقارب المُحترقة مع نبتة «الداتورا» سِر من أسرار العبد لله، يمُر من تحت أنف أبرع «دُوقتور» صِحّة في أجعصها إسبتالية بالمحروسة، بالإضافة إلى كون رائحة «شِكيب» وهو حَي يُرزق لن تختلف كثيرًا عن رائحته وهو ميت، فستصدق فيه علامات الوفاة، وسيُودع جَسده في المَشرحة تمهيدًا لفحصه وكتابة تقرير لضبطية مصر عن أسباب موته، قبل دفنه في مقابر الصَّدقة، وهو ما لن يَحدث حتى صباح اليوم التالي، لأني راعيت بحِكمة وتبصُّر أن يكون توقيت موته المزيف؛ بعد انتهاء نوباتشية دُوقتور الصحة ورحيله عن الليمان.

ولمَّا كَان «شِكيب» قد زار مَشرحة ذلك الليمان خُصوصي مرارًا وتكرارًا، لتحضير جثث المَساجين المشنوقين بشقّ الصدور وسلخ فروات الرءوس ونشر الجماجم، مِثل كُل عَامل مَسمط مُسالم،

فقد أسرّ لي العكروت بأمر بالوعة مُخلفات التشريح التي تُفضي إلى مَصرف كَبير خارج أسوار الليمان، تُلقى فيها فضلات الموتى حتى لا تُلوث الهواء برائحة الدم وينتشر الذباب، فكانت الخطَّة والتدبير المُكن من العبد لله؛ أن يَستفيق «شِكيب» في المشرحة قُرب منتصف الليل، وينزل من فوق طاولة التشريح ليحشر نفسه في بالوعة المُخلفات، وينزلق، حتى يَصِل إلى المَصرف، يعوم ويعوم حتى يَخرج، يَستحم في النيل، يُصلي سبع ركعات في أقرب مَسجد ليس فيه ضريح، ثم يخطف رجله إلى مَقر جرنال «الوقايع المصرية» ليُقابل المُحرر، فيعرِّي ظهره ليَكشف عَن رِسالتي الموشومة، لتُنسخ وتُنشر في الجرنال، وتُشرق شَمس الحُرية على وَجهي مِن جَديد.

في تِلك الليلة، ظَللت أنادي: «شِكيب مَات» حتى بُح صَوتي، ولَعَن المَحابيس أبو خاشي، وظننت يأسًا أن الحرَّاس لا بد سيتركون الميت مُلقًى بجانبي للصباح، إلى أن يَحضر دوقتور الصحة ليفحصه، فأدركت أن الفشل قد أحبط التخطيط الجُهنمي الذي أوحاه لي الأسد أحمر اللبدة، حتى سمعت صَرير أبواب السجن تُفتح، ووقع خطوات تقترب في تؤدة، خطوات لم تأتِ بالحرَّاس والكرابيج، بل أتتني برجل يَرتدي قناعًا جِلديًا أسود مُزركشًا، تشده ثلاثة أحزمة خلف الرأس، مُزوَّد بعُوينات زُجاجية للرؤية، ومنقار كبير أمام موضعَي الفم والأنف، به ثقوب دقيقة للتنفس، تفوح منها رائحة النعناع والليمون والقرنفل، فأدركت أن القاهرة تتعرَّض من جَديد لضَربات كُبَّة(25) مَلعونة، أو كُوليرا ستأخذ معها بالميت ستة بالمئة

مِن سُكّان المحروسة كما فعلت بنا في سنة ١٨٥٦ المنحوسة.

كمَا أدركت أن الزائر الرابض خلف قناع الطائر، غراب البين الخائف على زُوحه مِن رِيح المحابيس الكريه الذي ينقل المرض، هُو كاليجولا(26) المَحروسة، البارد العيّنين الجبان الخبيث الدنيء المعفّن الخسيس المغرور نسيل زنا المَحارم الطري «كَارليسمو»، زعيم عِصابة البوليس الإيطالياني الذي استولى على عقل وقلب الخديوي إسماعين وحطه في جيبه كما المنديل المُستعمل، خَاصة بعدما أحبط مُحاولة لاغتيال حظرته في تياترو «الكوميدي الفرنساوي»، بالعثور أسفل مقعده على قنبلة مدسوسة، أونطة، فنالَ تكرمة وحظوة، وصار صاحب كلمة ونصيحة لا تُرد وسطوة، الله يلعن اللي يحوج الناس لسبّه في كل خطوة.

رَغم المقت والبغض، والكراهية التي لم أكنّها للمَسيخ الدجّال ذات نفسه، فقد أشادت نفسي ودُون إرادة مني؛ بهيئة الإيطالياني. ابن الإيه كَان متناسق البنية كالثعلب، آخر نغنغة، يَرتدي سُترة «تشيسترفيلد» بنفسجية مُطرزة بماكينة خياطة، لطالما وقفت أمامها مدهوشًا في ڤاترينة الطرزي «أورلاندو» بالعتبة. قميص حَريري، منديل مطرّز بأول حرف من اسمه، حِذاء لميع قزاز قياس ٤١ بوز، له نفس لون المنديل الحريري، وبُرنيطة عالية آخر ألاجة اضطر الذميم لخلعها حتى لا تحتك بسقف العنبر المنخفض، ومِن وَرائه حارس ضخم متحفز مُسلّح بمُسدس ذي ستة أرواح(27).

نظر الإيطالياني لجُثمان شِكيب، نَغزه بعَصاته دُون اكتراث، ثم اقترب منِّي، وبدون بونچور أو بونسوار ضَم أنامله دَاخل

القفاز وهزَّها بحركة كوز الصنبور الطليانية وقال: «سِاي أون زومبيكوليوني». ولعِشرتي الطويلة بجارتي العزيزة «أم بيدرو»، القاطنة بلوكاندة بير الوطاويط دُور أرضي شمال، والتي تعودت أن تبرطم وترطن في غدوتي ورَواحي ببذيء السباب لسبب لا أعلمه حتى الآن، أدركت أنه يقصد بكلماته: «أنت لست إلا ألم في إسْتِي يا سليمان يا ابن الحُرمة نواعم مكرم». الوضيع يَسُب من كَان لَه الفَضل في إنقاذ حَياة خِديوي مَصر وولي عَهده توفيق «الشهير بتيفة» مُنذ سنوات، يسُب مَن نزل عليه الوحي فارتوى وأكل عليه الدهر فاستوى، وسأسجل هنا ترجمة وافية لِما كَان من أمر زيارة الإيطالياني المأبون دَامت رَزالته، وزادت هبالته. آمين.

أمّا بَعد،

فقد أشار «كَارليسمو» إلى قرار مَشروط بالإفراج عنِّي وعن مُساعدي «شِكيب عبد الصّمد»، نظير إبداء النصيحة في حل مُعضلة جنائية، والتعاون على حلّها دون كلل، وما كان مني إلا أن أجبته: «إفراج مشروط؟ ليه؟! كروديا؟ بُوركا بوتانا» - وتعني بالطلياني: «اللعنة عليكم يا آكلي المقرونة الإزباجِت» - ثم شخطت فيه: «أنا في الأصل مَظلوم، تم اعتقالي بأمر مِنك دون وجه حق، يا حاميها يا حراميها»، ثُم دعوته إلى مُبارزة شرف، بطبنجات «كولت» أمريكاوي، في مِيدان الرميلة، أمام باب العَزَب في قلعة الباشا، على مَرأى ومَسمع من العامة، في صَباح الجمعة القادمة من بعد الصلاة، وبشهود عِيان من الباكوات والباشوات والجهادية وموظفي السراية والمترجمين للغة الفرنساوية والصينية، لأسترجع هيبتي،

وأستعيد كرامتي المُهدرة. وأنهيت تهديدي المعتبَر، بأن أخرجت من سروالي رُبع رغيف مُقدد مُتبقٍّ من وجبة أول أمس، ألقيته على صدر السُّترة الـ«تشيسترفيلد»، إهانةً، ازدراءً، تحقيرًا، إذلالًا، ودَعوة صَريحة لنزال بين الرجال، فسفخني ابن الوارمة قلم مُكن على خدي الأيمن، فأدرت له الأيسر وقفايا، فتحفز الحارس العريض مِن خلفه وأخرج العَصاية، لكن الإيطالياني رفع يَده مَانعًا الأذى عني، ثم تنهَّد تنهيدة فلَقت الحجر وتَنَت الحديدة، وتلا على مَسامعي أسباب حَبسي التافهة الخسيسة، مُذكرًا إياي ومُدعيًا بالباطل أني قد خرقت الأحكام الشرعية وتعديت على سلطة المُشرِّع باستخراجي لجُثث القتلى من المَقابر دون تصريح، بغرض التشريح، وبتكليف خُصوصي من أهالي القتلى للتربُّح، وكذا احتفاظي ببعض الأعضَاء البشرية والأجنة في أودتي باللوكاندة داخل برطمانات زُجاجية، بمُساعدة ذلك الميت - وأشار إلي جُثة شِكيب - دُون إذن مُسبق من «ضبطية مصر، كما أن الأحكام الشرعية الآنية تشترط مُوافقة وإشراف الصحة على تلك الأعمال، وتقديم تقرير مفصَّل عن حالة الجثث وقت الممات، مِن قِبل دُوقتور مُعتمد خطّه واضح مُتزن... قاطعته: «والله عال، تقاليع آخر الزمان»، فاستطرد: «تلك لم تكن جَريمتك الوحيدة يا سليمان، ففي أودتك بلوكاندة بير الوطاويط، جَرائم أعظم شأنًا يا حويط»، هُنا هَوى قلبي بَين قدمَيّ، وسألت نفسي: هل يقصد سَليل بِلاد المقرونة الإزباجت هذا شَقا عُمري من صُور السنايير(28) العِريانة المخزَّنة تحت المرتبة؟ أم أنه فتَّش السَّطح فعثر على قُضبان الثيران المُجففة في الشمس، والتي اشتريتها من المَذبح واستخلصت منها - بعد طحنها وخلطها بجوزة

الطيب والحِلبة والشطة والسقمونيا - أول معجون نافع ناجع في البسيطة لعِلاج عنَّة(29) الرجال، تحت اسم «توليفة سليمان، سَاحر البلابل ومهيِّج المدامات»، السِعر: سبعة قروش للقازوزة الواحدة، وَداعًا لزيارة التحفجي(30)، وطواجن الكوارع بجوزة الطيب... لكن الإيطالياني قال: «إن يومياتك يا أفندي لَم تُذقنا طعم النوم، لقد اعترفت بجرائم من القتل العَمد، قادرة على أن ترسلك إلى حبل المشنقة ثلاث مرات، فطفقنا نبحث عن جَثامين أمّك الحُرمة «نواعم مَكرم»، والمدعوة «عزيزة راتب الشبكشي» لثلاثة أيام متواصلة، حتى عثرنا على الأولى حيَّة في بَيتها، أما الثانية، فقد قال زوجها «أنور جُودة أبو شمعة» القاطن بدرب الجماميز إن زوجته هَربت وهي حُبلى، بِلا رجعة، وتبقى الحُرمة «نعيمة الچركسية»، والتي كتبت أنك قد أغرقتها في النيل بعد ربطها بحجر، لم نعثر لها على أثر. هَل قتلتها حقًّا؟ وإن كانت على قيد الحياة فأين هي؟ ولمَن تكتب تلك اليوميات في الأصل؟ وهل تَملك تكملة لأحداثها؟».

قلت في سِرِّي: «إلهي تِنفقع بطنك وتطلع مَصارينك، البعيد بَغل زرزوري بوِدن واحدة، ما سمعش الحكيم الواصل اللي قال: «لا تأمنن إلى النساء ولا تثق بعهودهن، فرضَاؤهن وسخطهن مُعلق بفروجهن، يُبدين ودًّا كاذبًا والغدر حشو ثيابهن، أوَما ترى إبليس أخرج آدم من أجلهن؟». ولأني أكره الكذب والتضليل، أخبرته أن الحُرمة «نعيمة الچركسية» سَافرت إلى الحِجاز في مُوسِم الحَج اللي فات، للتوبة من الخلاعة والفسق، ولم تعُد منذ ذلك الحين، وقد سَمعت أنها غرقت في بئر زمزم وهي تنحني لتشرب، ولم يعثر عليها الغطاسون،

أما أنا، فأتسلى بكِتابة الطرائف واللطائف، وأحيانًا الفظائع، لإدخال الشُّرور والبهجة على أهالي المحروسة، مثل الأديب الإنكليزي «تشارلز ديكنز» حبيبي ربنا يديله الصحة وطول العمر، وأقررت من بعد الحلفان؛ أن كل ما دوَّنته في الأوراق ليس إلا مَحض خيال مَخلوط برَماد الحقيقة، فلم أكُن يَومًا مِمن يجرءون على قتل نملة كندوز ترتدي باروكة، بل أنا نباتي منذ سبع سنين، وليس هُناك نُسخة مِن يومياتي بها أحداث سابقة أو لاحقة»، وبالطبع لم أخبره أن هناك نسخة إضافية مِن اليوميات السابقة، دَفنتها خلف حائط مُوَازٍ لحائط الأودة بفارق سنطي مترات، احترازًا من غدر الزمان وخشية تآمر الخونة واللئام.

سَاد الصمت، ثم أشار الإيطالياني إلى حَارسه الضَّخم، فناوله يَومياتي المُصادرة. استخرج منها ورقة، خطَّ تحت بعض كلماتها عَلامات بالقلم: «ذكرت هُنا اسم الخديوي، وقد ادعيت أن حظرته حَاول تسميمك بدَسّ السم في كأس نبيذك في القلعة منذ ثلاث سنوات، مَا قولك؟». أجبته بأن الخط ليس خطِّي، إنما دسّ الحاقدون الوقيعة بين الأوراق، ليُفسدوا ما بيني وبين فخامتلو(31) من ودّ ووِصَال، وغمزت له بعينَيّ كي يعلم أني أقصده وأتهمه بالتآمر والضلال، فأخبرني الإيطالياني أن: «الخديوي بذات نفسه؛ حين استقبلني في السرايا ليَسبغ عليَّ الثناء والتكريم، إثر اكتشافي لمؤامرة اغتياله الفاشلة بحفل قصر القبة، أسرَّ لبعض خاصته، ومنهم «كارليسمو» ذات نفسه، أنه وَجد في نظراتي ريبة المَجاذيب، وفي إيماءاتي مناخوليا لا تُخطئها عين الأريب»، فكظمت

غيظي وأجبته: «إن الخديوي أحول العينين(32)، يرى الواحد اثنين، ولا بد أنه كَان يقصِد الموظف الذي يقف ورائي، أتذكر أنه كَان مثلي وسيمًا»، كَان ذلك حين نَهَقَ «شِكيب» الله يفضحه بشخير عنيف، وتقلَّب على جَانبه ماضغًا الهواء، شَالحًا قميصه هارشًا إسْته بضمير، كأنَّه في كَنيف، كَاشفًا أنَّه حَيّ يُرزق، ولسوء الحظ، تجلّت سُطور رِسَالتي على ظهره.

رَمقني الإيطالياني بغضب، ثُم اقترب، ووَضَع على عَينيه مونوكل(33)، ثُم انكفأ ليقرأ شكواي على ظهر شِكيب، ولمعرفته البسيطة ببعض العربية، لَحظَ اسمه وسط الكلمات، مُزينًا بلقب «الخسيس» والذي مِنه، شتيمة وسُخام، فحدجني بغيظ أنا غنيّ عنه، وأصدر «شِكيب» جِيصًا سُخنًا عَصفَت رِيحه بالأنوف، فسَعَل الإيطالياني وقد فشل قِناعه الواقي في درء العفونة والزفارة، فأمر حَارسه بفك الأغلال من حَول قدمَيّ وكوارع «شِكيب» بك الذي لم يستيقظ حتى نُخزت إسْته العَارمة بسونكي البندقية سَبع مرَّات.

حين جرجرنا حُرَّاس السِّجن بمَهانة إلى الإسطبل، أدركت أن نهاية الأسطورة قد حَانت، والإعدام رميًا بالرصاص لا مفر مِنه خَلاص، فبطحت حَارِس الإيطالياني في رأسه بروسيَّة أفلتتني مِن قبضته، رَكضْت نحو الجبل بكل ما أُوتيت من قوة، لكن الكافر أدركني، تمرَّغنا على الأرض حتى بَرك فوقي، ثُم أتى الإيطالياني ووضع فوهة مُسدَّسه على جَبهتي وقال: «إن أردتُ إعدامك لفعلتُ مُنذ رأيتك». فاستسلمت، أنا، سليمان السيوفي ذو الطربوش الحديدي، أنذل الفرسان، والبطل الجبان الذي يراه العِميان، ويسمع كلماته مَن به

صَمَم في الوِدان، والآن يأتي زمان نجس، يَحلق فيه الكفار لِحيتي، ويطردون جحافل القمل التي استأجرت رأسي شر طردة. رشوني ورشُّوا جسد شِكيب المسكين ببودرة البوريك الحراقة تطهيرًا، ثم غمرونا في حوض ماء وخل ومَرشوا أجسادنا بأخشن الأحجار، حتى تبدَّل لون الجلد، وذَهبت عنَّا العفونة المعتادة، كَمَّموا بعد ذلك أنوفنا، وقاية من ريح الطاعون المنتشر في الأنحاء، ثم اتخذنا طريقنا فوق الحمير إلى إسبتالية قصر العيني.

أمَام المَشرحة.

كَان في انتظاري قوَّاص يَحمِل كَاميرتي الخَشَبية وحَقيبة أدواتي، استلمتها في لهفة، وعَملت عليها شِشن سريع وكانت سَلِيمة الحمد لله، ولمَّا التفت للإيطالياني؛ أخرَج من جَيبه بَطحة(34) زُغيرة ووضعها في كفي: «ستحتاج بعض النبيذ، صَدِّقني»، بعد تردّد شربت، وقبل أن أفهم، أمسك بكتفي وقال بعطف مُريب: «تَمالَك نفسك أيها المُضطرب العنيد، ففي داخل المشرحة، شَخص تعرفه»، ثم فتح باب الشؤم بيديه، واتَّجه إلى جَسد مَسجًّى فوق الحوض الرخامي، رَفع الملاءة عنه في صَمت، فأدركت السبب الأصلي وراء الإفراج عني، جِلد أبنوسي، السواد فيه حَسنات مزدحمة، الثدي العنيد الوثاب، الخَصر المزين بمخالب النّمر، الوَحمة البيضاء في الفخذ اليمنى، والجسد الأقرب لمنحوتات الجِريجيّين في الكمال، هِي، أميرتي الإفريقية، فحمتي المُلهمة المُلتهبة، الليل الحالك الذي لم أشبع مِن قمره المكتمل يَومًا... «قِشطة».

«القهوة ادّلقت يا سليمان»...

لقد صَدَق الأسد ذُو اللبدة الحمراء.

تبخَّر الدّم من رأسي فجثوت بجانب الحوض خائر القوى، بكَيت، نحَبت، نشجت، صَرَخت حتى شرخت ترقوتي، فتقيأت قلبًا، رئة، وشظايا ضُلوع، فحَملني «شِكيب» إلي رُكن، وآتوني بدوقتور الصحة، حَقَن رَقبتي بسِرنجة فارتخت الأعصاب وخُدِّرت الأطراف، وخفتت الأصوات من حولي، ثم دارت جُدران المشرحة عَكس عقارب السَّاعة. غَوص دَائري إلى قاع بَحر دافئ، وتلقفتني مَحارة كبيرة، احتضنتني، وأغلقت صَدفتها بترباس غليظ، واستقرت رأسي فوق لؤلؤة سوداء باردة بحجم بطيخة... هُناك، راودتني ذكرياتي مَع قشطة العُمر، مَن علمتني الحُب وأذاقتني عناقيد اللذة، مَن أنستني روائح النساء اللاتي عرفتهن قبلها، ومَن أنا يا خلق؟! أنا الذي قال فيه الشاعر «أبو نواس» رحمه الله قولته الشهيرة: «إن لي أيرًا خبيثًا، عَادمَ الرأسِ فليتًا، لو رأى في الجوّ صَدعًا، لنزا حتى يموتا، أو رأى في السّقفِ دبرًا، يتحوّل عنكبوتًا، أو رآه جوفُ بحرٍ، صارَ للأنعاظِ حوتًا»، فما كَان مِن «قِشطة» إلا أن احتوتني، ووهبتني عِشقًا واطمئنانًا لم أشهده من بعد رحيلها يَومًا، حتى في حَضرة الحُرمة ماتيلدا زوجة إصطِفان الكنفاني بباب الشعرية، مَديحة الخَرسا، نوال مُحيي أبو كَحكة، هانم مُحيي أبو كَحكة (أخت نوال الزغيرة)، سِتّهم توفيق شَلبي طُلبة عربي السوَّاح، زُوجة مُحيي أبو كحكة الثانية، نَبيلة (الشهيرة بسُونة) بنت شَفيق وزة، عَواطف فلامنجو الخياطة أُم رِجل واحدة، بُولينا الجريجية بِنت ديمتري إتناثيوس البقَّال، وعديلة الفار مَسمومة البزّ، لم ولن تعوضني إحداهن ليلة واحدة

قضيتها في جوار قشطة، ومَاذا سأفعل بكل جواري الأرض إن لم تكن هِي جُواري، فأجمل عَشر سنوات في حياتي؛ هي الثلاث سنوات التي قضيتها مع قشطة.

* * *

---

(25) الكبّة: المقصود بها الطاعون. أطلق عليه المصريون ذلك الاسم بسبب أورام (كبب) تنتشر على جسد ضحايا مرض الطاعون، واستخدم ذلك المصطلح في أغنية شهيرة: «يا عزيز يا عزيز، كُبّة تاخد الإنجليز»؛ والمقصود دعاء بحدوث طاعون يقضي على جيوش الإنجليز.

(26) كاليجولا: إمبراطور روماني عُرف بقساوته وساديته وبذخه وانحرافه الجنسي.

(27) مسدس ذو ستة أرواح، يَعني أنه يحوي ستة أماكن للرصاصات في ساقيته.

(28) السنايير: جمع لكلمة سنيورة.

(29) العنّة: الضعف الجنسي.

(30) التحفجي: بائع المعاجين والمنازيل؛ وهي مواد يتم صناعتها من الحشيش والأفيون.

(31) فخامتلو: لقب تعظيم من ألقاب الخديوي.

(32) الخديوي إسماعيل كان يُعاني مرض الرمد الصديدي في عينيه.

(33) مونوكل: نظارة بعدسة واحدة يتم تثبيتها فوق العين.

(34) قِنينة صَغيرة مُنبسطة.

يومية نِمرة ٧٩

تِعبت عيوني؛ ومِش لاقي دوا ليها

جابولي طبيب العيون؛ والدّمع ماليها

كَشَف عليّا الطّبيب؛ وراح مغطيها

قال لي دي وَحشِة الأحباب؛ ما أقدر أداويها

دِي القهوة لو بِردت؛ مُحال الحزن يِغليها

والسّكرة لو حَضرت؛ مَجدَع مين يِجَاريها

«شاعر مَجهول»

(عَدا البيتين الأخيرين، من إبداع العبد لله)

سَرد ما كَان من سِيرة حَبيبة العُمر «قشطة» رَحمها الله وطيّب ثراها خِلال سَنة ١٨٦٦م.

أما قبل،

لمّا تخطّت مُدة الحَبَل في بطن «قشطة» الشُّهور العَشرة؛ طَمأنتني الزِّنجية الغَالية بأن الأجنة في بُطون نِساء قبيلتها لا يُولدون قبل مُرور عَام كَامل أو يَزيد، ثم طَلَبَت مِني السَّفر بصُحبتها إلى غابات الكونغو البعيدة لتَضع وَليدها بين أفراد قبيلتها الذين لم يعلموا حتّى ذلك الحين أنها حَية تُرزق في القاهرة المَحروسة، وكذلك لأتعرّف على حَماتي المَصون، بصفتي زَوجًا ومُنقذًا لابنتها مِن بَراثن جَلّابة العَبيد الأنجاس.

واريت هَلعي خَلف ابتسامة لم تصمد كثيرًا، وقُلت لها: «إن السَّفر على ظهر باخرة إلى غَابات الكونغو رِحلة مُرهقة مُضنية مليئة بالمَخاطر والأهوال، فأرض قبيلتكِ هي قَلب إفريقيا التعيسة، قِطعة من جُهنم يصليها نارًا خَط الاستواء، قَيظ وشواء، لم يَحتمله قِسيسو بِعثات التبشير الكاثوليكية النمساوية، فَما بَالكِ بنُونّة غَلبان في بَطن أمه السوداء! عَلاوة على خطورة التعرض للصُوص النيل وعِصابات جَلّابة العَبيد، واحتمالية غَرق الباخرة وضياع سيرتنا بين فكوك التماسيح، هذا إذا أمِنَّا شَر الإصَابة بحُمى التيفويد والمَلاريا وكُل بَلا أزرق منتشر باستفاضة في الجنوب»، ثم وَضَعت عَينَيَّ في المِنظار الفلكي وأشرت إلى السماء باستنكار وتحذير: «ومين مَجنون يِسافر في وجود القمر بمنزل بُرج الثور يا قشطوط القلب؟! فطِبقًا لعِلم النجوم الذي أحفظ تفاصيله كشَعر صدري؛ لن يَهبنا ذلك الجُرم المَلعون إلا التعب والشَّقاء والوُجوم، كَما أن هِلاله وعِند النظر إليه مِن جهة أرض قبيلتكِ، عند زاوية خَط الاستواء؛ سيبدو لِي مُبتسمًا كالمُهرِّج، لأن نُور الشمس يضربه مِن أسفل».

ضَاقت عَينَا قِشطة الزرقاوان وابتسمت، ثم قالت: «إن الطيور في كُل مَوسم لا بد أن تُغادِر الأعشاش، والشَّمس في كُل يوم لا بد أن تترك الآفاق، أما أنت يا حَبيب العُمر، فإنك ترفض الخروج في نور القمر، وكُسوف الشمس، وتربيع الكواكب، ووقت حَصاد الشعير في الحقول، والآن تَرفُض السَّفر مَعي لأرض أجدادي؛ لا لكُل ما سبَّبت لي من أسباب، ولكِن فقط؛ لأن عائلتي مِن قبائل النِّيام نِيام». أقسمت لها بخواتم أزواج أمي السبعة، كَذبًا وزورًا وبهتانًا ومَرقعة: «إن آكلي

لحوم البشر ناس كُمَّل وطيبين، بَل أجدع ناس، أصحاب مُروءة وكَرم، وطبيخهم ما يختلفش عن طبيخ أهالي السيدة زينب، يُحبون الفلفل والبصل».

فأضافت قشطة: «وكذلك هُم لا يأكلون إلا لحوم الأعداء يا سُليمان الحكيم!».

في تلك الليلة، لم يزُرني النوم، فكلمة «الأعداء» رنَّت في رأسي، أجراس حرب شعواء، هَل تُشير قِشطة إلى أن هُناك مَن يتربص بالعبد لله في المحروسة؟ هل يُوحي الرب بالكلام الباطني على لِسانها؟ عَلامة مخصوصة وإشارة مُباركة بالمُضي، كي أبدأ رِحلة الفرار مِن أرض مِصر، أسوة بخالي «مُوسى» عليه السلام حين فر إلى بلدة مَدين؟ هَل أنا مُراقَب؟ مَلحوظ ومَرصود مِن قِبل أعداء جُدد، يُريدون سَرقة جراثيمي(35) المَنوية لتفريخ نَسلي المبارك في أرض الكَواكِب البَعيدة القذرة؟

ولأني نَبي مُعتمَد، ذُو بَصيرة وعَبد للصَّمد، لم أكن لأتوانى لَحظة في الأخذ بأسباب السَّماء، وتتبع عَلاماتها المُشفرة؛ لِذا فقد عزمت على المُغادرة، وجَمعت اللازم والضَّروري فقط من أغراضي وأغراض قشطة في حقيبة كَبيرة، مَلابس صيفية، بَدلة سَهرة لُزوم الحَفلات المسائية، بومباغ(36) ستان أسود، الكاميرا، وزُجاجات مَحلول الكولوديون لزوم التصويرات، المِنظار الفلكي وحقيبة العدسات، سَاعة الجيب «نوردمان فريرس طراز ١٨٥٥»، سَاعة الحَائط ذات البندول النحاسي لمُضاهاتها بساعة الجيب مِن أجل ضبط الوقت، رَطل بُن أحمر عثمانلي غامق محوج، وِقَّتين جُوزة الطِّيب، وقة

حبهان، قزازة «توليفة سُليمان» إياها لدعم الانتصاب في ليالي الأنس الإفريقية بعد الولادة بسلام، علبة كُوتشينة «بوسطن» أمريكاوي بظهر مرسوم عليه بنات عِريانة، وبَرطمان زُجاجي يَحوي جَنين أمهَق يُعاني السيكولوبيا(37)، له عين واحدة في منتصف جبهته، ومن رأسه تخرج سَبعة أذرع زُغيرين، مِثل أشعة الشمس، في الليلة التي استخلصته فيها مِن بطن أمه المتوفاة قبل دفنها؛ جَاءني في المنام أمر سَماوي صريح ومباشر: «ألقِه في مَنابع النيل يا سليمان».

قبل الفجر.

تَسلَّلت مَع قِشطة مُتخفيَيْن إلى مِيناء بُولاق، رَشَوت رئّيس السَّفينة البُخارية لنَصعَد إلى المَتن دُون تسجيل أسمائنا في قلم البازابورتو(38) أو إبلاغ جُمرك أسيوط(39) المَنيع والحجر الصحي فيه. اتخذنا الطريق المبلول عَكْس التيَّار، فَارين مِن المَوت والخَراب، ومِن سَرقة ابني وَسط الضَّباب، إلى قَلب إفريقيا المُتأجِّج. أربعة وثلاثون يَومًا مِن عَذاب الانصِهار، والغرق في شوربة مالحة مِن عَرقي الحَار، صِرت زِنجِيًا أصيلًا لَن يَتشكك في نسبه وأصله تَاجر عَبيد مُحترف، ولم يرحَمني الذباب، أو تُشفق عليَّ أسراب الناموس أو البق والبراغيث، وغادرني النَّوم عُنوة بعدما استعنت بالتُّنباك والقهوة والحلتيت والنشوق(40) لأقوى على التيقُّظ من أجل مُباشرة المُراقبة اللَّصيقة لطَاقم السَّفينة والركَّاب المتآمرين الفُسوق، أتربَّص بجَاسُوس يتربَّص بِنا، وبالمِنظار المُكبر أمسَحُ الضِّفاف، لعلِّي ألمح بين الأشجار المتواطئة فوَّهة مُصوبة إلى بَطن

قِشطة البارزة، فكم مِن عَدو أراد أن يَغتال نَسلي مُنذ وعيت على الدنيا، ويُنهي حِلمي في تولية خَليفة يَحمل اسمي ويرفع الرَّاية مِن بَعدي.

تخطَّينا أراضي البقَّارة والبجة(41) بدفع الإتاوات المكلفة، لتجنُب السَّبي والأسر، وأخفيت «قِشطة» في بَطن الباخرة تحسُّبًا للغدر، وحِين وَصلنا إلى مُستنقعات بَحر الغَزال قُرب دارفور، اضطُرِرنا إلى التَرجُل مِن الباخرة، اعتلينا ظهور الجِمال، سِرنا في جُنح الليل ثلاثة أيام طُوال، وطَاردتنا عِصَابات الكِلاب الوَحشيَّة، كل تلك المشقة حتى نتجنب المرور بمنطقة نفوذ النخاس الملقب بالباشا الأسود «الزُّبير رَحمة»(42) ونتلافى مُلاقاة عِصابته الذين يَصطادون العَبيد لصَالح الخِديوي في السِّر، وتحت أنف الأمم الأروباوية، والذي يَدّعي «إسماعين» أمام ملوكها ويتمنظر، بأنه المُكافح الأعظم لتجارة العبيد في إفريقيا والشَّرق الأوسط، أملًا في كَسب ودّهم، بالتمسح في أرديتهم القطيفة الأفرنكية، وهُم مِن جِهة أخرى؛ يُؤكلونه سلاطين المقرونة الإزباجتية، بإشرافهم على حَفر القناة السويسية(43)، تلك البدعة الملعونة التي ينتظرها العالم، والتي ستمزق شِبه جزيرة سيناء، وتفشخ البحر الأحمر كوركَي الفرخة، فتبتعد قارتنا الإفريقية عن شقيقتها الآسيوية، لنهيم في المُحيط طافين، مُبتعدين عن كعبة مَكة وقُدس فلسطين، فتغادرنا البَركة، ويَهجرنا البخت والحظ، وضَروري سنخبط في صَخرة، فتنقلب القارة بمَن فيها، ونغرق في ثانية، كُل ذلك من أجل أولاد الزانية.

القصد، بعد أن تجنبنا أراضي النخاس، رَكبنا باخرة أخرى تحمل

علم «إيطاليا» للتخويف والتمويه على فِرَق المتربصين الأنجاس، أبحرنا عَلى متنها سَبعة وعُشرين يَومًا إضافية، أُصِبت أثناءها بحُمى عضال مُستعصية، فَقدتُ خِلالها خَمسة عَشر رَطلًا من وَزني، وزارني خِلالها خَالي «فتحي» الذي حُكم عليه بالإعدام مُنذ أربعة عشر عَامًا الله يَرحمه، وعَمَّتي «تفيدة ماكوين» المُتنيحة بعد أن وُلدت بيوم، وكُنت عَليها فأل الشؤم، وآخر مَن جَاء، كَان حقًّا مُفاجأة المفاجآت، «جِبريل» بذات نفسه، ربنا يِعلِّي مَراتبه وعليه ألف سَلام، أتى متنكرًا في هيئة طبيب كي لا يخافه البحّارة، ومَعه رَطلان بورتُقان في كيس بدوبارة، عَمَل الواجب وزيادة كَتَّر خِيره، ونفحني مِن جناحه الأيمن رِيشة كبيرة، ليَشدُد مِن أزري وينفخ في صورتي، وكَان مجيئه فَأل سَعد ويُمن وبَركات، زالت من بَعده آثار الحُمى عن جَسدي، وفي اليوم التالي؛ أشارَت قِشطة إلى حَربة، رُشقت في الأرض الطينية قرب الضفاف، بين شجرة وصخرة، تعلوها جُمجمة بلا فك، مَصبوغة بلون أحمر قانٍ، فصَاحت حبيبتي في فرحة وبصوت حيّاني: «جآني كِبورو»؛ وتعني بلُغتها: «تِلك دِياري يا عبد الهادي».

عِند ضِفاف أراضي الأزاندي، مَعقل قبيلة «النيام نيام»، خِيرة أكلة لحوم البشر الأشد بأسًا في قلب القارة المهيِّبة، هَبِطنا من السفينة، مُحاطين بنظرات الرّيبة والشفقة وانعدام السَّكينة، مِن بَحّارة مُخضرمين، هَمس كَبيرهم في أُذني بنصيحة أمينة: «ليس هُناك مَن عَبر أرض النيام نيام، ثم عَاد ليحكي يا سِيدنا الأفندي، وإن كَانت الجارية عَجباك؛ فيه منها أُلوفات». تجاهلته، وسَاندت «قشطة» التي تخطّى الحَبَل في بَطنها الشهر الثالث عشر، لتعبر فوق السلم

الخشبي، فغمغم: «حَقَّة! كَيِّيف الخرا يشتري له مَعلقة»، شَكَرت مَساعيه الكريمة، وتقبلت عزائي مِنه مُتمتمًا بأوراد المَغفرة والرَّحمة، وذكَّرت نفسي، بأن البشر صَنفان، فِيهم مَن تسعَى الحظوظ إليه، وفيهم من يِبعبص رُوحه بيَديه.

تخللنا الأشجار العَالية، سَارت «قِشطة» بين جُذوعها بخفَّة قِردة متمرسة، حتى مَر نِصف نَهار، لَسعتني فيه جميع حَشرات المَعمورة عَدا الأصيلة الكُمَّل، أُنثى الصُّرصار، والتصقت بظهري دِيدان سَوداء ملعونة مَصَّت نِصف دِمائي بإخلاص بَعد خوضي لجَدول مَاء آسِن. حين غَربت الشَّمس، وتمكَّن مِني الوهن واليأس، مَرَّ سَهم على بُعد مللي مِتر مِن رَقبتي، رَشَق في جِذع شَجرة بجانبي، فحصته قِشطة، ثُم ابتسمت: «أبشر يا سُولوم العُمر، لقد وَصلنا إلى حُدود قبيلتي»، ولكن الفرحة لم تكتمل، فبعد لَحظات؛ اهتزت فُروع الأشجار، وخَرَج من بينها «بَاكَا»، ابن عم «قشطة»، ضَخم كذَكر غُوريلا عَاري، لا يَستر أيره الممطوط والمُبالغ في حَجمُه عَ الفاضي نتيجة الحَر الإفريقي؛ سوى كَف بَشرية مَبتورة مِن مُنتصف الرُّسغ وأنت نازل، مُعلقة في حِزام جِلدي بخصره، وتتدلى الأصابع الخمس مِنها لتُداري الخصيتين، في خَمسة وخمِيسة واضحة، دَرْأً لعين الحَسَد، وقد صَدق مَن قال: «إيش يفرق لو كان طويل مدّاد؛ إن ما كانش شديد سَدّاد!». وعنها، نَظر مُدّعي الفحولة إلى بَطن ابنة عَمّه المُنتفخة، ثُم حدجني بنظرة تفيض بالعار والغضب، الواد شرس، كَشر عن أنيابه ليفترس، فانقبضت مَثانتي، ثم ثارت من الرعب فتحررت، بُول دافئ روى أرض الغابة من تحتي، ولما جَال في خاطري للحظة، قياس

قُطر السيخ الذي سيخترق إسْتي كَي يَسهُل دَوراني على الشواية فوق النار الحامية. سَمَّيت الرَّب في سِرّي، وألقيت ما على ظهري من حَقائب وساعة الحائط، وقلت «يا فَكِيك»، ورَكضت بعزم ما أوتيت، كَما يركض الأرنب مِن صَقر عنيد، دَهَست حيّات وحشرات، وذكريات جَمعتني بقِشطة، وهشمت جذوعًا وابتلعت كل أوراق الشجر، ثم بلَّعت بالنعناع، حتى التقطت أذناي صَفيرًا حَادًّا، تبعته سُخونة اخترقت قفاي! لم ألتفت، فقد تذكَّرت امرأة عَمّي «لُوط» الفاجرة، التي تحوَّلت إلى تِمثال من المِلح حِين التفتت فُضولًا لترى عَذاب الرَّب في قَومِها المأبونين بقريتَي «سدوم وعمورة» قبل نزول العذاب من السماء، لكِن قَدمَيّ مَع الرَّكض باتتا عُودَي مقرونة، ورأيت بعينَيّ جذوع الأشجار الضَّخمة تهز وسطها دُون صَاجات، ثم نَزل الليل علينا بسُرعة البَرق، شمس انطفأت في طشت مَاء، وآخر ما سَمِعت كَان... وقع ارتطام جَسدي على الأرض!

الإفاقة... اتخذتْ يَومَين، أدركت خِلالهما أني أُصِبت بسَهم مُخدِّر أطلقه «بَاكَا» ابن العم، بنفخة في أُنبوب مِن البُوص، غَرقت من بعده في النوم فجعلوني بلبوص، ولأن جَسدي هزيل، لا يرى نور القمر الخبيث ولا ضوء الشَّمس، واعتزل أكل اللَّحم مُنذ تكلم خَروف العيد يَومًا أمامي قبل الذَّبح، قرر سَاحِر القَبيلة الأهتم(44)، الذي تولى أمر إفاقتي - ويا ليته ما فعل! - صَب سَائلًا أحمَر لاذِع المذاق في حلقي، عَرفت بعد ذلك أنه عَرَق فرس النَّهر، يَجمعونه بمَسح وَرق الشجر العريض لمَسام الحيوان الضخم، ثم يَتركونه ليختمر أكثر مما هو مُختمر!

لما تَلاشت الغَشاوة عن عَينَيّ رُويدًا رُويدًا، أدركت بِما أفقهه من لُغة قشطة نتيجة العِشرة؛ أن اسم «قشطة» الأصلي، قبل أسر جَلَّابة العبيد لَها، كَان «أمبيتي»؛ ويَعني بلُغتها «زَهرة»، هَكذا أرادت مِنّي أن أناديها منذ ذلك اليوم، وتفاوضت معها أن أنطقه بالترجمة العربية. كَما أدركت أن حَبيبتي، ليسَت إحدَى فتيات القبيلة العاديّات، بل هِي استثنائية، لَمونة في بلد قرفانة، فحدقتاها الزرقاوان فريدتان مِن نوعهما بين أفراد قبيلتها الذين كُنت أظنهم يُشبهونها، ذَلك بخلاف الذيل الزغير منقطع النظير الذي ينظرون إليه في استغراب ودهشة وتبجيل، سُلالة مُكن وقُدسية ملوكاني.

ذَات صَباح، تأكدت مِمّا ظَننت واعتقدت، حين شهدت طابورًا مُزدحمًا يَمر بشجرة باسقة، اضطَجعت في جَوفها زهرة، فارجة سَاقيها كدلتا النيل، كَاشفة بَطنًا صَارت في حَجم فيل، يلمسها الرجال والنساء بأناملهم ليتمسحوا ببركات ابني «جَلال الدين سليمان السيوفي» في خُشوع، وينحنون أمام أمّه الميمونة المباركة، وهُم ينشدون في تبتل: «نَاجَاسودي ناقوجُو كو... نَاجَاسودي ناقوجُو كو»، فهللت معهم كخروف في قطيع، ودَمِعَت عَيناي وأنا أشهد تبجيل وتوقير «أُم جلال» يَعلو ويَعلو في الصدور، مَع استطالة صفّ، وصل إلى ضِفاف النهر، مِن أبناء القبيلة البارّين. فانتابني الفُضول، وسَألت ابن العم هامِسًا عن مَعنى النشيد المَهيب، فهرش في أيره المَحشو بالقش، ثم أخبرني وهو يختلس النظر إلى أيري الفخم، حَاقدًا حاسدًا ناقمًا، مُقارنًا فحولتي بعجزه، ضَاحكًا بملء فمه ليُداري همه: إن النشيد يَعني: «مَولود من أُم عَذراء». أبناء الأفاعي يُشنّعون

على ذُكورة سليمان السيوفي؟ يتهمونني بالعُنة والارتخاء، بعد أن زرعت بذرتي في أرض ابنتهم دُون عَناء! مَعلهش يا زمن، في بعض الأيام نكون التِّمثال في قلب المِيدان، وأيامًا أخرى، نكون الحَمام اللي يشّخ عليه.

لقد أصَابني الخوف من انتشار الشائعة المُغرضة حَول فحولتي، وازداد الطين بلَّة؛ حِين لَمحت بالصُّدفة البحتة ابن العم وهو في كُل رُكن يُمارس الطرطرة، يُريد أن يترك رائحته ليفرض السيطرة، بأير يمشي معه، ساق ثالثة، فضَربتني الكآبة والغُمَّة، وابتُليت بالجزع واليأس والغُصّة، كَيف لسُليمان السيوفي؛ سَاحر البلابل ومهيِّج المدامات، فَحل السيدة زينب الخَصيب، أن يَصير عَاجزًا عنينًا بأير لا يُصيب؟! ثُم فَهِمت بالبَصيرة والنبَاهة، أن اتِّهامي بالعُنة والضعف، مؤامرة من ابن العم، يُريد أن يَضرِب عصفورين بحجر، منها: يشنِّع على أميرتهم «زهرة» التي لم ترضَ به عريسًا، فيتهمها بالحمل سِفاحًا. ومنها: يَطعن بالعجز والارتخاء والضعف أيري المَحبوب فاتق الفتوق، مُرمّم الخروق، الحاصل على لقب فلاح، إذا دخل حفَّر، وإذا خرج قشَّر، ولو دَخل المُحيط لكدّر الحِيتان وجعلها تنتحر!

ارتاحت نفسي لذلك التفسير الوافي لسلوك الغوريلا الحقود الحافي، وإن نالت مني التساؤلات رغم ذلك وأصابتني في مَقتل، هَل قِشطتي زهرة بتول حقًّا؟! لِمَ لا يكون «جَلال الدين» بذرة زرعها النخَّاس الذي بَاعها لي مُنذ سِنين في الوكالة؟ والبطن التي ظننت أنها كَبرت أمام عَينَيَّ أربعة عَشر شهرًا، مِن الوارد أن يكون انتفاخها الأصلي بَدأ مُنذ ثلاثة أعوام أو يَزيد! ربِّي... لِمَاذا لَم يَمُت أبونا آدم

بضُلوعه كَاملة وكُنا خلصنا! دَفنت هواجسي في صَدري، واكتفيت بانتظار وُصول الوليد بكل صَبر، مُترقبًا رَصد الشَّامة التي تتوسط الإست، عَلامة وراثية لا تخطئها عين في نَسل السيوفي، ظهرت وتجلت مُنذ الجد السابع «نصر أبو صبيحة» رَحمه الله.

حَماتي؛ السِت أُم زهرة، كَانت سِت أصيلة وكُمَّل، جَلَست أمامي عَارية كما وُلِدت إلا من عُقد يُحيط عنقها الطويل، تتدلى مِنه عَظمة زُغيَّرة لَم أجتهد لأدرك أنها غُصغُص أبو «زهرة» الله يرحمه، أُصيب بتآكل الغُضروف في نِهاية حَياته، قبل أن يقتله الجلَّابة في إحدى هَجماتهم لأسر أبناء القبيلة، لقد عَانى المِسكين ألمًا مزمنًا، لم تُخطئ عيني عَلاماته المحفورة في العظمة البائسة. عَدا الشعر الأبيض، والوشوم الغزيرة التي تُغطي كُل جَسدها تقريبًا وحتى المهبل لم يَسلم من الدّك؛ كَانت سِت الكُل تَحمل مَلامح ابنتها، رَاح تطلعي وحشة لمين؛ خَصر الأم عريض وسمين! رَمَقتني الحُرمة بعَجَب، كمَخلوق انقرض، ثم مدَّت يَدها بجُوزة مَشقوقة تَحوي مَشروبًا أزرق، تجرعته حياءً ودُون أن أسأل عن كُنهه، واستسغته، قبل أن أعرف أنه لبن فرسة نَهر وضعت رضيعها منذ أيام! ثُم أتى ابن العم «بَاكَا»، مفتونًا مُختالًا مَخدوعًا بأيره المغشوش، يظن نفسه «علي كاكا»(45) ابن العبيطة، رَمَقني في غرور، ثم ناولني وَرقة شَجَر عريضة، فوقها قِطعة لَحم نَيئة تنز دَمًا. بامتعاضٍ فشلت في إخفائه؛ تمنَّعت، فتبدلت مَلامحه، وكأني كَسفَت يديه في رَطل كَباب وطَرب من مطعم «حنفي القصَّاب» بالحسينية، صَرَخ، ورَشَق رُمحه في شَجرة بَعيدة بكل غِل، ثُم رَحل مُغاضبًا يُبعثر اللعنات.

فهمت بَعد ذلك أن بنات النيام نيام مُحرَّم عليهن الزواج مِن ذكور القبائل المُجاورة، أو الخَواجَات مَسلوخي الجِلد من أمثالي، هَكَذا ينعتون كل أبناء الشَّمال الإفريقي، وكأننا مُصابون بالبهاق، وكَان «باكا» بيه لُه زمن نازل في بَحر المحبَّة عُوم، ومتمعشَق في سِت قِشطة قبل أن يبلُغ الحُلم، يتمنَّى اليوم التي ستصير فيه زوجته، ولكن، أتت الرياح بِما تشتهي سُفني، وأغرقت باقي السُّفن، فقد أغار رِجال تاجر العَبيد «الزُّبير رَحمة» عَلى القبيلة، قتلوا أباها واختطفوها وأختها فتحية الله يرحمها، وتم بيعهما في القاهرة لصَالح جلَّابة وكالة المحروقي(46)، ليكون قدري أن أشتريها فأتزوجها، وأعود بها اليوم حُبلى، ولولا كرامة لزهرة وَسط أبناء قبيلتها؛ لعلَّقوني مِن شَعري، وسَلخوا جلدي حَيًّا، قبل أن يأكلوني نيئًا دُون ملح، لكنهم تقبلوني على مَضض، باستثناء ذَكر الغوريلا الحَقود، ظل مُمتعضًا مثل القرود، ينظر لأيري كاسر السدود، ثم يبكي من المقارنة الظالمة لجِنس الأفارقة، وزاد الطين بلَّة، أنَّ اللحم الذي قدمه لي فوق ورقة الشَّجر؛ كَان كَتفًا لعَدو مِن قبيلة مُجاورة، قتله ليلة وُصولنا، عَلامة وِد، وعَربون صَداقة، بأمر من حماتي، وكَان رفضي أكله، احتِقارًا لشَخصه، وازدراءً لمجهوداته، طبقًا لتقاليد النيام نيام، والعِقاب المُتعارف عليه في تلك الحَالة هو أن يعملوني طواشيًا(47) عَن طَريق جَب أيري وبقجتَيْه المُتدليتين بسِكين حَاد، ثم صَبّ الزِّيت المَغلي على مَوضِع القطع، قبل الدهان بالحِناء، لأُدفَن بعد ذلك في رِمال سَاخنة تكوي الجرح مِن أسفل السُّرة، ثلاثة أيام، إن متُّ؛ فذلك مَصير الضعفاء، ويَأكل ابن العَم خصيتَيّ طَرنشات، وإن عِشت؛ صِرت «سُليمان أغا»، خَصِيّ القبيلة الوحيد، أهيم بجلابية دُون لباس،

وأسترزق مِن بَيع الصَّمغ وريِش النَعام والعَاج بالتقسيط للقبائل المُجاورة، وأستأنف البحث عن منابع النيل، لأتُف فيها من أجل مَصلحة البشرية.

مُنذ تلك اللحظة لازمتُ سَكني الذي يقع داخل جَوف شجرة «لومبي» ضَخمة، لم أغادرها حتى لأشُخ مية، كَي لا يَطولني سَهم مَسموم من أسهم الكارهين. ثم راودتني فِكرة مُكن؛ رأيت نفسي فيها أُشعل النار في الأشجار، وأبيد ذِكر تلك القبيلة عن بكرة أبيها من الوجود، فأدخل الجنة، وأزيط مع البنات الحِلوة، لَكني تذكرت أن الرَّب - مِن بَعد خَالي يُونس عليه السلام - لم يكن ليَغفر تقديم استقالة غَير مُسببة مِن كَار النبوة.

بَدأ المَخاض، واختارت «زهرة» أن تَضع حَملها في كَهف عَجيب، يَقع في مُنتصف جَبل ليس له طريق، اتخذ الوُصول إلى مدخله خَمس سَاعات، تقاليع بنات، وصُعود عَسِر لم تحتمله رُكبتاي، خذلتاني وطقطقت صابونتهما، فاختل ميزاني وكِدت من علٍ أن أسقطَ، لولا أن انتشلني ابن العم، وَضعني فوق كَتفه كَما الجدي، بَعد صَرخة آمِرة مِن «زهرة» التي أكملَت الصُّعود وراء أمها، بصحبة داية كَركُوبة في عُمر التسعين، تملك صِحّة وعَافية لا يملكها «شِكيب» ناكِح المَوتى السمين.

في قَعر الكَهف، ولمَّا أوقدوا المشاعل، تلألأت بُحيرة، مِياهها ضَحلة فَيروزية، وتألقت الجُدران حولها برسومات تنتمي لبشر بدائيين بائدين، أجداد «زهرة». ذيول قصيرة، رقبات طويلة، وأجساد مَطلية بلون أحمر مِثل الذي دهنته حَماتي على جَسَد زَوجتي ولطّختني

ببقاياه حين دخلنا الكهف. أشعلت الداية الكركوبة بُخورًا كثيفًا أعمى الأعين، وبَدأت في الإنشاد. رطَان عَجيب، بحروف لم تختبر أذناي مخارجها مِن قبل، كانَ لها عَظيم الأثر على عَقلي، أسكَتت صَخب أفكار لم تسترِح مِن زمن، وأطفأت هواجس تتناسل مِثل الأرانب الجبلية، مفعول غطس في بحر من غُشبة يوحنا بالشعرية. سُكون، جَعَلني أهيم في رُسوم البائدين على الجُدران، سبعة رِجال، أجسَادهم مَصبوغة بلون أحمر، يلتفون في دَائرة حَول حَجر أسود مُستطيل، يُشبِه مذبحًا، يَجلس فوقه رَجُل بِلا ذيل، وغَير مخضَّب بالأحمر، مُقيد بالحِبال مِن أطرافه الأربعة، ومِن وَرائه وقف رَجُل «سيكولوبي» له عَين واحدة في منتصف جبهته، على رأسه تاج، تخرُج مِنه سَبعة خناجر، يُشبه في هيئته الجنين الأمهق الذي يَسكن بَرطماني الزُّجَاجي. السيكولوبي كَان مُمسكًا بسِيخ عَجيب، نِهايته مشقوقة مُلتوية، يَدُسه في فَم الرَّجل المقيَّد فوق المذبح.

لم أملك رفاهية الفهم والاستيعاب في كَنَف عَائلة مِن أكلة لحوم البشر، دِماغي كان رأس طائر مُحنط مَحشو بالقش، البخور والغناء بَثَّا في ثنايا العقل خدرًا وغباءً لم أعهَده، والغوريلا المِرق، ابن العم، كَان يَرمقني بنظرات طبَّاخ يُحضر مقادير طبخته، حتى صَرخت «زهرة» صَرخة أفزعت الخفافيش في السَّقف، فاقتربت لأشهد خُروج ابني بعد أربعة عَشر شَهرًا من الحَبَل، وهُنا، حَدثت المُعجزة الثانية: «زهرة» لم تُفرج سَاقيها، والمهبل لم يتسع كعَادة المهابل ليبصُق الجنين بخلاصِه، إنما أحنت المِسكينة ظهرها في سُجود طويل، صَلاة استسقاء يُصاحبها العويل، ثم اعتدلت بوجه

مُحتقن، وعينين كادتا تفر من مَحجريهما، تلوَّت كحيَّة مَمغوصة، وتمتمث بكلمات مُبهمة، وَسَط تراتيل هستيرية أخذت تعلو وتعلو مِن فَم الداية الكركوبة أُم تِسعين هِباب على دماغها. انتفخت ضُلوع حبيبتي، طقطقت، وانكَسر إحدَاها بصوت مسموع، ثُم أطلقت حَلَمَات ثديَيْها سرسوبَيْن طائشَيْن مِن اللبن، في اللحظة التي فتحت فيها فمها، زاوية لم أظن يومًا أن كائنًا حيًّا قادرًا على الإتيان بها عَدا الثعابين. طَلْق مِن الحَلق، فبُح صَوتي مِن صريخ خَرج عَن السَّيطرة، فوَكَزَني ابن العم وكزة زحفتُ بعدها نحو ركن الكهف في قهقرة، البقرة بتولد والتور بيحزق... ليه؟! أهو تحميل جمايل، قبل أن يُخرِسني انفصال فكَّيْ حبيبتي، السُّفلي عن العلوي، بطقطقة مَسموعة، تِمساح تثاءب، وبَرزَ من بين الأسنان رأسُ جنين في كِيس شفاف أزرق، جَاهدَتْ «زهرة» لتتقيأه: «أع أع». حَزقت حتى انزلق، فتلقفته حَماتي المَصُون، وارتمت زوجتي المسكينة على الأرض وهي تهذي في جُنون، فانكفأت عليها الداية ذات التسعين، وأعادت الفك إلى مكانه بحرفة نجار مُجرِّب أريب، ثم سَاعدت «زهرة» على الجلوس، وكَبَست على رأسها قِناعًا، كَان في يَوم من الأيَّام رأس لبؤة حقيقية، زوجة لأبي السباع.

تِلك لم تكن المعجزة الأخيرة!

فجلال الدين سليمان السيوفي؛ ابني البكري وآخر نسلي في الدنيا الفانية، تلوَّى على الأرض، ثُم شَقَّ الكِيسَ بأصابعه الزغيرة، مزَّقه وتحرر. اقتربتُ مِنه مُتمتمًا بدُعاء الستر والصِّحة، ولم يَطمئن قلبي حتى لَمَحت الشَّامة التي توسطَّت إسْته، وتمعَّنت في لون

بشرته القمحي الداكن، فحَمدت الله على براءة «زهرة» من السفاح، وسَجَدت على أرض الكهف سجدة شُكر وسَمَاح، ثم مَدَدت يَدَيَّ لأحمل النونّة وأكبّر في أذنه مثل كُل أب فينو جديد. لَحظة انتظرتها منذ نبت لي أير، لكن الوليد، كالدودة زَحف، تحامل على نفسه، وعلى قدميه وقف، ترنَّح كسِكير، ثُم اتَّزن، نَظر في عَينَيِّ للحَظات، ثم قال: «بووووقققززز» بتِفافة تَطايرت مِن فَمه، قبل أن يلتقط حَبله السُرِّي بيديه، ويلوكه كما ثُلاك النقانق في المَسمَط، حتى قطعه. هُنا، شُل مَا تبقى من عَقلي الذي لا أملك من حطام الدنيا سواه، فقد شَهِدت مُعجزة لم تُذكر في سِيَر الأولين ولا كُتب الحواة، مُفاجأة مُدوية، أخذتني لدقيقة كاملة، انقطعت فيها أنفاسي، وكِدت أبول في لباسي، ولم أستفق، إلا حين رأيت بعينَيِّ سِكينًا مَسنونًا، يسلته عين أعيَان العَائلة الكَريمة؛ ابن العم، وفي ملامحه اختلط الجنون بالحقد والغل، فقُلت يَا فَكيك، ورَكَضتُ، مُقتحمًا سَحَابات البخور، بهيمة عمياء تفِر من عشرة جزارين، دَفعتُ بكتفي الحُرمة الكَركُوبة، سَمِعت عِظامها تتكسر على الأرض، وعبرتُ بأعجوبة من بين ذراعَي الغوريلا حتى خَرَجتُ من الكهف، تدحرجتُ على الجبل، مُقاومًا أفكارًا نبتت من الأرض لتُعيق سَاقَيِّ، أغصانًا شيطانية، تصرُخ بعلو صَوتها في أذني: «ابن العم، والأرملة السوداء، حَمَاتك المَصْون العوجاء، سيطهيان أيرك يا سُولوم، على العشاء».

لما انتهت دَحرجتي أسفل الجبل، كَانت بانتظاري مفاجأة، أكثر من مِئة رَجُل وامرأة من قبيلة «زهرة»، ترش الملح ما ينزلش عَ الأرض يا مؤمن، عُراة كما ولدتهم أمهاتهم، يَرفعون الأعناق إلى مَوضع

الكهف في تبتُّل وخشوع صامت، تِرمي الإبرة ما ترنِّش، يترقَّبون رُؤية الوليد المَبروك الذي الْتهم للتوّ حَبله السُّري بكل هُدوء، مِثل زوَّار سِيرك قطعوا التذاكر في شَغَف لرؤية البقرة أُم ثلاثة رءوس. مَا إن رأوني حتى حَاصروني، حَمَلُوني على الأكتاف في زهو وفخر، قبل أن يُشير أحدهم إلى حماتي - الله يجحمها مَطرَح مَا رَاحت - والتي خَرَجت من الكَهف مُمسكة بيد جَلال، بكل فخر، سار بجانبها على قدميه، متزن كصَبي عُمره سَنتين، ومن ورائهما «زهرة»، مُرتدية قِناع رأس اللبؤة، مَا إن رَآها أبناء القبيلة حتى سَجدوا لها في خُشوع وخضوع، الغُشم. فاقدو الرشد، إن رأوا ما رأيت في الكهف، لألقوا بأنفسهم في النهر، فهُم لم يسمعوا الشاعر عَنترة بن شدَّاد حِين قال يَومًا: «إنَّ الأفاعي وَإن لانَت ملامِسها... عِند التقلُّب في أنيابها العَطَبُ».

وَسط الاندهاش، وذُهولٍ؛ حَمَل الأعناق أن تشرئِب عَجبًا، ألهمني ذكائي المتفرد أن أتعرَّى مِثل جُموع الغوغاء، وألطخ بالطين وجهي وأيري الذي اختبأ في إستي من الذُّعر ، وأقلِّد هَمهمات الانسياق والخضوع، وأنسخ حَركاتهم المتموجة التي تُشبه رقص الدراويش المَمنوع، حتى ذُبت بينهم، ونَجَحتُ في الانسلاخ مِن وسط زحامهم، ثم تخللت الأشجار وابتعدت مُرددًا في نفسي: «يا حمار، لا جَدوى مِن البُكاء عَلى اللبن المَسكوب، أو انتظار النجدة من هيئة إسعاف الجنوب، إن البقر الحَلوب؛ مفيش أكتر منه في وكالات الجلَّابة يا غشيم، ولبن زهرة لن يكون أسود اللون»، حتى عَلا ذَلك الهتاف العَجيب الذي اخترق صدري وأسر قلبي: «وِيري ييسو... وِيري

ييسو»، تسمَّرت في مَكاني دون شاكوش، واقشعر جلدي من الرهبة والخشية والوَجل، ثُم ضَرب شُعاع الشمس وَجهي مخصوص من بين أغصان الشجر، استقصادًا وتَجلّي، وإشارة ببدء العمل، تِلك لَحظة الاستنارة التي انتظرتها مُنذ بلغت الحُلم يا سُولوم، فرحة، طغت على كُل مَا قبلها مِن أحدَاث، فاقت يَوم ارتقائي لمَقام الأنبياء وتعييني رَسولًا للنباتات «دَرجة ثالثة» دُونًا عَن بقية الكائنات، لَحظة فَاصِلة، كُنت قبلها مُجرد «سُليمان السيوفي» ولم أعد كَذلك، مِثل عمي نُوح الله يرحمه، قبل الطوفان وبَعده، مِثل يُونس العَزيز، بين الْتقام الحوت ولفظه، ومِثل خالي الحَبيب مُوسى، بين شَق اليمّ ورَتقه، فنِداء «ويري ييسو... ويري ييسو» بلُغة النيام نيام كَان يَعني: «ابن المسيح... ابن المسيح».

العبد لله، من اليوم، لم يَعد أفقر الأنبياء، ولَن يَبيت يومًا آخر مَحرُومًا مِن المُعجزات، لقد أعتقتني السَّماء مِن بطء تلقي الوحي في فروع اللبلاب على الحائط، مُوضة؛ أخدت وقتها وراحت لحال سبيلها، وتجلّت الحقيقة الآن في أوضح صُورها، واستبان لِي من بعد كِفاح، أنني المَسيح ذات نفسه وقد نسي نفسه، لقد ترقَّيت مِن توِّي وعلى غفلة، إلى جِنرال في دنيا الأنبياء، نابليون الرسل الأتقياء. مِن اليوم؛ سيكون من واجباتي إحياء المَوتى، بدلًا مِن العزاء فيهم من بَعد المَغرب وشرب القهوة، سأتحمل مَسئولية إبراء الأبرص والأكمه والمشلول والعنين، والنفخ في تِمثال من الطين على هيئة طَير فيَصير حَمامة محشية بالفريك بإذن الرب، سأُطيل شَعري، وأمسحه بزيت الزيتون حتى يتدلى على الأكتاف، سأُدير خَدي الأيمن لكل

من لطمَ الأيسر، سأصنَع مِن الشُّوك تَاجًا مُكنًا على مَقاسي، سأمشي على الماء، نهر، بحر، خليج، سبيل، نافورة في فناء بيت من بيوت الأغنياء، وسأبدل مُسمى «اليوميات» إلى «إنجيل سُليمان جابر مُختار ناجي سِراج مَهران عيّاد زكي نَصر أبو صَبيحة السيوفي»، مُحرِّر العَبيد الأفارقة، ومُحارب كل دُروب العَنصَرة ضِد السود في باريز وإنكلترا، عدو للخديوي إسماعين وابنه «تيفة» ومِن ورائه كل الأباطرة الأروباويين، وحين أنتهي من رسالتي السامية، سأصعَد إلى الصَّليب وأتسمَّر بنفس راضية، فاردًا ذراعَيّ باعتزاز وفخر، وحدي، ليس في الأمر أنانية، وقبل أن يقتلني المَوت ويفرح فيًا الزبانية، سأقتل نفسي بضربة شمس، فِداءً وتضحيةً للبشرية الضالة الخَرقاء غير المُبالية، طُوبى للمَساكين بالروح، طُوبى لآكلي لحوم أعدائهم بلا تتبيل، طُوبى لكل مَن اتبع أبو القبابطة(48) أجمعين، «سُليمان ابن نواعم». طب والله لقب مُكن وألافرانكة، هَكذا أطلقت على نفسي اختصارًا لاسمي، وهَكذا سأحيا ما تبقَّى من عمري، مُخلِّصًا للبشرية مِن الآثام، ومَاحيًا بحكمتي الأبدية ذُنوب اللئام».

تِلك كانت مَوعظتي الأولى التي ألقيتها من فوق جذع الشجرة، في اليوم التالي لولادة «جلال الدين السيوفي» العَسِرة، عَمَّدته بيدَيَّ المباركتين في مياه النيل، وباركته بالسقمونيا والحلتيت والزنجبيل، ودَعوت له، أن لا يجد الانقراضُ إلى نَسله سَبيلًا، قبل أن أضَع على جَسدي رِداءً أبيض فِضفاضًا بلا خياطة، وصَندلًا من جلد تِمساح مُؤمن بالقضاء والقدر يُجيد السباحة، وبدأت في مخاطبة خِراف بني «نيام نيام» الضَّالين، وإملاء تعاليمي على اثني عشر فردًا

مَخصُوصين، اخترتهم بعناية فائقة اليقين من بين شباب القبيلة والمُسنّين، حَواريّين مُخلصين، سيُبشرون برسالتي عبر الأجيال من بعد رحيلي الحزين، ويُغيرون التاريخ الميلادي الحالي إلى تاريخِ ميلادي، ليصير كل ما حدث قبل ولادتي المباركة (ق س س) بَدلًا من (ق م)(49)، فليس للصُّدفة مَكان في مَلكوتي السَّماوي، أما «زهرة»، بلحة العُمر الأمْهَات، لَم تكُن لتأتِ بالعَبد لله على مَلا وشّه من المحروسة إلى قَلب إفريقيا مِن سُكات؛ لوضع ابنٍ طَالت تَسويته في بَطنها والسلام، بَل إنَّ ولادته من فَمها، عَلامة من الرَّب، كَي أستيقن أنِّي المُصطفى المُختار خصوصي مِن بَين الخلق، أب عَظيم لابنٍ سَارَ على قدميه فور ولادته، ونَطَق بسُرعة البَرق؛ فمَجيئي قضاء وقدر، كُتِب بحِبر الزعفران الطَّاهر في الملأ الأعلى، تهيئة وتحضيرًا للعبد لله الذي أنضجَته الأيام، تحت درجة حرارة تخطت الواحد وستين سلزيوس بالتمام، حَرارة نضج الحِكمة في عقل الإنسان، لأترقى من رتبة «نبي تَحت التمرين» إلى «مسيح الغلابة المساكين».

في الأيام التالية، وأثناء غِياب «زهرة» في عُزلة الاستشفاء من جُروح الولادة السَّامية، وكَذا العِناية بجِلجِل الذي يَرضع مِنها وهو مُنتصب القامة، الْتمست أنا الرِّزق والحَظ، نجسة اليد البطَّالة، ومُوسم المُعجزات إن هَل؛ عَلينا نحن معشر الأنبياء أن نرش المياه أمام الدكاكين ككُل سَاعٍ مُجتهد رزين. وكَان من أمري أن راقبت أفراد القبيلة، فردًا فردًا، مُسنين، شبابًا ونساوين، بالطول والعَرض، أبحث عَن المرضى وذوي العاهات، أبتغي زبونًا أستفتح به، مَشلولًا أُقيم عُوده، أعمًى أجعله مُبصرًا، أصمّ أُعيد له سَمعه وعليه بوسة،

لكني، لم أعثر على فرد واحد يُعاني عِلَّة إفريقية مَحبوسة، حُمّى، ملاريا، جُدري، زنطاريا، أو حتى سُعال ديكي، ألا يَمرض السودان مثل البيضان؟! كَيف لآكلي لُحوم البشر ألا تصيبهم البواسير كآكلي لحم البهائم من أمثالكم؟! ألا تُصيبهم عِين الحسود؟ فأشرع في النبر والنق عليهم وعلى جُملة القرود. إني أُجيد كتابة الأعمال السُّفلية وصُنع الأحجبة منذ عقود، وأستطيع أن أسوق عليهم السيدة زينب والحُسين، فتنكسر شوكتهم وتهاجمهم القبائل المجاورة لتمحي أثرهم في يَوم مَشهود.

لم أعرف سَببًا للصِّحة المُفرطة وخُلو أجساد أبناء القبيلة مِن العيوب، إلا حين استيقظت يَومًا على صريخ مَكلوم لأرملة المدعو «أنوب»، كَهل مِسكين في السابعة والسبعين، غلبته قيلولة قرب أراضي الضباع، فمزقته الأنياب ولم تترك به صُباع. جَمَع أفراد القبيلة ما تبقّى من جثته وأودعوها جذع شَجرة أجوف، أغلقوه بمعجون لِحاء أشجار مَمزوج بالتفافة في جنازة مهيبة، إيمانًا مِنهم أن جسد القتيل يجب أن يَصير سِمادًا لشجرة مَديدة، وهُنا؛ لاحت الفرصة على طبق من ذهب، ولأن جَوهر العبادة، زرع الرعب والدهشة في قلوب العباد، لم أجد تَدشينًا يليق برُتبة «المَسيح» خَيرًا مِن مُعجزة إحياء مَيت تحت أعين أبناء قبيلته بشكل صَريح، سيَطير الخبر طازة مِن بِز المِعزة إلى كُل أطراف المُعمورة، مُعلنًا عَن بَعثي في أُمم الضَّالين، وليفرَح المؤمنون بنُصرة الحَق المُبين، فيُعلقوا الزينة في الحارات والأزقّة على شَرفي، ويُقيموا الليالي المِلاح ويُوزعوا أقماع العسل، ويتغنى عَازفو الربابة بسيرة مَسيح بريمو كَريم، والعب بقى

يا جُمعة دي ساعة الحظ ما تتعوضش!

اعتليت صَخرة عالية، وبإيمان لا يقلّ عن إيمان خالي ومُعلمي العظيم مُوسى (عليه السلام) حين ألقى عَصاه ليشُق اليمّ في سيناء. رَفَعت يَدي ناحية جِذع الشَّجرة المَحشو ببقايا صَريع الضباع، وصَرخت بصوت عظيم مُناديًا: «يا أنوب... هلُم خارجًا»، كَررتها مَرتين وَسَط دَهشة أبناء القبيلة وأهل المتوفّى المَكلومين، حتى طلَّت «زهرة» من خِلوتها لمَّا سَمِعَت صَوتي المهيب، فكرَّرت النِّداء، ولم يَحدُث شَيء مُبين يستحق الاحتفاء، كُنت كَما الطَّبلة، صُوت عالي وجُوف خالي، ولم يَكن إيماني ليهتز من تأخُّر استجابة السماء لطلبي، فاحتراف النبوة يتطلب زمنًا، والمُعجزات في بدايتها لا بد محتاجة زقَّة دعم، مُحرك بُخاري مزرجن يَرفض أن يدور من بعد الرَّكن. ولأن القتيل بالتأكيد لا يفقه لُغتي المِصرية؛ كَررت النداء مترجمًا برطان القبيلة: «مو پِي باكوري أنوب» ثلاث مرات، فحَدثت المُعجزة، والتقطت أُذناي صَوت القتيل من داخل الجذع مُستجيبًا ملبيًا: «زيربي... زيربي»، فانشرح صَدري، ونَظرتُ للسَّماء ثم جَثوت على رُكبتَيّ شاكرًا من فوري، قبل أن أُدرك بالمفهومية أن سَبب العطل الدائم لمُعجزاتي؛ يَكمُن في الحِكمة التي تقول: «الإبرة اللي فيها خِيطين؛ ما تخيطش».

لغُشم ورثته عن أبي وطيبة في القلب؛ لم أفطن أن للقبيلة سَاحِر مُتمكن ملط، مُعتمد، مُسيطر بسحره على الأحياء والأموات منهم بالعدد، وما لبث أن ظهر مِن بَين الأحراش، بفَم خالٍ من الأسنان، مَسيخ دجَّال يَحمل شُعلة الشيطان بين يَديه، مُنافس عَتيد يدعوني

للمبارزة على أرضه، مُكررًا ما ظننته صَوتًا آتيًا من جذع الشجرة: «زيريي... زيريي»، فهَمس الغوريلا ذو الأير الزائف في أذنيّ بشماتة: «سَاحرنا يَقول إنَّك كَاذِب... كاذب»، كَان ذَلك حِين اقترب الساحر بشعلته، حَدجني بنظرة ثاقبة، شَأن كُل حَاقد آجِن فاته قطار النبوة ويئس من تمنّي ذلك الشرف، وكِدت أن أصرخ فيه: «اعترض على مشيئة ربنا يا ابن الموكوسة»، فمدَّ النجس يده وأضرم النار في جَسَد الحُرمة الغلبانة؛ أرملة القتيل «أنوب»، لتتفحم المِسكينة في صَمت. كُنت الوحيد الذي سَمع صرخات الزوج في جذع الشَّجرة، واشتممت شواء الحُرمة، فسَال لُعابي جُوعًا بسبب الرائحة التي ذكّرتني برائحة الشواء عِند «حنفي القصَّاب» الكبابجي، موت الحُرمة بعد زوجها، ذلك كَان الحكم الشرعي عِند النيام نيام، ولو علمه أهل المحروسة اللئام لطبقوه مَعكوسًا، لتمّت الزوجة أولًا قبل الزوج، بسبع سنين. حين انفض الجَمع من حول المسكينة المتفحمة، ورمقني كل مَن حضر النكسة بشماتة قاصمة، خَبَط ابن العم كتفي وقال باختصام صريح: «مَن أراد الأكل مَع الشَّيطان فعَليه أن يَشتري مغرفة كَبيرة يا أبو نَسَب».

في نفس الليلة...

قابلت مَحبوبتي «زهرة» بَعد غِياب، بَرِئ الفم مِن فَشخ الولادة، كأن جَلال الدين لم يَخرج مِن بَين فكيها يومًا، بل كأنها لَم تُقبِّل شفتَيّ أو تفتحهما حتى لتأكل عِنبة. جَلسنا على ضِفاف النهر، تحت شجرة وارفة تحمينا من نور القمر المُكتمل كفى الله الشر، عَريس وعَروسة في شهر عَسل استوائيّ، قدّمت لي ثمرة «كاكايا» طازجة،

التهمتُها وأنا أقص عليها بحَماس ما كَان من أمر المِنحة الإلهية التي تلقيتها يَوم الولادة العجيبة لجِلجِل الحَبيب، قُلت: «خُروج ابني مِن فَمك يا فأل الخير؛ كَان بِشارة عَهد جَديد للبَشرية، صِرت فيه مَسيحًا بأمر العرش المجيد، أول نبيّ كَان نَزيلًا لمارستان قلاوون»(50) في صِباه، الشر برّة وبعيد، ثُم شَكَوت لَها عَن عَطالة أولى مُعجزاتي على يَد مَسيخ القبيلة الدجّال الله يِحرقه بجاز زي ما حَرَق الحُرمة المِسكينة أرملة ضَحيّة الضّباع «إزاي أبقى سَقا؛ ويرش عليّا الميّة؟!»، ثم نظرت للضفاف من حولي وطَلبت منها السِّرية والكِتمَان، قبل أن أسِر لها عَن نيّتي في الارتحال بصُحبة الحَواريّين مِن شَباب القبيلة العاطلين بدل ما هُمّ قاعدين ينشّوا الدبّان، في جولة تَصِل إلى أرض الچركس والچورچيّين الضَّالين، ومِن بعدها بلاد الروس والأوكران الجانحين، ثم أستقرّ في الصين، لأُصلح أعين البنات الممطوطة منهم دون البنين، وأقنعهم بأكل البرسيم بدلًا من كِلاب السكك المساكين.

وكذلك لنشر إنجيل سُليمان السيوفي في جُموع البشرية الصفراء، ليتعظ الناس، ويقنعوا بالكف عن الشُّرب مِن الحَنفية، ذلك الاختراع الأفرنكي النجس الذي تنشره «كوبانية القاهرة للمية» - الله يِخرب بيوتهم - في كل بيت، والذي قررت أنا «المسيح المصري»- بِما تُخوّله لِي صَلاحياتي النبويَّة - أن أُحرّم الشرب من بزبوزها المنحني، كَي لا يَجوع السُّقاة المساكين ويُحرمون من الفول والطّعمية، كَذلك حرَّمت القلقاس والخبيزة والجبنة الإسطنبولي على جُملة الخلق، لأن تلك الأطعمة كانت غَذائي أثناء مكوثي في المارستان وأنا زُغيّر. كَما حَذرت «زهرة» مِن شُرب المِياه في العُموم، فالتماسيح والأسماك

تشُخ في النيل، بالإضافة إلى أن ذلك السائل المُخادع - وكما أُوحي إليّ في ليلة مُباركة - سُم قاتل مُهلك، زُعاف، وللأسف؛ لم يلحظ علماء البشرية الغشماء حتى الآن - لقصور في الفهم والتدبير - أن ذلك المائع الشفّاف؛ هُو سَبب المَوت البَطيء للإنسان، وحَافز لتُفوق الكائنات الغلبانة الباقية والنباتات، فلولا الماء، لربّما أصبنا سَقف الخُلود دون عناء، ولقابل كُل حَي في حَياته جدّي آدم عليه السلام، أول مَن تزوج في البشرية زواج صَالونات.

شَرَدَت سيدة الليل الحزين في كَلماتي. طَال صَمتها، وضَرب الهَم والشجن مَلامحها، قبل أن تلتفت بعينَيْن دَامعتين يعتليهما يأس مَجهول السبب، وتُخبرني بشفتين من البلح بأننا: «يَجب أن نفترق، قليلًا، يَجب أن ترحل عن أرض القبيلة يا سُولوم، لخير ذلك الحُب الذي لن أنساه ما حييت. نفترق، لسلامتك من بطش ابن العم الذي يتربص بك، نفترق مِن أجل مَصلحة جِلجِل كي لا يعيش يتيمًا، نفترق ونحن عَاشقان، نَفترق من أجل النيل والأشجار والثيران، نفترق حتى تصير أسطورة في عينَيّ، وفي قلوب أبناء القبيلة الجدعان» ثُم أحاطَت وَجهي بكفيها، وأردفت بدَمع سَالَ على خدود من البازلت(51): «رِسالة المَسيح المِصري يجب أن تبدأ في مَوطنه، المَحروسة تنتظر بِشارتك يا هُمام».

في عَينيها الزّرقاوين لمست الصدق والإخلاص، وأدركت الخوف على رِسالتي التي بُعثت من أجلها، وعلى مَصيرها ومَصير «جِلجِل»، بِكْرينا الحَبيب الذي وقف قرب النهر يتبول دون اكتراث، حقًّا، وَراء كُل رَجل عَظيم امرأةٌ إفريقية بعينين زرقاوين وفم ينفشخ كفكوك

التماسيح ساعة المَخاض. لثمتُ يَدها، واستنشقتُ رائحة البُن فيها بشغف، ثم غنّيت لها ودندنت: «والله إن سَاعدني زماني ما أسكُن إلا في مَصر، وأبني جنينة، ومن فوق الجنينة قصر، وأقابل حَبيبتي في أرض السود عَ العصر، وأشتري لها حزام دَهب يلف الخَصر»، ثم انتويت الرحيل دُون تردُّد، إلى مصر، بَعدما وَعدتها بالعودة يَومًا حين أُتمم رِسَالتي على أكمَل وَجه، في جُموع البشر الغارقين في ظلام الجهل، بِدءًا من أرض المحروسة وحتى بلاد الچركس والچورچيّين والصين، ثم أعود بسلام إلى أرض النيام نيام، لأقضي ما تبقى من عُمري بجَانبها في سلام، نبيّ على المَعاش، بداخل كَهف فيه شَجرة تَشفي أوراقها مِن الحُمَّى والشلل الرعاش.

في صَباح اليوم التالي، لملمتُ أغراضي واتجهت إلى الضِّفاف، ناولتني حَماتي الطيبة قِطعة لَحم من بقايا قتيل الضِّباع، فضلة خير منها، ولَم أشأ أن أكسِف يدها، وإن انتويت أن أُلقيها للضِّباع لاحقًا لتُكمل وجبتها. لامَس جلال الدين والدنيا لِحيتي بأصابعه الزغيرة وقال: «أوكوموكو»؛ وتعني: «الوداع يا أبي الحبيب، خلّي بالك من روحك الطاهرة يا مسيح الدنيا والآخرة»، أبكاني ابن اللذينا في ثانية، واحتضنتني «زهرة»، حُضن أخير، وهَمَست في أُذني وهِي تخلع مِن رقبتها سِلسِلة كَانت في صَدرها، بها حَجَر قُرمزي على شكل نجمة، وتُعلقها في رَقبتي: «شكرًا على مُصاحبتي في تلك الحَياة القَصِيرة، لا تخلع تلك السلسلة من صَدرك مهما حدث، حتى نلتقي يومًا في زمن لا يعرف الوداع... مَانجو... نَجا بانجا يُو»؛ وتعني بلغتها: «الوداع... أحبك يا سبعي يا جملي». قالتها وأخرجتني

مِن الجنة، وبقيت هِي. نزلت إلى مَركب خشبي له مِجدافان، بعدما يَئِست مِن وُصول «بُراق» يَحملني فوق ظهره إلى الشمال، وحَاشا لله أن أشتكي! هوّ عَشان بقينا أنبيا هنِسرق ولّا هنسرق؟!

تَحرَّكت مع التيار مُلوّحًا بمنديلي لزهرة وجلال، مُحاطًا مِن الضِّفاف بنَظرات ابن العم الذي اعتلى شَجرة، واثنا عشر حواريًّا اصطفوا، وكُلهم مِن نَسل يَهوذا الإسخريوطي، كَفرة، حقًّا، قليل البخت يِلاقي العَضم في الكِرشة! فمِن بَعد «عَشاء أخير» كَلّفني أربعة وثلاثين قرشًا، عَجنت فيه الخبز، وعَصرت العنب المُكن بيدَيّ، امتنعوا عن مُصاحبتي. البهوات يَرفضون خوض رحلة الآلام مع المَصلوب مُقدمًا. ضحكوا عليّا لسَبب لا زلت أجهله، مَعلهش، كل مسيح جديد يجب أن يُعاني، ومِش كُل مِن رصّ الصَّواني؛ بقي حلواني! واكتملت المؤامرة الإفريقية، حين مرّ مَركبي أمامهم، التقطوا حِجارة، واستعدوا لرميها تِجاهي، فصَرَخت فِيهم بصَوت جَهوري، غير مُبالٍ: «يا أولاد الأفاعي، مَن كان منكم بلا خطيئة فليرمني بحَجَر»، فرموني بالأحجار جَميعًا، ياأخي يِغور اللبن من وش القِرد القطع.

وكَانت آخر الأحداث عِند ضِفاف النيام نيام، وبعد ابتعادي لِمسافة عن أولاد يَهوذا الإسخريوطي اللئام؛ تنفيذ النذر. أخرجت برطمان الجنين الأمهق أبو عين واحدة وسبع أذرع تخرج من الرأس، نَظَرت إلى المِسكين نظرة شفقة، ثم طَمأنته بكلمات خالية من الحَسرة: «في مَلكوتي السماوي، حرارة الشمس على أمثالك؛ ستصير بَردًا وسَلامًا، فقط، ارفع رأسك تحت أشعتها، وقل إنك من طرف سليمان،

ولن تؤذيك بإذن الرحمن، إلى اللقاء يا جبنة بيضا بالحبهان»، ولما أدرت غِطاء البرطمان لأُلقي بالأمهق كَما رأيت في المنام، لَمحت المسيخ الدجال بين الأشجار يُراقبني، سَاحر القبيلة الذي لم ينلِ النبوة، حَقًّا، كُلَّما سقطت الأسنان؛ ازدادت رغبتنا في عَض الرجالة قبل النسوان.

لما تملّكني الفزع من وَجهِه العَكِر، وقبل أن أطلب من السَّماء أن تحرِقه بصَاعِقة مُكن تفرقع دِماغه الأشعث، رَفع ابن الوسخة بُوصة طويلة إلى فمه، ونفخ فيها بعزم ما أُوتيت رئتاه، سَهم زُغيّر أصاب كتفي قبل أن أجفل، وفِي لَحظَة، دَارت الدُّنيا مِن حَولي وذَابت الأعصَاب، سَبع الغابة عِجز وسِقطِت الأنياب، وفلت برطمان الجنين من بين أصابعي ليسقط في النهر، قبل شَلال زُغير هَويت مَع مِياهه إلى قعر القعر، منتهى القَهر، واستيقظت بعد أيام لم أُحصِها، في ميناء بولاق، بين أيدي بحّارة عَثروا عَليّ في مَركب لفظني بأمر السَّماء عِند ضفاف المَحروسة، مِثل أخي يُونس صَاحب الحُوت رحمه الله. مُعجزة أخرى لمسيح لم يَطمح يَومًا سوى أن يكون فاديًا مُخلّصًا مُنقذًا مُحرّرًا للبشرية الخرقاء.

***

---

(35) جراثيم: يقصد هنا الحيوانات المنوية.

(36) بابيون عريض.

(37) السيكولوبيا: تشوّه خلقي نادر تندمج فيه عينا الجنين في عين واحدة بمنتصف الجبهة، وغالبًا ما ينتهي الأمر بالوفاة المبكرة.

(38) قلم البازابورتو: إدارة الجوازات.

(39) جمرك أسيوط كان نقطة التقاء القوافل القادمة من دارفور إلى مصر ومقر للحجر الصحي، وراحة إجبارية يستغلّها تجّار العبيد لترويج بضاعتهم من الفتيات.

(40) النُّشوق: تبغ مطحون ناعم، مضاف إليه قليلًا من النطرون، يُعبًّأ داخل علب أو أكياس، وربما تُضاف إليه نكهات مختلفة، ولتعاطيه؛ تُوضَع رشة من النُّشوق على طول خط اللثة، أو عن طريق شمه بواسطة الأنف.

(41) البقّارة والبجة: قبائل أفريقية اشتهرت بالبأس والإغارة على القبائل المجاورة.

(42) الزبير رحمة منصور: والمعروف بالباشا الأسود، تاجر رقيق في أواخر القرن التاسع عشر. أصبح فيما بعد باشا وحاكمًا سودانيًا، ولُقِّب بوالي بَحر الغزال.

(43) القناة السويسية المقصود بها قناة السويس.

(44) أهتم: مَن انكَسرت أسنانُ مُقدّم فمه من أُصُولها.

(45) علي كاكا: شخصية شعبية تمثل رجلًا يلبس في وسطه حزامًا تتدلى منه منحوتة خشبية على شكل العضو الذكري في أضخم أشكاله، وكان هذا المشهد استعراضًا شعبيًا يثير ضحك النساء والرجال، وكانوا يصنعون منه نماذج من الحلوى في الموالد: شكر مُجفف وعليه شربات.

(46) وكالة المحروقي: وكالة شهيرة لبيع العبيد في القاهرة خلال القرن

التاسع عشر.

(47) طواشي: وتعني مخصيًا، والمقصود استئصال وبَتر الخصيتين.

(48) القبابطة: جمع قبطي.

(49) يعني سليمان السيوفي بـ«ق س س» قبل سليمان السيوفي، بدلًا من «ق م» والتي تعني قبل الميلاد.

(50) مارستان قلاوون: مُستشفى أمراض عقلية، بُنيَ عام ١٢٨٤م بالقاهرة.

(51) البازلت: صخور نارية بركانية صلبة سوداء.

سِفر الآلام/ إصحاح نِمرة ٨٠ (52)

اللهم احمِني من الغد، أمّا اليوم... فاحمِني مِنه أيضًا.

في فجر يَوم مَشئوم، ليس له تقويم، ووَسط الضَّباب الهَائم فَوق نهر النيل المَصبوب مِن شفشق السماء المخروم على جبال الجَنوب، لَمَح صيَّاد بَريقًا بَين جُثث المَواشي النافقة جرَّاء الطاعون المنتشر، فَجدَّف واقترب، مَد يَده في المِياه حتى لمس جُثمان سيِّدة نِساء إفريقيا، كَانت تَرتدي غَلالة رقيقة شَفَّافة، يَحكُمها حَبل مِن الدوبار المجدول حَول الخَصر، النهر في مصر مَقبرة لجَالبات العَار إلى أهاليهم بمعاشرة الرجال، والمختالات بالخلاخيل الذهبية مِن النسوة أمام أعين اللصوص وقُطاع الطرق، لا شَيء يُوحي بالعَجَب سوى أن الرأس الذي طَالما نام على صَدر العبد لله مَخصوص؛ كَان مُغلقًا بالفِضة، قِناع مُصمَت يَخفي بِداخله عينين في زرقة البحر.

في مَشرحة قَصر العيني، وحين تمالكت أعصَابي بَعد تعرّفي على «زهرة» مِن أول لحظة؛ طلبت إخلاء القاعة مِن المَشؤم «كارليسمو» ورِجَاله من ذوي الخيبة. وافق الإيطالياني بكزّ الأسنان، وزَجَرتُ «شِكيب» بشلوت في إسْته خرج على إثره مِن سُكات. وبدأت أُعاني عذاب الزيت في القنديل، تحته ميَّة، وفوقه نار، لقد كَان عليَّ أن أشُق بيدَيّ جَسد الأبنوسية التي قال فيها الشاعر «أبو الفتوح ابن قلاقس» السكندري قولته الشهيرة: «مثل حب(53) العيون؛ تحسبه الناس سوادًا وإنما هو نور»، وكَان عليّ أن أقطع اللحم، وأنشر العِظام العاجية، يا إبراهيم، يا جد الأنبياء، ألهمني، كيف أتتك الجرأة أن

تشرع في ذبح ابنك بالسكين؟! أغلقت الشبابيك حتى لا يتسلل نور القمر فيُضاعف رَعشة يَدَيّ، ويُسيل الدَّمع في عينَيّ التي باتت من البكاء كما القربة المخرومة.

أخرجت الكاميرا، ومَددت يَدي في ركن خفي بصُندوقها الخَشبي حيث اعتدت إيداع سِنَّة أفيون تُعينني على مُواجهة نذالة الدَّهر المُزمنة، دَسَستَها تحت لِسَاني، لتخدير الحُزن وإصابة الأفكار السوداء بشلل رباعي، لَمَّعت العدسة بفوطة وكحول، وضعت لوحًا زُجاجيًا مَطليًا بالكولوديون الحسَّاس للضُوء وراء العدسة، ومسحت برابير الحزن والشجن قبل أن أندس تَحت القماشة السَّوداء، حِدادًا على حِداد، استعدادًا لالتقاطي أصعب صُورة في العُمر، لحبيبة عُمر أبت أن تبتسم، ثم رَصَدت بالعدسة غَابة الوُشوم التي دَكَّتها مِن بَعد رَحيلي عَلى جلدها دُون استئذان، أُسوة بحماتي الواطية، الست هَانم اللي كَانت زمان دايرة على حَل شَعرها في كَباريهات القبيلة، ليس ذَلك وَقت لوم وعِتاب وغيرة. اعتليت الطاولة المعدنية لأتحصَّل على صُور قريبة لرأسها المَصبوب كاملًا بالفضَّة، وحين انتهيت، وَضعت الكَاميرا جانبًا وأمسَكت بكفها، لثمت الأنامل الباردة وبكيت، قبل أن أتفحص الرُّسغ الأيمن، وكان الكَف فيه مَفقودًا، بتر حاسِم من عِند الزِّند، بَريئة أسمَاك النهر مِن تلك الفِعلة المشئومة. لقد تَم باستخدام سَاطور مَسنون لَم يُشرشر الجِلد أثناء الحز، ضَربة واحدة حَاسِمة، بَعد الموت بسَاعات، بتر لم يُسعفه الوقت أن ينزف أو يتقيح أو يَطمح في كَرم الالتئام.

اقتربت، هَمست لها كَما اعتدت في كُل صباح بالمحروسة:

«حَبيبتي، آنَ الأوان أن تستيقظي، لقد دمَّست من أجلك فول الإفطار وقطعت البَصل والخِيار، آنَ الأوان أن تحكي ما حَدَث، لماذا خرجت مِن أرضك يا آكِلة البشر؟ وكَيف تركتِ جَلال الدين وَحده وسط قطعان البقر؟ أشوقٌ أصابك؛ فأتيت إلى القاهرة سَابحة بكف واحدة؟ أم علِمتِ بمُعاناتي في حبس الديميرخانة فلم تتواني عن إنقاذي من الخطر؟»، لم تُجب، حَياء الأنثى لم يُغادرها يَومًا، أعفيتها مِن الحَرج، وأخرجْت عَدستي المُكبرة لأتمشى فوق المَسام فَحصًا، مُتناسيًا عن عَمد مَا كَان بيننا مِن ذكريات عِشق وهيام، لعل المفهومية والفطانة تُعاود ذهني وتقودني إلى إجابة شَافية تمنحني السلام.

الجَسد - عَدا الكف الناقصة - لم يَكُن مَطعونًا أو موخوزًا في أي مَوضع، ليس هُناك كَدمات أو سَحَجات أو ثقوب مريبة سوى ما يفعله النيل الأحمق عَادة بالجثث التي يلوكها، خُدوش نباتات، وعضَّات أسماك زُغيرة تستكشف طعامً مُحتملًا. لَم يَكُن هُناك كَذلك أي أثر لكُبب الطَاعون، أورام خبيثة، أو بثور جُدري كَريهة في الجِلد أُلقيت بسببها المِسكينة في النيل دَرْأً للمَرض المنتشر. أصابعها الأبنوسية التي طالما داعبت لِحيتي؛ كَانت مُرتخية، في وَضعية لا تُوحي بحُدوث تشنجات الأعصَاب التي تُصاحب سَكرات الغرق، فاستنشاق المياه ومن بَعد شهيقين فقط، يُولّد في صَدر الغريق سُعالًا يُضاعف مِن الابتلاع، وباختلاط الهواء بالماء مع مُخاط مَجرى النفس، يَبدأ القيء، ويتولد زَبَد رَغوي أبيض، وينتاب العقل سَكَرات الخُفوت، فيفزع مِن فكرة الغِياب قبل الموت، ويولِّد صَدمَات مُتعاقبة، زلازل فردية، مُحاولات يَائسة لطَرد المِياه، وحَثًّا للجَسدِ على الإفاقة،

بتشنجات؛ تُجبر أصَابع الغَريق أن تنقبض على طَمي القيعان أو النباتات لتتشبث به في خيبات متتالية، لعله يجد وَسِيلة للنجاة.

«حبيبتي، اطمئني، لم تموتي غرقًا فأنتِ سبَّاحة مَاهرة، كَما أن رقبتكِ المَخروطة سَليمة، ليس بها آثار خَنق أو اعتصار، والكسوة الفضِّية عَلى رأسك، تنفي وُجود نية للسَّرقة وَراء القتل: «رِفقًا؛ دَعيني أربط الرَّقبة بحَبل، لأمنع مَا في رئتيكِ أن يتسرَّب خَارجًا، ثُم أشُق حَنجرتكِ وأزيح أستار الأحبال الصَّوتية، لعلَّكِ تستنشقين بعض الهواء فتسعَلين وتنتعشين ويتسلك أنفكِ من اللحمية». تمشَّيت بالمشرط فوق نَحر طالما مَسحته تقبيلًا، وبالفَحص؛ لم أجد في الحنجرة النزيف المعتاد الذي ينتج جرَّاء التشنج المُستميت لغَلق القصبة الهوائية في وَجه المِياه. ثم فَحَصت العَظم اللامي الواقع عِند قاعِدة اللِّسان، ولم يَكُن مَكسورًا، تِلك علامة تنفي حُدوث الخَنق اليَدوي مِن يدَيْ مُعتدٍ.

ثم نَزلت بالمشرط إلى أسفل، فشخت ضلوعًا، نثرت دماءً وبُنًّا وكاكاوًا، قلبت المعدة كجَورب مُستعمل، وخَاوية كانت، الحَبيبة لأيام صَامت، طلبًا للثواب، قبل أن أنتزع بيدي الآثمة قلبًا لم أتخيل يَومًا أني قد أراه رؤي العين، شَققته بالمشرط، ولم أجد أثرًا لكراهية العَبد لله، أو حِقد أهل الزِّنج(54) على بِيض البشرة، ولم أجد كذلك أثرًا للانقباض البُطيني(55) الذي يُؤكد حدوث الفَزع أثناء الخنق، وامتلاء الشق الأيمن مِن القلب بالدم نتيجة نقص الأكسجين، فتِلك الأعراض كلها... كانت غائبة بشكل مُريب.

أودَعت القلب في بَرطمان، لأحفظه مِن الوقوع في عِشق غيري،

ثم شَققت الرِّئة، وكَان فِيها بقايا هَواء، ذَلك مَا سَاعد الجَسد على الطفو كبالون مُمتلئ، إضافة إلى دُهون أجساد النساء التي سَاعدت في رفع كتلة الفضة الكاسية للرأس. دُهون نفتقدها نحن الذكور، فتمسح جُثثنا الغارقة قيعان الأنهار. المهبل الحَبيب آكل الزبيب، لم يتعرض لتهتكات أو يَحمل آثار غزو أو اقتحام، بَل كَان لِغيابي عَنه أثر، وفي شَفرتيه عِتاب حزين وحِرمان مُعتبر. أمَّا الرَّحم؛ فكَان غَائبًا، لَم يُنتزع أو يُقتلع يَومًا مِن عَرينه، فقط لم يكن في مَكانه، لم يُخلق بقعرها مُنذ وُلدت، ومَا الحاجة إلى رَحِمٍ وأميرةُ الليل الحَزين من الفم تتقيأ سُلالات البشر!

حتى يتكوَّن الجَنين دون رَحم، عليه أن يلتصق بجِدار المَعدة دُون دستور أو إحم، أمر وارد، وإن كَان نادرًا، أما استمرار الحبَل أربعة عشر شهرًا، دُون سبب، فذلك أمر شديد العجب، ولكن؛ أن تلد «زهرة» من بين فكَّيها، فتِلك آية خَارقة للعالمين، لا تليق إلا بزوجة نبي كريم... حَبيبتي لم تُخنق بيد الغَدر، ولم تَمُت غرقًا، أظافر كفّها الباقية لم تتكسر في مُقاومة أو تحمل أثرًا لخربشة الجاني أثناء التصدي. رئتاها، لم تقاوم شرًّا، والقلب، توقف بإرادته، أمَّا الأمعاء، فكانت خالية من أثر الطعام الفاسد أو السُّم الزعاف الذي يُصيب الأطراف بالشلل. لم يَعد هُناك غير الرأس الفضِّية، ففيها تكمُن الأسرار الكلية، وحتى أتمكن مِن صَهر المَعدن اللامع حَول الرأس، كَان عَليَّ أن أقطعه بالفأس، والموت على الصليب كَان على المَسيح أهون وأخف بأسًا.

أخرَجتُ الفأس، لامستُ نَصله الجائع فانجرحت إصبعي، ثم

تذكرت مُعجزتي المُرجئة مُنذ البشارة الإفريقية، دُرة الأعاجيب التي تأخَّر صَرفها مِن حزمة الخَوارق النَّبوية، لحِكمة أجهَلها ولا اعتراض، والشكوى لغير الله مذلّة ولو صِرت تحت الأنقاض ضحية. ناديت في ظلمات المَشرحة، بيأس ورجاء: «هَلُمّ يا زهرة... هَلُمّ يا قِشطة الغُمر العطرة... قُومي من ثباتك وانزعي عنكِ قناعكِ الفضي، انسلخي، كما تَسلُخ الحية جِلدًا ضَاق عليها، لتسري الحياة فيكِ بخفة مُرور الماء في المواسير الأفرنكية، وأعدكِ؛ أن أهبكِ كَفًّا مِن ذَهب بسبع أصابع، بدل الذي فُقِدت»، فإذا بنور السِراج يَرتعش، وإذا بالجَسد يَنتفض، والصدر بالنفَس ينتفخ، ثم جلسَت الأبنوسية بهدوء، لَحظات طَالت، طقطقت فقرات رقبتها، قبل أن تمُد يَدها الباقية إلى رأسها، وترفع بسلاسة القناع المحيط بها. طوّحت بالضفيرة، كُرباج من الأنوثة، ثم قامت. اقتربت، تخللت شَعري المنكوش دائمًا بأصابعها فسرحته، ثُم لامَسَت وَجهي، فضربه التنميل، قالت: «دَلْق القهوة خِير يا شُولوم»، فأجهشت بالبكاء، وأخذتني النهنهة كَطِفل عَثر على أمه بعد تيه سنة، ثم أفلتت مِني ضحكة مُرغمة، فابتسمت المتفحمة، وقبّلتني قُبلة مُلهمة، أغمضت فيها عَينَيّ وشَعَرت بأطرافي تَرتَخي، انسال مُخي مِن أنفي، شُوربة سَاخنة، ثم التقطت أذناي أصدَاء تصفيق، عَلا وتسارع، ميّزت فيه صُوت المدعوق «شِكيب عبد الصّمد»، هَادم اللذات والمُتع، يُنادي اسمي من مسافة فدان، واشتممت رائحة تعفن لا تنتج إلا عَن جُثّة مَضى عليها سَبعة أيام، ففتحت عينَيّ، لأتفاجأ بالبعيد على بعد سنطي متر، بضبّ فيه الأسنان متخاصمة، ورائحة فم، تُرى بالعين المُجرّدة، البغل كَان يَصفَع وَجهي بكف كخُف الجَمل، بعد سَماعه وقع ارتطامي على بلاط المشرحة. أجلسني، وصَبّ في

حلقي كُوب مَاء، تأملت دِماء أميرة الليل تَحت أظافري، فاستفقت، وأدركت أني غِبت عن الوعي جراء صَرَع وارد في مثل حَالتي، فجَسدي جرَّب مُعجزة إحياء الموتى لأول مرة، مُحاولة بائسة لإشعال جمرة، مَا لبثت أن انطفأت أمام الرياح العاتية، لكن الشَّرارة حَدثت، وعَجلة المُعجزات دَارت، كَما دَارت يومًا في مَعمل دوقتور «فرنكنشطاين» في رواية «ماري شيلي»(56) ولله المَجد في المَلكوت.

وقف «كارليسمو» يتأمل الدِّمَاء التي تناثرت، الضلوع التي تكسَّرت، القلب الذي غادر صَدرًا ليسكُن برطمانًا، ورأسًا غاليًا قطعته بالفأس مُنذ قليل، ولففته في قماش التيل، ملعونة يَداي إلى يَوم الصَّلب المرتقَب. سألني الخسيس عما استنتجت، فأخبرته كاتمًا الغَضب: «إن الموت ليس نِتاج خَنق مُتعمَّد أو غَرق»، وكَذا وكذا وكِيت... فيما ذَكرتُ منذ قليل، كي لا أستهلك المزيد من الورق، وأنه يجب صَهر الفضَّة حَول الرأس تَحت دَرجة حَرارة ٩٢٣ سلزيوس لأحصل على إجابة وافية، وقبل أن أرحل سألته وأنا أتفحص وَجهه الكالح بشك وكراهية: «كيف عَلمت أن جثة النهر هي «زهرة» زوجتي؟»، فأشار الإيطالياني إلى ختم العبودية الموشوم في فَخذها اليُسرى وَسط الوشوم، مُزيلًا باسم «وِكالة المَحروقي» وأسفل منه نمرة «٧٣٤» وعقَّب قائلًا: «لقد استعلمت عَن النِّمرة مِن الوكالة، وعرِفت أنَّك كُنت المُشتري مُنذ سنين يا سُوليمان، أنا لَم أتولَّ مَنصِب ريِّس البوليس مِن فراغ يا مكلوم».

في إحدَى ورشات «خان الخليلي» بدأ الصائغ في صَهر القناع

الفِضِّي حَول رأس حَبيبتي. أوصيته الاحتفاظ بحالة الدِّماغ سَليمة قدر الإمكان، ومَا وجدته كَان العَجَب في شهر رجب، فِضة القناع لم تُصب فوق الرأس سَائلة كَما كنت أظن، بل ولَم تحرق حتى أرق طبقات الجِلد الأسود الأجلاسيه، بل الرأس سَليم كَأن لم يُمس، عَدا رَضَّة في جَانب الفك، أظنها مِن أثر ولادة جلال، وأُذن يُمنى مَفقودة، بُترت بنصل مسنون وبعِناية مِن بَعد المَوت، لا أثر لكَدمات أو عِظام تكسَّرت، حتى الشَّعر كَان مُضفَّرًا في روقان. «زهرة» تُوفيت فجأة، وبلا سَبب ظاهر، ثم قَرر أحدَهُم وَضع قناع فِضي ضيِّق ومُحكم حَول الرأس، دُون صَهر أو تشويه للمَسام، واحتفظ بالأذن والكَف اليُمنى تذكارًا. ويَبقى السؤال: كَيف أحاط القناع بالرأس دُون لِحامات أو أقفال، وكَانت إجابة الصائغ بعد الفحص تحت العدسة المُكبرة: «ذَلك مُستحيل في ورش الصَّاغة؛ فاللحام مَهما تخفَّت آثاره بحرفة، فستبقى ظاهرة مِن الداخل، ناحية الرأس، ذلك الكَمال لا يتحقق إلا بالطلاء الكهربي، تقنية حديثة وسرية غير متوفرة سوى في مسبك وَحيد بلوندرة»(57).

حين انتهيت من فحص الرأس، قبّلت شَفتَي حَبيبتي، ثُم طلبت من «كارليسمو» النجس الإذن بالاحتفاظ بها في برطمان، لعلِّي أجد وسيلة لإحيائها يومًا، أو زرعها في أرض خِصبة لتخرج في هيئة شَجرة بُن وارفة، أطحن حُبوبها وأشربها سادة محوِّجة، فرفض رَفض كُل كَافر بالأنبياء، بل واضطرني في النهاية غَصبًا أن أدفنها مع الجَسَد أمام ناظريه، وبعد استخراج إذن من دوقتور الصحة كمان، قمة الجنان، فأصررت أن يكون الدفن في حُوش «السيوفي»

بمَقابر «الإمام»، لا في مقابر الصَّدقة. طُوبى للذين يُدفنون في قَبري، مَشفوع لهم، ويَوم القيامة يَدخلون الجنَّة بغير حِساب، وزهرة من بعد المَجد الإفريقي الذي عاشته؛ لم تكن لترضى كده كده بالعيش وإن أحييتها؛ برأس مُلخلخة تتراقص فوق كتفها أثناء المشي.

قبل أن أخيط الجثمان، حشوت قفصها الصدري بأوراق القرنفل واللبلاب الطاهر، رَششته بالمِسك، ومَسَحتُه بالعنبر، ثم كفَّنتها بجُوخ مُستورد منقوع في ماء الورد، وتركت في قبرها صُورة تجمعنا عِند كوبري السباع(58)، وريشة «جِبريل» المُقدَّسة التي وهبني إياها في زيارته المباركة بالباخرة وقت مرَضي بالحمَّى، زُجاجة ياسمين فوَّاحة، عِطرها المفضَّل، وبَعض الأوراق مِن أسفاري المقدسة، لتتسلى بقراءتها في وقت الفراغ، حتى نلتقي يَومًا في المَلكوت الأعلى، وعلى رُخامة قبرها نَقشت آيتي المُفضَّلة: «إذا سِرتُ في وادي ظِل الموتِ فلا أخاف شرًّا؛ لأنَّكِ أنتِ مَعي».

هَكَذا، قضيت ليلتي الأولى خارج سِجن الديميرخانة، وحيدًا، ساجدًا باكيًا بجانب قبر الحُب الأسود الطاهر، قرأت مِن القُرآن جُزء «عمّ»، وفي العهد القديم، ختمت سِفر «التكوين»، قبل أن أتجه من النجمة إلى شِياخة درب الجَماميز المتفرعة من الخَليج المصري بحي السيدة زينب، ناحية بيت الحُرمة المَخبولة «عَزيزة راتب الشُّبكشي» زوجة السيد «أنور جودة أبو شمعة» اللي «بُكرة هتجيني ملط وأقول بطَّلت!»، وبَدلًا من لُوكاندة «شبرد» الجديدة التي طلبت السّكنة فيها تعويضًا عن الضَّرر الذي لَحِق بِي في سجن الديميرخانة، تنازلت، وقبلت مؤقتًا أن أسكُن أودة دُور أرضي حَقيرة بوكَالة «السَّعيدية»،

قريبة مِن عفشة المية العُمومية، وأهي في النهاية أرحم من الشَّكنة في «تِكيّة طولون» للعَجزة وطَاعني السِّن، استأجرتها بالجُنيهات القليلة التي صَرفها الخسيس «كارليسمو» مِن ثروتي المنهوبة على يَده ويد «ريِّس قواصة ثُمن السيدة زينب» إلهي يِكسر وِسطه.

في الرُّكن الخالي بالأودة، وَضَعت عَفشي، كاميرتي الخشبية، شِكيب عبد الصَّمد، حَقيبة أدوات التشريح، وبرطمانًا يَحوي قلب حبيبة تركتني في صحراء الأحزان...



---

(52) بدّل «سليمان أفندي السيوفي» مُصطلح «يومية» إلى «سفر وإصحاح» بداية من تلك الورقة في مذكراته.

(53) حب العيون: المقصود به بؤبؤ الأعين.

(54) الزنج: قبائل تتميز ببشرة شديدة السواد، والشعر الجعد، والشفة الغليظة، والأنف الأفطس.

(55) انقباض بطيني: نبضات قلب زائدة تبدأ في واحدة من حجرتَي الضخ السفليتين للقلب.

(56) كاتبة إنجليزية وصاحبة شَخصية فرانكنشتاين التي أبدعَتها عام ١٨١٨م في روايتها الشهيرة.

(57) لوندرة: النطق الفرنسي لكلمة «لندن».

(58) المقصود كوبري قصر النيل، والسباع هي تماثيل الأسود الأربعة الشهيرة.

سِفر القيامة/ إصحاح نِمرة ٨١

تَموت الأُسد في الغابات جُوعًا

ولحم الضَأن تأكُله الكِلاب

وعبدٌ قد ينام على حريرٍ

وذو نسبٍ مفارشهُ التراب

عزيزٌ، يَمشي بقلب كسيرٍ

مَسيحٌ يضطهده الذُّباب

«الإمام الشافعي»

(عَدا البيتين الأخيرين، من صَنعة العبد لله)

أما بعد،

من بَعد اندلاق قهوتي الإفريقية، وفي الأودة المتواضعة التي سَكنتها بدرب الجماميز، قَضيت الأيام مَسيحًا كَسيحًا يُصلي التراويح بفؤاد يحترق، لا أَمَسُّ طَعامًا إن وُجد، ولا أتنفس حتى تضطرني رِئتاي وتحلف عليَّ يمين طلاق، تتصارع الظنون في رأسي، حَرب ضَروس بفئوس غليظة وسيوف، تشق وتطعن، وتُلقي بفتافيت العقل مِن فتحات أذنَيَّ إلى الأرض، هَواجس مُهلكة هدَّامة، امتطت أكتافي، لجَّمتني بحِزام مِن النَّار، لسعت إسْتي بالسياط، وساقتني إلى صَحراء التيه، في كُل دقيقة تتسع هوة الحيرة بين اختيارين، انتحار يَجمع شَملي بأميرة الليل الحزين في جنة الخُلد، ناكل سَمك

وحلويات يوماتي، ونشرب مِن أنهار العسل واللبن عَبّ عَبّ، وترُص لنا أحجار النارجيلة زُبعومية واحد وعشرين حُرمة مِن مدامات الحُور العَين، يرقصن بالدفوف والصاجات إلى الأبد، والعب بقى يا جُمعة. أو، البحث بجِد وهمَّة عن مُجرم سفَّاح، أحاط بالفضَّة رأس الحُب الخالد ليَحرق قلبي، فآتي به ولو في آخر الأرضِ، آخذ بثأري، وأسترد كرامتي، وأشفي غليلي بتثبيته على الصَّليب بمسمار سبعة سنطي يَخترق خِصيتيه، على مرأى ومسمع من الحَواريين الجُدد الذين سيتبعون رسالتي، ويقبلون شراكة الآلام مع المَصلوب، ولا عزاء للخونة الذين خسروا شفاعتي يوم القيامة، ولتهنأ «زهرة» في قبرها ويبشبش الله الطوبة اللي تَحت رأسها(59) .

وكَان الرأي السَّديد، والقرار الحكيم من بعد تدبير وتفكير، هُو الانتحار الهادئ المريح الجميل، فالمسيح الحَق، تتوقف عِند أصابع قدميه دِماء الانتقام السَّادية، وتنتهي على يَديه مَلاحم الثأر الأزلية، ولو اجتمَع عليه جُملة أهالي السيدة زِينب والحِلمية. توكَّلت على الله، وانتويت الرحيل فِرارًا من بالوعة الدنيا بمَجاريها إلى مَلكوت الرَّب الواسع، واخترت إلقاء نفسي في مِياه الخليج المِصري، أسفل قنطرة السِّباع المُواجهة لمَسجِد السَّيدة زينب، غريق الوله والهيام، شَهيد الفقر، العاجِز عَن شِراء أخشاب الصُّنبور لينحت بها صَليب مُكن مُعتبر، يَليق بمسيح غلبته الأحزان. سلَّمت شِكيب حقيبة الأدوات: الكاميرا بمشتملاتها، السَّاعة النوردمان فريرس، والبومباغ الأسود الساتان، ثم رَسَمت الصَّليب على رأسه العريان، ورقيتُه بالرقية الشرعية سَبع مرات، ووضعت في فمه بعض اللبان، دَرْأً للرائحة

المريعة، وأوصيته بالتكريز من أجل رسالتي ليل نهار في أطراف المَعمورة، مِن الصين إلى الأمريكا، رايح جاي، ولو كلَّفه الأمر إخصَاء نَفسه بنفسه أو قطع الرأس بسيف، فِداء وتضحية، لنشر إنجيلي - الذي تركت أوراقه بين يديه - في جُموع البشر الضالة الطاغية، ولتكُن أجرته في ذِمَّتي؛ قِطعة أرض مِلك، بجَنة الخُلد، مِساحتها سنطي متر مربع، زائد مَصاريفه مِن إيجار حمير النقل، ونِصف ثمن كُل وَجبة يأكلها، على أن يأتي بفاتورة، ويكون أجل السداد؛ في حدود ثلاثين يومًا من بعد القِيامة.

في السَّاعة المُرتقبة، وحين غَاب القمر الجبان وَرَاء السُّحُب، مَخافة لقاء سليمان، ثبَّت إكليل الشوك بمشبك على رأسي، شددت البرطمان الذي يحوي قلب أميرتي بحبل إلى بطني، ثم جُلت بأيري، زلوم فيل ينتقي من الأرض أحجارًا ليُثقل بها وزني، قبل أن أجلس في رُكن يَكشف القنطرة وما حَولها، لأترقَّب قَافلة حُرَّاس الليل، حتى إذا مَرُّوا عليَّ؛ ألقيت بنفسي إلى المِياه دُون مُنقذ يُعكر صَفو الرّحِيل الأخير. ولكن، طَال الوقت، وتأخرت القافلة، فدَاهمتني غَفلة، وأتتني أميرة الليل في منام انتظرته مُنذ غادرت دُنيتي على غفلة، اقتربت الفاتنة مِنّي، ليل حالك في ثوب مرصّع بالنجوم، نَظَرَت في عَينَيَّ بحُب، لحظات طالت، ثم سفختني قلم مُكن على خدِّي الأيسر فسَقط إكليل الشوك عن رأسي وتكسَّر، وقبل أن أدير لها خدي الأيمن كَما اعتدت أن أفعل، صَرَخت بكل غِل: «أديدو باهيمي نيمي أبوكو ري لاتو كاك كاك سَيبا لومبي»، وكانت تَعني بلُغتها: «يا بهيم يا مناخوليا يا ابن الهبلة اتلم، هتجرّسنا، وإياك تصيبك الكُبَّة الطاعونية وتموت

لنا فيها»، ولم تُمهلني الرد، اختفت الجميلة، ليلة ذابت في حُضن الليل، فانتفضتُ مُستيقظًا، مُوقنًا أن الرّب للتوّ أبدل مَصيري في منام مقصود، وطَالبني بالمُضيّ قدُمًا في تتبع قَاطِع شَجرة البُن، وأن تكون قيامتي مِن رَقدة اليأس هِي ثاني مُعجزاتي، من بَعد إحياء المَوتى، أنا، المَسيح المِصري، مُفني الأمم ومُحيي الرِّمم ومُبيد النِّقم وراعي الغنم وكاشف الغم والحَزَن.

أول مَا فَعلت، كَان العَمل بنصيحة «زهرة» وتحذيرها للعبد لله في المنام، بالتحصُّن والاعتصام مِن رِيح الطاعون المتفشية في الأجواء، والتي تتسرب مِن المَجاري والمَصارف العفنة، لتجوب الشوارع والبيوت، فتصيب الناس بالكُبة القاتلة، باستخدام تحاضير طبية مُكن، مِن خلاصة خِبرة العبد لله بالكِيمياء والسيمياء، وبَركة السَّيدة الشَّيماء، ورثتها من عمِّي «نُوح» عَليه السَّلام، والذي عاش بفضلها تُسعمائة وخمسين عَامًا، وهَا أنا أدونها في تلك الصَّفحة لمنفعة عامة، والثواب عند الله، وقوام سِر التوليفة هو: «فَحل بَصل، فص ليمون أضاليا، عِين الكتكوت، خواصي نِسر، لِسان هُدهُد، قَلب بَرغوث كَفيف، سَقمونيا، زَنجبيل، لبان دَكر، عِرق السوس، مُح بيضة، وقَّة بابونج، عين النمس، رِجل العفريت، وبعض الحلتيت»؛ وذلك للوقاية والسَّتر، وللرد الوافي السَّهل، على خُزعبلات دُوقتور الصِّحَّة الفاكهاني، والذي أقر بجَهل ليس له نظير في الأمم المتحضرة؛ أن الطَّاعون بلاء ينتقل عبر القُبلات، ويقفز مثل البرغوث بين ملابس ضحاياه، ومن ثَمَّ، يَجِب حظر القُبل بين النساء والرجال، والكف عن لَثم يد الكبار من قِبل العيال الزغيرين، لأ وإيه كمان؛ منع البصق في

الطرقات، والنف على النواصي، وكذلك حَرق كُل أغراض المَطعُون بَعد وفاته الغابرة، بل وبلغ الصلف والتبجح بالدوقتور، أن حرَّم على الخلق السَّير في الشوارع مِن بَعد صَلاة العِشاء، وغرَّم مَن يَأوي مَطعونًا دُون إبلاغ القوَّاصة بالسّجن المُشدَّد والجَلد في سَاحة، ووَضَع على أبواب المرضى حُرَّاسًا، يَمنعون خُروج المَساكين إلا إلى القرافات، كُورنتينة(60) إجباري، حتى بَاتت الناس ترمي بجثث موتاهم سِرًّا في النيل، خِشية تشميع أبواب البيوت، ونفي مَن فيها إلى الصحراء.

وكَان على المَسيح أن يقول كلمة خالدة، تُكتب بالإبر عَلى آماق البَصر، لتكُون عِبرة لِمَن يعتبر: «الطاعون بَلاء مُهين لا يتنقل بين ألبسة الصالحين». ونِكَاية في الدُوقتور قَليل الحيا والدين، اشتريت مِن دُكَّان «نَعيم الخردواتي» قَميصًا، استعمال رَجُل مَطعون، قَضى نَحبه منذ أيام، استلمته في جُوال مُغلق بالدوبار، وأهديته إلى شِكِيب عَبد الصَّمد ذات نهار، ففرِح ابن الأصول وطاطا عَلى يَدي الكريمة فباسها، وها أنا أُسجل في أوراقي المقدسة، ودُون دخول مَدرسة: «إن طَال عُمر الحَواري الوحيد الذي آمنَ بي واتَّبعني دُون تربسة «شِكيب عبد الصَّمد» فهي المُعجزة الثانية في وجه أهل البِدع والنقصانية والضّلال. وإن طالته الكُبَّة بالوبال، فذلك مِن الرَّب اختبار، وسأبرئه بمُعجزة تُنير إنجيلي باقتدار، ليتحَاكى بها البشر أجمعين، من الصين إلى زنجبار، ويشدو بها عازفو الربابة في كل عَصر بَعد صلاة العصر بسبع ساعات، وسأذكر اسم «شِكيب» في أسفاري التالية، وسأبني له قَصرًا مَنيفًا في فرن أبو سِعدة، شُكرانية

وتكرمة وعِرفانًا، لما بذل من جهد جَهيد في خِدمة الخليقة رجالًا ونسوانًا، ولعدم تخاذله في مُعاونة مَسيح جديد وحيد، فاقدًا للحَواريين، يخطو أولى خطواته في كَار النبوة دون تأمين.

ثاني مَا فَعلت كَان فَتح أبواب الرزق على مِصْراعيها، بل خلع الأبواب، كَي لا أضطر إلى بيع شعر العانة من أجل الإعانة، فجَمع الأموال سيُعين العَبد لله في العَودة على ظهر باخرة إلى أراضي النيام نيام، لأواجه ذكر الغوريلا الذي صَبّ الفِضّة في فِنجان قَهوتي فعكّر أوقاتي ودمّر صِحّتي، وأدحر الساحر الفاسق الأهتم الذي تَوالَس معه، وليجمَعني الشّمل بوليد الفم ووريث مَملكتي السّماوية «جَلال الدين سليمان السيوفي» الشّهير باسم «مِيخائيل حِسين بُطرس حنًّا أبو نرجس القمّاح».

وعَنها، رَفَعت لافتة عِند ناصية الحارة كَتَبت فِيها: «حَضَر من «باريز» وبعد غياب؛ المُصوّراتي الشهير المِسيو «سُليمان أفندي السُّيُوفي» بمَحلّه الكائن في وكَالة «السّعيدية» شِياخة دَرب الجَماميز، المتفرِّع مِن الخليج المصري، بآلات الفوتوغراف الشمسية الفرنساوية الوِصاية، الشغالة بأسلوب الكولوديون العصري. مَن يُريد أن يتخذ لنفسه أو لمَرحوم عزيز عليه؛ رَسمًا ينطبق على صُورته ومثاله، أن يعول في ذلك على «سليمان» المتفنن في ضُروب التصوير، والبالغ حَد الكمال في البراعة والإتقان، وكذلك، جَعلنا للحُرَم اللواتي يُردن أن يتخذن صُورهن دُون حِجاب، زيارة خُصُوصي، يَحضر فيها المسيو بنفسه إلى منازلهن، بعد إذن الأسياد، إن كانوا على قيد الحياة». وزيلت اللافتة بإعلان عَن توفر «توليفة

معجون سُليمان... سَاحر البلابل ومهيِّج المدامات» لِعلاج عُنَّة الرِّجال في سبعة أيام فقط، وأَبيتُ أن أذكُر في اللافتة قُدراتي الفائقة على إحيَاء المَوتى، واستطاعتي إبراء المكسَّحين والصُّم والعِميان والبرصاء، رَغم أن ذلك سيُدر على العبد لله القناطير المُقنطرة مِن الذَّهب والفِضَّة والألماز، فهدايا الرب لا تُباع، ولا بالمَال تُشتَرى.

وانتظرت، انتظار الكتكوت للدودة، حتَّى جَادت الأيام بالزبائن، ودراهم مَعدودة، وَفَّرت طَعَامي وطَعام شِكيب الذي راقبت صِحته عن كثب، يَومًا بعد يوم، وكَان كالخنزير يظرط ويبرطع ويلهط كُل مَا تقع عليه عيناه من طَعام، حتى ولو كَان حَامضًا، عائشًا ومُستكينًا في قميص المَطعون الرخيص، حَامدًا شاكرًا، أبيًا أن يَخلعه مُنذ ارتداه، وببركة المَسيح الفصيح، لم تظهر أعراض المرض على البدن البدين، بل ولم تبهت حتى حُروف رِسَالتي المَوشومة على جِلد ظَهره السمين. هَا هو الجَهل يَنهزم، ودَقاتير الصحَّة بِبِدَعهم وضَلالاتهم الباطلة تندحِر وتستسلم أمام طوفان المعرفة السليمانية: «الطَّاعُون لا يَنتقل عَبر الألبسة يا أولاد الأبالسة»، لقد انتهى زمن قهر الأدمغة، واكتشف العَبد لله المؤامرة الكُبرى التي ستهُز أرجاء المَحروسة، والتي يُديرها دُوقتور الصِّحَّة، بصَّاص قصور الأستانة، كلب السلطان عبد العزيز الأول، وبمشاركة العتّين الإيطالياني «كارليسمو»، للتجسس على بيوت الناس الغلابة، وتَسجيل بيانات سَاكنيها ومقاسات السجادة، تحت اسم قال إيه: «هيئة مُراقبة وحَصر انتشار الكُبَّة الطَّاعونية في الديار المصرية» عَلى مِين؟ عَلى مَسيح أرمَل بَهدلته الأيام؟! لا يا بتوع المقرونة الإزباجت واللبان، ده

شغل بليباه(61) ما يخِيلْش على الرَّاعي الصَالِح، وخِراف المَحروسة مسئولية في رَقبتي إلى يوم القِيامة، سَأُراقب الشُفهاء مِنكم عَن كثب، ولن أتراجع عَن فَضحكم في الوَقت المُناسب، العين بالعين والأير بالأير والمقرونة بالمقرونة.

وحتى يُتم اللهُ نُورَه ولو كره الكافرون، سألتزم بالكِتمان والمكون، فالبُق المقفول، مَا يدخلوش دِبان، وسأتفرَّغ للكشف الطبي الذي سيهز كُل بنيان في المحروسة، باستخلاص عِلاج ناجع مِن الطاعون الذي عَجز عَن هَزيمة جَسد شِكيب عبد الصَّمد، وحل المُعضِلة التي تتمثل في القُدرة على ترويض ذلك العِلاج النجس المنفّر، وتقنين سبيل الاستشفاء منه، فمِن سُخرية القدَر، وغضب السَّماء على البشر، أن جُعِل سِر العلاج المُعتبر مِن كُبَّة الطاعون؛ في نِكاح المَوتى المَضمون، مِزاج شِكيب الفاسد الذي اعتاد في المَشارح مُنذ عكشتُه يَومًا وهُو ينكِح جُثَّة الحُرمة العجوز «أنهار» زَوجة «مَدبولي عوض العطَّار»، اللي دُكَّانه على ناصية سُوق الخضار، ذَلك لا ينتقص مِن بَركة وُجود المَسيح روحًا وجسدًا قُرب «شِكيب»، ورضائي عنه أكيد، كَونه الحَواري الوحيد المطيع الفريد الذي آمنَ بي، مِما صَان بَدنه وعافاه مِن كُبب الطَّاعون حتى الآن. حقًّا، الحقيقة هي أجمل شيء لا نعرفه.

مُرور الأيام، لم يَعفِ البال مِن التفكير في المَوت الزُّؤام لخيرة بنات النيام نيام «زهرة»، أقضي الساعات الطوال في تَصوير الأحياء من الزبائن أو الأموات، أشرب خلالها ستة عشر فنجان قهوة، وفدَّائَي ثُنباك، أعض على أظافري مِن القهر، وأشدّ شعر الحَواجب

حتى ينتصف الليل، ثم أجرجر ظِلّي عديم الشخصية وَرائي على الأرض، حتى شارع «الدُّحديرة»، لأرقُد في رُكن ببوظة(62) «كَنّي» لصَاحبتها الحُرمة «جليلة» الأصيلة، والتي تُطفئ القناديل وتُغلق أبواب بوظتها على الزبائن في شَكَاسَة وعِناد، تَمرُّدًا عَلى السلطة الغاشمة التي تقطع لُقمة العَيش على الخلق كُل يوم مِن بَعد صلاة العشاء، بشجاعة، تُغالِب الحَظر الذي أفسَد أمزِجة الناس، من سَاعة ما أصدرت الحكومة فرمانًا يُمنع فيه دُخَّان الحَشيش، بَيعًا وشراءً، في أحلكِ ظروفٍ تمُر بِها البِلاد، مع التصريح ببيع دُخان السَجَائر الألافرانكا النِّسواني المَايعة دون غيرها، قال إيه؟ التفافة في ورق البفرة تنقل رِيح الطاعون؛ قال لك...

في الظلام التام، ووَسط وهج الفحم وسُحب المعسِّل والتنباك، اعتدت أن أُرخي جَسدي الكَحيَان، أدفن تحت لساني سِتّة الأفيون المُكن، أمارس رياضة الوَخم، ثم أشرب الكُحول وأعب، وأحلى مَا في الكُونياك إن مافِهش بِذر، أجتر مَا مَضى وانقضى، على نغمات ربابة حَزينة، وغِناء الريس «سعفان أبو أليطة» لموّال الواد المُكن الفينو «عَبده الحَامولي»(63) الذي يستهل الدندنة بذِكر الصُّحبة الكَريمة: «حِلوة صَلاة النبي، مُحمد نبينا، وأيوب وعِيسى»، فأكتفي تواضعًا برَفع يَدي في الظّلام الدَّامِس تحية للجالسين، ثم أندَمِج، فأقوم لأدور وأرقص، أذوب كَما الدَّرَاويش وأمتزج، حتى أتسلطن، وأنصهر في بوتقة العِشق الإلهي، وأنتحب في كل ليلة مع مَقطع: «دَانا لو شَكِيت رُبع ما بي للحديد لَيدوب... الأوّلة صحبتي، والتانية المَحبوب»، فتنهمر دُموعي على زهرة، وأدهس أقدام الجَالسين

فيتأوهون ويدفعوني ويَسبُّوني، حتى تُرقدني الفَرهَدة، مَكلوم عَرقان دُنيتي ملخبطة، ثُم أغرق في الفِكر لَعلّي أبلغ الأسباب، فبَعد التخمُّر والتبصُّر والاستجداء، يستقر تِفل الحُزن في قَعر القلب من تحت، وفتافيت الخُبز في قَرعة البُوظة(64) تصير أشهى وأطعم من بعد بِيات، سَاعتها، توصَّلت إلى بَيان، أُدوِّنه هَا هُنا للزَّمان، بقلب مُنفطر حزنان ورُوح أصَابتها الغَرغرينا المفرطة، ومَفاد الفكر المستكوفي الذي ارتأيت؛ أن سَبب وَفاة أميرة العتمة في الأغلب؛ سُمّ إفريقي زُعاف، لَم يُصادِفه العبد لله من قبل، ذَاب في الدَّم ولم يَترك في البدن أو المعدة أثرًا، تبخَّر، مِثل حَشوة البُوص التي استقبلني بها ابن العم في الغابة.

هُناك طريقان لا ثالث لهما: إما أن ابن العم المنكوح هو مَن سَكَب قهوتي حِقدًا وغِيلة، بَعدما راودها عَن نفسها فأبت وتمنّعت، فباعها لجلَّابة العَبيد من رِجال النخَّاس «الزُّبير رَحمة»، غَصبًا واقتدارًا، نجحوا في أسرها بعدما استعصت وقاومت، قبل أن تخطف عين أحدهم بأظافرها في فورة غضب، ألقوها في قَعر مَركب، فريسة للجوع، لعلها تخمد، لكن الجسد لم يتحمل، مَاتت «زهرة» في صمت، فمثّلوا بجسدها: أُذن يُمنى، وكَف متهمة بقلع عين المجرم، ثم ألقوها في النهر... أو، أن ابن العم استعانَ بساحر القبيلة إلهي يِبلع مَخاصيه، فعجز هُو الآخر عن صُنع عمل سُفلي يضُر بحبيبتي، كَونها زوجة رجل مبروك وتلِد مِن الفم، وكَون البعيد كذلك نبيًّا غَير مُعتمد، يَكْرِز لصَنم إفريقي مُنقرض، فقرر بعد شُعوره بالعَجز أن يَدسَّ لها السُّم انتقامًا، بعد الاحتفاظ بالأذن والكفّ، ليأكلهما على مَهل؛ ثم ألقى

الجسد في النيل، طَرْد بَريد مَختومًا بالفِضَّة، مُوجَّهًا إلى المَحروسة المنكوسة، لتصل حبيبتي إليَّ جُثة، فينكسر فؤادي وتتبخر روحي. ولا أستبعد، أن القاتل النجس وأدَ ابني الحَبيب «جلال الدين» دفنًا في جذع شجرة، ليَمحو نَسلي المُبارك في الأمم، لكن، تظل استحالة طلاء الفضة في غابة مَطيرة أو مَركب تُجار العَبيد بمسبك كهربي حديث لا يتوفر إلا في لوندرة؛ دليلَ نَفْيٍ يُبرئ سَاحة الغُوريلَّا والنجس والجلَّابة الأوساخ الله يحرقهم جميعًا بجاز، لانتفاء النفع والجدوى من صَقل رأسٍ بالفضة لإخفاء المَعالم من بعد قتلة، والله أعلم.

إن ظهور الجَسد في مِياه النيل قُرب ضِفاف القاهرة، برِئةٍ يملؤها الهواء، يَدل على أن «زهرة» سَافرت وهِي عَلى قيد الحَياة، واستقرت في مَكان يقع على بُعد ساعات من العاصمة، بإرادتها، فليس في رسغها أو قدميها أثر لحِبال خَاطِف أو علامة لمقاومة، صَامت لمُدة يَومين عن الطعام، قُتلت بطريقة أعجز حتى الآن عن فهمها، ثم أُلقيت في المياه، عَروس نيل استجلبت فيضانًا من الحُزن في صَدري، هُناك غُول أراد التنكيل بفنجان القهوة، وأراد أن يُعرَض عَملُه على الخلق ليتباهى، أراد أن يَحرِق شَعر صَدري ويَهرس قلبي بكعب حذائه يا سَادة، ونجح في ذلك دُون عَناء، وبمراجعة قائمة أعدائي التي تمتد لسبع ورقات، أُدوّنها مُنذ وعيت على الدنيا، لم أجد فيها مَن يَملك مِثل ذَلك التَّدبير والذَّكاء، وحتى هَجين القمر الذي يضمر الانتقام بسبب هزيمته على يدي منذ سنوات، تأكدت من سجَّانٍ مَعرفة - بعدما رشوته بلحسة من معجوني الناجِع – أن البعيد ما

زال يَسكن زِنزانته بسِجن القلعة، ويرسم على الحائط اسمي مُحاطًا باللعنات.

في البوظة، وفي تلك الليلة المخصوصة، خَبَطَت البَابَ الغليظ كَفٌّ ثقيلة خشنة، عرض ستاشر بوصة، لَحَظات، وتَخلّل الدُّخان فرد غَريب عَن المُكنة، لَم يطأ أرضها مِن قبل، علِمت ذَلك من وَقْع كَعب حِذائه النُّحَاسي الغشيم، وتخبطه في الحَاضرين دُون عذر، ورغم ظلمة البوظة البَهيمة، شَعَرت بِه يبحث عن فريسة، مُنتظرًا أن تعتاد عَيناه الظَّلام حتى ينقضّ عليها دُون رحمة، هَكَذا ظننت، حتى تأكّدت مَخاوفي لمّا اشتعلت في مُنتصف جَبهته عَين وَاحِدة، مُضيئة متوهِّجة، بُرج فَنار مُرشد، يَدور ويفحص مساطيل أعماهُم الشعاعُ المُبين، فوق كَتِف عَرضه متران، فتأكدت تكهناتي، وضَربني الهَلَع، وكِدت من الرُّعب أن أبتلع لساني ويصيبني الصَّلع، وقبل أن يَطولني الشُّعاع، انسَلتُّ مِن شباك بُوظة «كتِّي» إلى الشارع، مُقاومًا الترنُّح والانهيار، اتكأت على حِيطان البيوت، خُضت في الضَّباب الكثيف الحَامِل لريح الطَّاعون الذي لا يُصيب إلا نَاكري المَسيح، وقبل أن أصِل إلى قنطرة السِّباع؛ التقطت أذني اليُمنى وَقْع الخُطوات المعدنية، تقرع بلاط الشارع مِن ورائي، التفت، فلمحت المَلعون، يقف في سُكون وثبات، مُوجهًا شُعاع عَينَيْه المُضيئتين على العَبد لله فأعماه، ها هِي كُبرى عَلامات السَّاعة تتجلى أمامك يا سُولوم، لم يَنتظر المسيخ الدجال حتى آخر الزمان ليظهر، لقد غَادر عدوي اللدود جَزيرته التي حُبس فيها منذ الأزل، كَسر سجنه السرمدي، وخَالف أمر الله بالخروج دون إذن، ولم ينتظر المتبجح صُعودي

إلى مَلكوتي السَّمَاوي فيستفرد بالرعاعِ والعَوام ليَفتنهم من بعدي. لا يا حَبيب أمّك، لا يا ٦٦٦، سُليمان السيوفي مَلك المُلوك سيكسر الصَّليب على رأسك يا عبد يا مَملوك، لن أنتظر حتى آخر الزمان حتى أعود إلى الأرض ويزفني المؤمنون، بعد ما يكون ربنا فتح عليك وبنيت وكالة ولّا استأجرت مَحل في الأزبكية؟ مُحال، سيقتلك مَسيح المسلمين عِند باب «لُدّ» كَما قالت سِيَر المُطّلعين الواصلين، وسيخلص البشرية إلى الأبد من شَرّك اللعين.

وما كان مني إلا أن التفتُّ إلى عَدو الإنسان بتحفز، مُتهيئًا للمُواجهة الحتمية بقلب شجاع؛ صرخت: «يا أم النور» بعزم ما أوتيت، فخطف البَرق قدرتي البصرية، وزلزل الرّعد الأرض والشجر من تحتيا، ونَزل وَحي السَّماء وانصبَّ في أذني كَما العرقسوس السَّاقع في يوم جُمعة العصرية: «اركض يا سليمان رَكض الوحوش، فالمسيخ الدجال وراءه من الجيوش... جيوش»، فجَريت، مُستغيثًا بالرب، طائعًا للقدر المرقوم في جِد، مُستعيذًا مِن الأعور الخبيث أبو ضَب. خُضت الشوارع السَّاكنة صَارخًا في الخلق النائمة، لعَل أحدهم ينصُرني: «اصحوا يا ولاد الكلب، بلغنا زمن المسيخ الدجال، وأنا لوحدي ومَا لي عِيال» فانفتحت بعض المشربيات، سبَّ الرجال أمي، وسكبت النسوة العجائز على رأسي مياه الغسيل وفائض صبغة الحِنّاء، حتى انحرفت نَاحية مَسجِد السَّيدة زينب المُكدَّس بأجساد الدراويش المتكوّعين نومًا في انتظار صَلاة الفجر، حَشَرت جَسدي الرفيع بينهم، وسَترت وَجهي تحت باط أحدهم، وشَرَعت في الشخير مُلحّنًا ألحانهم.

بَعد لحظات، التقطت أذناي وَقْع خطوات الأعور تقترب، كَنَس الدراويش بسَاقيه كنِشارة خَشب في أرض دُكان سَمَك، وحين وقع ضوء عَينه الوحيدة على جَسدي تمتمت بكل أمل: ﴿وجَعَلْنَا مِنْ بينِ أيدِيهِمْ سَدًّا ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فأَغشينَاهُمْ فَهُمْ لا يُبصِرُون﴾ فتخطاني العِكِر، ابتعد خطوات، لاح الأمل ولكن... خَذلني أنفي، عَطستُ مُرغمًا جراء ما استنشقت في بَاط الدرويش، فعاد الذميم وانقضّ على رقبتي من غير إحم ولا بُونچور، أصَابِعه الفولاذية انتزعني انتزاعًا من بين أنذال لم يَستيقظ مِنهم أحد لإغاثة العبد لله، الفتة ومَرق اللَّحم والبَصل تدفن الأرواح في شَحم الكروش.

ومُسحَ بي بَلاط المَسجد، طَريق آلام، انتهى بضرب ظَهري في حَديد ضَريح السيِّدة الطاهرة، حتى أكُفَّ عَن المقاومة والصراخ، ثُم أَطبَقَ الأعور على رَقبتي تَثبيتًا وحقنًا للهواء، فتذكَّرتُ قول أمي الحُرمة «نواعم مَكرم» حين كُنت أتجاهل نِداء عِيال الحَارة للانخراط في اللعب مَعهم، بَعد كَشفي تآمُرَ الأوساخ على شخصي، ومواجهتهم بالأدلة والبراهين، فتربصوا بي عِند ناصية، أمام مَحل السِّمين، وكالوني علقة انكسر فيها أنفي، وصارت في شفتي فلقة بحجم القناة السويسية: «اللي يِعمل نفسُه حِيطة، تشُخ عليه العِيال يا سليمان». وعنها، استعدتُ رباطة جأشي، وتَجنَّبت النَّظر في العَين المُضيئة كَي لا تطولني لعنته وأُفتن بفتنته، فأفقد شَرف النبوة المُميزة التي بَدَّدتُ العُمر في انتظارها. استجمعت كُل مَا أملك مِن قُوَّة، واستأذنت الرب في التَّغاضي عَن حكم تسليم الخد الأيسر، ثم طوحت قبضتي المميتة في بَطن المسيخ، فاعوجّ رُسغي، ولم

يَشعُر البعيد بشيء، نَظر لِي بصَمت، ثم مدّ يَده الخالية من مَسئولية الإمساك بتلابيبي إلى جانب رأسه، وأدار مُفتاحًا، خَبَث بَعدَهُ فتيلة مِصباح مناجم تتوسطه شَمعة، أمامها عَدسة مُكبِّرة، ظننت مِن الهَلع أنَّها عَينُ أعور تُضيء طريقًا للشياطين السَّاهرة، إنَّ بعض الظن إثم.

لمَّا خَلع المسيخ مِصباحه، فَحَصْت جَبهته بَحثًا عن حُروف: «كاف، فاء، راء»، لكني ميَّزت حُروف «كَاف، سين، ألف وميم وكاف» فاطمأن قلبي، وارتاح صَدري، لَمَّا أدركت حِكمة الرب التي أخَّرت هروب المَسيخ الدجَّال من جَزيرته، وذلك حتى أتودَّك على مهل في صَنعة النُّبوة والذي منه، ومَعلهش، الجَري نُص الجَدعنة، واللي قَرَصُه التِّعبان يِخاف من حَبْل.

الدُّولاب، عَريض المنكبين، لَم يَكن سُوى حارس الإيطالياني الخسيس «كارليسمو»، جَاء مَعه إلى الليمان يَوم أُفرج عني وعن شِكيب، ولم يَغفر من سَاعتها أني بَطحت رأسه حين فررت نحو الجَبل. «سِي أُونا كِريتينو» قالها بِغِل، وتَعني بلُغته: «أحمق، أرعن، أخرق وفَسل مُجتمعين» ثم غَاص في بَطني ببُكْس خرق معدتي وبعثر فقرات ظَهري، فاقتنعت بالكفِّ عَن المقاومة، ثُم قَال وأنا أتلوى بين سَاقَيه كجَنين يَشحذ لرئتيه نفَسًا فور ولادته، بأنه عُيِّن وكُلِّف بمُراقبتي مِن قِبل سَيده الإيطالياني، يَوم خُروجي مِن الديميرخانة، وأني في كُل خطوة أخطوها مُلاحَظ مَرصود، ولا يَنبغي لي أن أغيب عن عَينيه لحظة، يا يضربني بالبارود، فالإفراج عنِّي ليس عفوًا مفتوحًا، بل كَان عرضًا مَشروطًا، مقابل المُعاونة في البحث والتقصي، وللحركة حُدود، قبل أن يخبرني بأن سيِّده يَستدعيني من

فوري إلى مُهمة عَاجِلة كَسَر وقوعها في نفسي؛ أمارات الركود.

طَلبت من الكافر قبل الذهاب إلى سَيده، أن أؤدي الحَج في القُدس، وأزور بعجالة «بَيت لَحم»، وطمأنته «أنا والله لا أشتهي اللحم»، رَفَض البجم، فألقيت السِّر المُقدس في أذنه مُرغمًا، لعله يتعظ فيسجد على الأرض في تمجيد: «لا تضطرب، اهدأ واقترب، إنني أنا المَسيح، سُليمان السيوفي، لقد أتى زماني، فأطعني وامتثل ولا تعترض» فنظر لِي باستنكار واحتقار، ولم ينبهر، مُخ حمار، جَرجَرني من يَاقتي على الأرض قبل أن يُوافق بَعد توسلات واستجداء أن أُصلِّي رَكعتين على عَجَل، فتوضَّأت، بنيّة الهَرَب عَبر نافذة المِيضة مِن ذلك الاستدعاء النجس، لكني تراجعت في آخر لحظة، ليس لأن شباك الميضة زُغيِّر، بل لأن هناك صوتًا تردَّد في أُذني وَسط أذان الفجر بعد جُملة «حي على الفلاح»؛ صَوت السيدة زينب الطاهرة، همست مِن دَاخل ضريحها: «يا سُليمان، أول فنجان قهوة للهيف(65) ، والثاني للضيف، والثالث للكيف، والرابع للسيف»، فأدركث أنها تقصد التزام الصبر والاحتمال حتى تقوى الهمّة والعزيمة، وسيأتي نصرُ الله لا محالة بعد معركة فاصلة أشرب فيها القهوة سادة، فركعت لله تَخشُّعًا، ودعيت لنفسي بالستر في تِسع سَجدات ونصف، لأن الأعور قبل أن أُكمِل العاشرة شلّحني من السروال.

في طريق الخروج، مَسحت حديد الضريح بيدي، وابتهلت أن يُزيل الرب عن صَدري الغَم والحزن، وأن يُسلم لي رأس مَن أراق قهوتي فأقطع رقبته بأسناني، وأن يَنصرني على كُفر الإيطاليان والنمساوية

والأمريكاوية ولو اجتمعوا بكل مدافعهم على أيري. حين مررت بين الدراويش الأنذال الذين استيقظوا ولم ينتبهوا لوجودي عَمدًا، لَعَنت كُروشهم في سِرِّي، ثم نقلت أسماءهم في مُفكرتي مِن قائمة شَرف صُحبة المسيح المصري في الملكوت، إلى قائمة الأعداء من سَاكني جهنم، واتخذتُ طريقي مع حارس «كارليسمو»، مَربوط السَّاقين بحبل من الليف، فوق بَغلٍ مَلَّاكي رائحته كالكنيف، نحو حَي مصر القديمة.

* * *

---

(59) كلمة «بشبش» قبطية؛ وتعني «يُبلل». كان المصريون القدماء يضعون تحت رءوس الموتى وسادة من الطوب المفلطح، وكتب تيسّر على روح الميت الوصول إلى جسده ليعود مَرة أخرى إلى حياته في العالم الآخر. ودعوا «الإله» بحِفظ الوسادة مُبللة/ مبشبشة؛ لأنه في حالة تلف الطوبة/ الوسادة بالجفاف والتفكك؛ لن تصل روح الميت إلى جسده.

(60) الكورنتينة، أو «الكرنتينة»: لفظ مُشتق من الكلمة الإيطالية «كورانتين»؛ ومعناها الرقم «٤٠»، والمقصود به الحجر الصحي، وكانت مدته أربعين يومًا؛ لاعتقادهم أنها فترة الإصابة والعدوى بالطاعون الدبلي.

(61) بلبياه: مكر وخداع للعقول.

(62) بوظة: حانة تُقدم مشروب البوظة المُسكر.

(63) عبده الحامولي: مُطرب مصري مُجدّد في الموسيقى العربية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

(64) قرعة البوظة: مشروب شعبي مصري، يتم تحضيره بتخميـر الشعير مع العيش البائت، ويُوضع في ثمرة قرع عسل مُفرّغة للشرب.

(65) الهيف: العطش والظمأ...

سِفر الحوت/ إصحاح نِمرة ٨٢

سَرد مَا كَان من وقائع في يوم استدعاء الحيوان الذي يُقال له «كارليسمو» للعبد لله، إلى حيِّ مصر القديمة مِن ييجي جُمعة فَاتِت.

لم يَكن وُجودي يَسيرًا عَلى قلب مَغرور متآمر غِطريس ناكر للنبوة مُعجب بروحه كديك رُومي منتفخ الصَّدر؛ مِثل الإيطالياني «كَارليسمو»، فقد أُجبر ذُلًّا وقهرًا على إخراجي مِن حَبس الديميرخانة لأُسدِّد من أجله العَوَار والعجز والنقصان في إدارة أمن المَحروسة مصر، ولضَعف بَصيرته الأروباوية الساقعة مقارنة بحَصَافة سليمان ونُبوته المُكن التي تحدثت عنها جميع البُلدان التي آمنت برِسالتي حتى الآن.

حين سَألته في الديميرخانة عن سَبب الاستعانة بالعبد لله، تحجَّج قائلًا، والصَّفار يَعلو وَجهه مِن الحرج: «إن استدعاءك في القضية الأولى كَان فقط لمَعرفتك بالضَّحية». يااختي عليك، الآن؛ تقف يا مُتبجّح أمام سُور مَجرى العيون(66) العَتيق، لتقول بكُل عَنجهية وتكبُّر على لِسان المُترجم للعربية: «العَبد أول ما يِنشرى، يِجري ويبيِّن مَشطرة، ولمَّا يطول عَليه المَطال، يُقعد ويِرخِي الشفترة(67)، لقد عَلِمت من البصَّاصة؛ أنك تُمارس الفوتوغراف والطِّب الشَّعبي المَليء بالخُرافة، دُون إذن دوقتور الصحة، لعلك تجمَع الأموال مِن أجل سفرة إلى الجَنوب تهرب بها من الإفراج المشروط»... أتباع يَهوذا الإسخريوطي من حَواريي النيام نيام السُّود الذين رفضوا مُصاحبتي في يوم حر موت، ما يتبلّش في بُقهم فُولة،

ولن يَكفوا عَن خِيانتي وإفشاء سِرِّي ولو طَالهم مرض الإسقربوط. أنكرت، وأقسَمت بحياة «شِكيب عبد الصَّمد» التي لا أحلف بِها إلا كذبًا، إني بَاقٍ مُستقر في الأودة الإيجار المعفنة بوكالة السعيدية، ولا أبتغي بجمع الأموال؛ إلا الانتقال يومًا إلى أودة بلُوكاندة «شِبرد» الفاخرة التي تليق بمكَانتي، فالإقامة فيها استثنائية، ولا أنوي الرحيل عَن المَحروسة حتى وإن احتلّها الإنكليز والنمساوية».

أشعل الإيطالياني غليونه، هَزَّ رَأسه بضيق خُلْق شديد، ثم أردف: «لولا أن أرض المحروسة وَعرة، وشوارعها؛ كَشعرك المنكوش بِلا اتجاه، ونفوس الناس فيها عفِنة ومكتومة كالأنفاق، تستوجب استخدام فَأر مُجرب، يَعلم دُروبها الملتوية ومَجاريها؛ ما أخرجتك من الديميرخانة يا «سوليمان يا سُويوفي»، لقد تناسيت أنَّك سَجين خَارج الحَبس، مُحرر ولكن بشرط، إن فكرت يومًا في الغياب عن عيني أو الرحيل دون إذن، سيكون ذلك آخر يَوم لك ترى فيه الشمس، وستكون العودة إلى الديميرخانة، هي أقصَى آمالك في تلك الحياة»، حقَّة... «اللي ما تعرفش ترقص؛ تقول لك الأرض عِوْجة»، البعيد يُهدد المَسيح، والوِد كُل الوِد أن يَصلبني حيًا لو استطاع، كَي ينعم وَحده بعيش السرايا أبو قِشطة لبَّاني والكنافة الخديوية بالسمنة، ولكن، يشاء الرب أن يَحوجه العوز فيتذلل إلى العبد لله: «لا يا إيطالياني، ڤاتيلا آه بيجلياري إن كولو»؛ وتعني: «ريَّحني من فِساك يا طري» مِن اليوم، سَآمر جنايني الملكوت بقطع أشجار المقرونة الإزباجت؛ المَسيح المصري الأصلي لم يُبعث في الضالين عَبثًا، ولَن تُطهِّر مِياه النيل يَديك مِن دِمائي حين تغدر بي يوم جُمعة وتُسمِّرني

عَلى الصَّليب لترى في عيني الدمعة، اضحك عَ الخلق أجمعين، براقع وعِمم وطرابيش، ولّا هتضحك يوم عَ العبد لله، أنت في وَرطة وكَرب، مُهدّد بالبقاء في مَنصِبك الذي اغتصبته مِني ظلمًا وطغيانًا لتشن مع الأروباوية علينا حَربًا، ولا أستبعِد أن تَكون وَرَاء اندلاق فِنجَان قَهوتي، كَي تكسر هَامتي وتدفن موهبتي، فيُفقدني حُزني قوّة مَسعاي ومُثابرتي.

ولم تتأخر العلامة كَما تأخر البُراق في التجلي يوم رحيلي عن أرض النيام نيام، فقد رأيت الإيطالياني رُؤي العين وفي اللحظة التي يهددني فيها بجانب ساقية مجرى العيون التي تمول القلعة بالمياه، كان يغسل يديه في طَاسة نحاسية، فتجلت الحقيقة العارية، وعَلِمت مَن أنت حقًّا يا جاسوس، فلَست «كَارليسمو» بيّاع المقرونة بالتقسيط، بَل أنت «بيلاطِس البنطي»(68) ذَات نفسه، بشحمه ولحمه وغسلة يده من العار، ومَعرفتي بِك في ذَلك الزّمان، وأنا في الثالثة والثلاثين من العُمر، ليست صُدفة، بَل عَلامة من السّماء يا حَدوقّة، علامة تقول إن للمَسيخ الدجّال أخًا آخر غير شقيق، مِن أُم طاليانية، ومَا كنت لأناوِلَك فُرصة التمكُّن مني، فتُفسِد زَمَاني، وتُعكِّر صَفو أيامي الباقية في تلك الدُّنيا الفانية، شرفٌ لأمّكَ أن تُسمّى زانية.

قُلتها في وَجهه دُون خوف أو هلع، ثم بَصقت على الأرض، نَاسيًا مِن الانفعال أني أرتدي كِمامة قُماشية لدَرء رِيح الطاعون الكَريه. نَظر الإيطالياني إلى حَارسه باستغراب، مُدعيًا عَدم فِهم كَلماتي، وكأن غَضبي سَراب، اقترب: «أستدعيك للمرة الثانية لا من أجل

خبرة تنقص رِجالي، بَل من أجل تشابه لا يَحتاج إلى تفكير، بَين زوجتك الإفريقية وبين ذلك الـ...»، وأشار بِيده إلى السماء الملبدة، النسور كَانت تطير في دوائر واسِعة حَول جَسَد عِملاق يَتدلى مِن قِمَّة ساقية مجرى العيون المتوقِّفة عن الدَّوران، جسد، تخطَّى طُوله المِترين، يعتليه رأس ضَخم في حَجم مِزهرية عُثمانلي؛ لها لَمعة الفضَّة في ضُوء الشَّمس، أخرستني المفاجأة، فأجلت مُواجهتي الأخيرة مع المَسيخ الدجَّال، حتى أستكشف ذلك الجسد العارم الإنتركونتيننتال.

برِفقة المسيخ نَاكر المَسيح «بيلاطس البنطي» - كَارليسمو سابقًا - وحَارسه، صَعدت إلى بُرج سَحب المِياه المُجاور للسَّاقية الضَّخمة، وتردَّدت في صَدري كَلمات أُوحيت إليَّ من الرب طازة، وها أنا أدونها، فائدة عامة من أجل خِراف المحروسة الضالة، للتخلُّص مِن آفة الكراهية والغضب: «أحِبّوا أعداءكم، بَاركوا لاعنيكم، أحسِنوا إلى مُبغضيكم وصوموا شهر رجب». فَتَح شِكيب حَقيبة الأدوات، ونَصَب حَامل الكَاميرا، لأُسجِّل الانطِباعَات الأولية عن جُثمان رجل في حجم حُوت العَنبر، بَعد أن منعت الحركة على السَّطح كَي لا أُفسد الأدلة المُحتملة.

الطُّول مُتطرف، البشرة بَيضاء مَهقاء مَائلة للزُّرقة، السِّروال كتَّاني كَاكِي اللَّون، الكِرش عارمة، والقميص الذي ضاق على الجسد يحمل بقعة دماء كبيرة، وهُناك تخشُّب رِمِّي(69) واضِح، يَعني أن الوَفاة حَدَثت قبل أربع سَاعَات على الأقل. عُقدة الحَبل الغليظ تقع أمام الرقبة، وليست خَلفها كَالمُعتاد في وَضع الشَّنق، وكِسوة فضِّية، قناع

مُماثل لقناع «زهرة» يُحيط الرأس كلّه حتى القفا، عليه آثار قطرات الندى، مِما يَدل أن الشنق تَم لَيلًا؛ فالندى لا يَسقط إلا في آخر الليل، وكَف يُمنى مَبتورة بنفس النصل الحاد، سَلام آخر لم يَكتمل بسلام. التقطت سَبع صُور للقتيل في مَكانه حَسب السُنَّة المُطهرة، ثم طَلبت مِن جُند «بيلاطس البنطي» الأوغاد ألا يَحلّوا العُقدة التي تُحيط برقبة الحوت، كَي أستخلص منها المَعلومات، وأن يَدعموا وَزن الجَسد بقوائم خشبية تُساعد في حمل ثِقله أولًا قبل أن يُنزلوه برِفق شديد على عَربة يَجُرّها حصان عفيّ، على أن أُتمم الفحص والاختبار في مَشرحة قصر العيني، اتّقاءً لأسراب الذباب الظالمة التي هاجمت وجهي وتراكمت على الجثة.

ثَلاثة أشياء لم أغفلها قبل الرَّحيل عن موقع السَّاقية: آثار في تراب الأرض، ومَا أدراك مَا يبوح به التُّراب! فردتَا حِذاء نعلاهما دقيقان، في نهايتهما كَعبان نُحاسيان أشبه بحدوة، قياس النعل بمسطرة الأرز(70) كان سبعة وعشرين حبّة بالتمام، مِما يعني أن طول قامة القاتل في حُدود مئة وعشرين سنطي متر، تلك قياسات من المُحال أن تنتمي إلى عالم الرجال، بل هي إلى الأطفال أقرب دُون سُؤال، والأرجح أنها لقزم، في حمل الأثقال شَغَّال، تجوَّل عَلى السَّطح وقُرب السور، تمويهًا وتخفيًا، لعل حيلته تنطلي على البغال. بقياس الخُطوة الواحِدة، كَان طولها كبيرًا، نِسبة لجِسم قصير يَرتدي مِثل هَذا القياس، كَما أن ضغط القدم على الأرض غَير متساوٍ، أقصى ثِقل فيه لَم يكن عِند الأصابع أو الكعبين، بَل في منتصف الحِذاء، مِما يَعني أن القاتل طوله طبيعي، واختار أن يَمشي على أطراف أصابعه

في حِذاء زُغيّر، ليزيح التهمة بعيدًا عن رأسه. بَعد ذلك، تحركت خطواته عَكس اتجاه المشي، نَحو حافة سُور بُرج سَحب المياه، هُناك آثار جَر، القاتل كَان يَسحَب «وَحده» ضَحية في ثِقل مئذنة، مِمَّا يدُل على بِنية عَضلية قوية. التقطت صُورة لنقوش النعل قبل أن يُبعثرها الأغبياء، كَما عَثرت عَلى زِر قَميص مصنوع مِن النَّحاس، مَحشور في شِق بَين حَجرين بالأرضيَّة، ولمَّا كَانت أزرار الصَديرية في زِي حُرَّاس السُّور حَمراء وبها خطان بالطول، أدركت أن القاتل لا ينتمي إليهم على طول، وليس بينهم مَن يملك عَضَلات تستطيع رفع ذلك الوزن ولو يوميًا يجُر بيديه حنطورًا. لقد انفصل زِر القاتل جرَّاء مُعافرته في سحب ضَحيته، ولم يتبين الفقد لظُلمة الليل، ولم أغفل احتمال أن يكون ألقى الزِّر عَمدًا حتى يَكيد لبَريء لا يعلم شيئًا.

قبل أن أرحَل، اطّلعت مِن علٍ إلى زِحام الفضوليين المبدورين حول السَّاقية، والتقطت صُورة وَاسعة للجُموع الباقية، حتى غاسلي قطعان الماشية في ضِفاف النهر، فمَن سَهر الليل ليجتهد في شنق ضَحية بحَجم حُوت؛ مَا كانت لتفوته مُراقبة وُجوه المَدهوشين مِن فِعلته. جَريمة العملاق أكدت لي أن القاتل لم يُلقِ بأميرتي إلى النهر تَساهُلًا وعَبثًا، بَل أراد بفعلته الشنعاء أن يُدشِّن بَاكورة أعماله بطريقة ذكية تُثير دَهشة العامة والخاصة، وبأُحجِية تفتح بَاب تَساؤلات لا ينتهي: «رأس فضِّي لعِملاق مَبتور الكف» عُنوان مُثير في صفحة الحوادث لجُرنال الوقايع المَصرية، أسفل مِنه صُورة مُريعة لحُوت بَشري لن يَطولها النِسيان، وشُكر وعِرفان ببنط عريض، للإيطالياني «بيلاطس البنطي» مُدَّعي المَجد دُون اجتهاد أو دأب، يُريد أن يأكل

في كرشه الأبيض المدهنن حَق سُليمان، هيهات!

في المَشرَحة، رَفَعنا جَسد الحُوت العِملاق بسواعد سبعة رجال أشداء، وجَنزير غليظ مُعلق في حلقة بالسَّقف، أُضحية مَاء ثانية في أقل من شهر، سَاقية بَعد مَجرى نهر، هل هُناك نمط يا سُولوم العُمر؟ «انتبه حتى يعلو اسمك في الملكوت» كَتبتها على طرف الحَوض بقلم كوبية، وأنبأني حَدسي أن القتلة الثالثة، ستكُون غالبًا قُرب مِياه البَحر. اقتربت من الرأس اللامع، تأملته ثم نقرت عليه بسبابتي، ولم أسمع «اتفضل، خطوة عزيزة، ده إحنا زارنا النبي»، رَبّ البيت كَان أبلغ من النَّملة التي لا تقول شيئًا. رَمَقني «بِيلاطس البنطي» باستغراب، سَليل الرومان قليل الحيا عديم الربابة؛ لا يَعلم أن طَرق البيبان عِند الشرقيين مِن آداب الضِّيافة. ككَلب أجرب تجاهلته، وشَرَعتُ في العَمل دُون جَلَبة، حتى يَحين مِيعاد استيقاظ العِملاق فنحتسي مَعًا القهوة.

وأسجل هُنا بعض البيانات للتذكرة من الغفلة: قِياس طول الجَسَد ٢٣٢ سنطي متر. الوزن بالميزان القباني، بلغ «٦٧١ رطل»، وبشق السِّروال الكَاكي من أجل تحرير القميص دون تمزيق، تدحرج أير طوله - بِسم الله ما شَاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله - ٢٧ سنطي مِتر بالتمام، دُون انتصاب، أطول مِن العبد لله باثنين مِللي، ولم يَكن هَذا أسوأ الأخبار، فحين حررت القميص وكشفت الصَّدر؛ كَانَت هُناك مُفاجأة مُربكة للعقل، القاتل كَان يُنافس دوقتور السماء، سَبقني إلى جثة العِملاق فشقَّها من بعد الموت، فتحة طولية، والسكِّين حَاد، قياسها ٥٢ سنطي عَ المسطرة، مُغلقة وملمومة بدوبار غليظ مَجدول،

تمّت خِياطتها على عَجل، بعد حشو البطن الهائلة بشيء منتفخ مَجهول، واضِح أن القاتل كَان مشغول.

التقطت صُورة بعدسة مقربة، ثُم فرجت الأطراف للاتجاهات الأربعة عَن طريق الشد بالجنازير، صَلب شرعي حَلال كما قالت الأساطير، رَصدت فيه دُون عَناء أمارات الاختلال، العَملقة البَادية في يَدَيْن وقدمَيْن بحَجم مُلل السرير، عَطب كَامن في المِسكين، أعصَاب تَناست عَن عَمد اِبطال النمو(71)، مِمَّا جَعل من الصُعوبة بمَكان تَحديد السِّن، ولَولا أن العَبد لله ألمَعي وفطن، لَمَا تلمست وجَسست بسبابتي الغُضروف الخنجري الذي يتوسط الأضلاع، واكتشفت أنه مُلتحم، تِلك عَلامة تُشير إلى أن الضحيّة المسكين، تخطّى عُمر الأربعين منذ سنين.

قبل أن يتمشَّى مشرطي فوق الغرز، وبفحص البطن المشدودة كجِلد الطُبل، تبين أن الشّق فيها تم مِن بَعد الموت، جَرح غَير حَيوي، لم يسعفه الوقت ليحتقن، وكَذلك تنبأت خِبرتي مُسبقًا بأسباب ذلك الانتفاخ، فالمِسكين مُصَاب بكَسل مُزمن جرَّاء تضخُّم الأعضاء الداخلية، كَسَل يُضعف العَضلة القلبية فتنتفخ، ويُصيب الكبد بالتليف فيتورم، الكُلى بالقُصور فتزداد وَزنًا وتتدلى بثقل مؤلم، والرئة تحتقن كبالون هِنري جيفارد(72)، تَزاحم مُزمن، وامتلاء بالغازات، يَزداد وطأة مَع التقدم في السِّن، أمثاله؛ لا يَعيشون أكثر من ثلاثين عامًا، إلا أن ما وجدت؛ كَان لا يمت لكل تنبؤاتي السابقة بِصِلة، فبعدما استعد «شِكيب» للغوص في بَطن الحوت الدامي، لإخراج المَعدة والمَصارين ووضعها في الحُوض قدامي، بَحثًا عن

آخر نبي التقمه، تبيَّن أن القفص الصَّدري غليظ، ومُلتحم العِظام، ليسَ هناك فراغات ريش الضَّأن المُعتادة في الإنسان، درع من العصور الوسطى، عيب خلقي، زاد الأعضاء الدَّاخلية ضَغطًا على ضَغط، وذلك يَعني خَطئي المُبين في تقدير سِن القتيل، الغُضروف الخِنجري فقد أثره في تلك الحالة.

باستكمال الفحص، تبين أن الوضع أعقد من الخَيال بسبعة أميال، فحين كَسرت الدِّرع العَظمي بفأس، لم يكُن هُناك سوى قلب مُستهلك متورِّم، رِئة ضَامرة، وكَبِد إسفنجي هش، أحوال تنذر بالموت في أي لحظة عَابرة، يُزكِّيها شِجار وتلبُّك في الأمعاء والمَصارين، فتنة طائفية تُضاهي فتنة مقتل الحُسين، تدخلت بالمشرط لأفضها، وأسترضي الأطراف المتنازعة، فبرزت في الزحام؛ سَاق زُغيِّرة، جَنين، أظافره طويلة مدببة، لم يقصها لسبعة أشهر متواصلة، فصَرَخ الإيطالياني: «أووه... ذلك الوحش الملعون كَان يَأكل الأطفال» وتقيأ حيلة أمه بجانب الحائط وضربه السُّعال، فتفجر الشَّغف في دِماغي، صَعدت فوق منضدة التشريح، نصبت الكاميرا، التقطت الصور، ثم ضَربت بالمشرط ضَربات فنان مدروسة، حَررت الأعضاء من جَوف العِملاق، وتولى شِكيب تفريغها في أحواض، فاكتشفت أن الساق، ليسَت بقايا وجبة لم تنهضم، بل هي مُتَّصِلة بجسم جنين كَامل، متمرغ في الأحشاء، ومَطعون بالسكين حتى الموت، ثم تبيَّن بالتنقيب وقبل الاستخلاص، أن الجنس ذكر، يُعاني علامات القزامة المفرطة، جِلده أملس من الصابون، وليس له أعين أو جفون، بل في مَوضعيهما مَجسَّان للاستشعار، يُشبهان قرنَي الحلزون، وليس

ذلك فقط مَوضع الدهشة والانبهار، بل يَداه كانت عجيبة، أعوذ بالله، الأصابع فيها من تحت الأظافر مُتَّصِلة بأعضاء جسم العملاق، مُلتحمة، كَأنها عُضو عَامل يتغذى، وحتى الأير الزغيَّر دودي الهيئة، كَان مقترنًا بأير العملاق من الداخل، ينكِح له مَن يَشاء، بالوكالة، وبفصل القزم عنه بالمشرط، اتَّضح أن الشرايين والأوردة بَين الكائنَيْن مُشتركة، دَورة دِماء مُغلقة مُبتكرة، لا تأتي إلا في علاقة طُفيلي بجسد مُضيفه(73)، عائل يَعول مَعول، ذَلك كَان ثاني أغرب شيء رأيته في عُمري مِن بعد وِلادة «جلال الدين» مِن فم أمه الله يرحمها.

كَانت مسألة وقت قبل أن يَضرِب التعفن تِلك الأعجوبة الفريدة، بسبب فَساد جَسد العائل الضخم من حوله، جراء شق البطن ثم تعليقه في الهواء الطلق لساعات، حتى وضعت الذبابات فوقه اليرقات. استخلصت القزم بحرص، وكَان مَطعونًا بغِل حتى الموت، والسِّكين الفاعل بالقياس كَان طوله لا يقل عن ثلاثين سنطي متر، رصدت أنه مُدبَّب مَسنون مِن فتحات الدخول الضَّيقة في جسد القزم. حَاولت أثناء الاستخلاص، وساعة فصل الأصابع الملتحمة بجسد العملاق، أن أبقيها سليمة قدر المستطاع، لفهم ماهية الخلق والتركيب، وللاستدلال عَن ذلك الاغتيال الداخلي الذي تم بعد موت الحوت بدقائق، القاتل، وبعد وفاة العملاق وبلا سبب ظاهر؛ شَقَّ البَطن الهائلة بفأس حادة، اقتحم، وكَان ذلك القزم لا زال حيًّا يُرزق، لم يقاوم، لم يتخفَّ وراء الأعضاء، ولم تُجهده مُطاردة، طُعن طَعنات حَاسمة، حَيوية، وهي السبب الأصلي للنزيف، قبل

وفاة مأساوية. وبتشريح جثة القزم، نشر الجمجمة وشق الصدر، وفحص الأير تحت العدسة، لم أجد فيه شَيئًا يُميزه عن أي قِزم يسير على الأرض ويُضحِك الملوك في القصر، سوى عينيه المفقودتين، وأطرافه المتصلة بالعملاق كالأغصان، وحين أمعنت النظر في قرنَي الاستشعار تحت العدسة، اتضح لي من فتحاتهما الدقيقة، أنهما يؤديان وظيفتَي الشم، والشعور بالاهتزازات من حَوله، تعويضًا عن حاسَّة البصر التي فقدت مَعناها في ظلام الأمعاء، وكَذلك، كَان مَلمس الجِلد واتصال الأطراف، دَليلًا حاسمًا على معيشة كَاملة هانئة داخل بطن الحوت، واكل نايم شاخخ، عضو من الأعضاء، له إرادة حرة في الاستمناء إن أراد.

لما انتهيت من اختبار القزم، قرأت عليه عِدِّية ياسين، ثم وَضعته في برطمان زُجاجي كبير أتى به شِكيب من المعمل البعيد وملأه - حتى الفوهة - بالفورمالين، واستأنفت تفتيش جوف الحوت السمين، لعلِّي أجد جثث بحارة غارقين، أو أحياء ناجين متشبثين بالأطواف الخشبية، وربما وجدت أختًا نتاية للقزم تصلح عروسة لشِكيب، أو حيوانًا أليفًا.

الأمعاء، امتدت على أرض المشرحة وحتى الطرقة، بطول أربعة وثلاثين مِترًا ونيفًا، العملاق كَان على لحم بطنه مُنذ يَومين، ذلك في تقديري زمن الاختفاء قبل المَوت المبين، صِيام إجباري، شَأنه شَأن أميرتي الإفريقية، ذلك يدل على أن القتل تم في مَكان معزول عن الأعين، لا يُسمع فيه صريخ ابن يومين. ثم نزلت بالعدسة إلى القدمين، زغزغته بنصل المشرَط ولم يَضحك، المسكين يحمل الهم،

لُمته على إهمال أظافر أحفورية طويلة يَحتاج قصها إلى فأس، علاوة عَلى بقايا لون أزرق نِيلي يطليها كَأصابع الغوازي، كَيف يَليق بذَكَر عِملاق مُتطرف النمو مقامه مع الرجال، يَحمل الأثقال ويزيح الجبال؛ كَيف له أن يتشبه بالحريمات؟ ولولا الأير الأطول مِن أير العبد لله باثنين مللي؛ لقُلت إن وُجود القزم الجنيني في الأحشاء هيَّج وحفَّز دلالات الأنوثة والأمومة في الجسد العارم، وأعفيته مِن التبرير والجواب، حِفظًا لماء الوجه، ربنا يستر على وَلَايانا.

«هل أصابك العَمى يومًا؟»، سَألت العملاق هَمسًا، ليقيني بوُجوب حُصول ضَغط دَم مُعتاد، بسبب وَرَم يكبِس على العَصَب البَصري في إحدى العينين، مُصيبة مِن مَصَائب التضخُّم المُزمن. نفى العِملاق عن نفسه العَمى بهزَّة رأس لم تحدث، قبل أن ألحظ نَحتًا وتآكُلًا زائدًا في كَعب قَدمه اليسرى، نتيجة انحِراف جِذعه أثناء السير، ناحية العين السليمة، ينحاز ليتزن، ولتكتمل لديه الرؤية، فتيقنت دُون شَك، أن المِسكين إما أعور، وإما قَصير النظر بشكل فَادِح. بَعد فحص الرَّقبة المُحتقنة، ورصد علامات الحبل الغليظ التي حَفرت بأليافها جِلده - مِمَّا يُشير إلى طُول مُدة التعليق - أصَابني الغَم، لعُثوري على بقايا صَدأ وسَحَجَات لا تحدث إلا في وُجود طُوق حَديدي مُزمن عرضه سبعة سنطي متر أو يزيد، طوق حَرمَ المسكين من الحركة ليل نهار، هبَّب عنقه بالسواد، ولم ينخلع حتى يَومَين مَضَيا.

«ابحث في سِجلات المارستان عن نزيل أكل عليه الدهر وشرب، وإن لم تجد؛ فابحث عن مَسجون مُنذ يَومين قرر الهَرَب». صَدَر ذلك الأمر مِنِّي لكارليسمو بلهجة طالياني لا غُبار عليها، جَرَت على لِساني

بغتة ولا قَيصر الروم في قصره. الله أكبر، مُعجزة جديدة تُضاف إلى مُعجزاتك يا سُولوم. أمر «بيلاطس البنطي» أحد مُعاونيه بفحص السجلات، ثم اقترب مني طَالبًا التفسير والبَيان، فتجاهلته عَمدًا كأنه مُصاب بالسيلان، وبكبرياء وافتخار وعِزَّة نفس، لففت لِساني حول أذني حتى اختفى صَوت إلحاحه الأنثوي، واستأذنت الحوت في فَصل الرأس بَعدما تنحنحت قائلًا في أدب: «ربّ يا ساتر»، وناولت شِكيب الفأس.

اتخذ القطع نصف سَاعة بين يَدَي شِكيب المُحصَّن مِن الطَاعون المعقِّن، دِماء تَنَاثرت حتى طَالت السَّقف، صُفرة وشحوب عَليا وَجه «بِيلاطس البنطي»، لم ينجح في مُواراة الرعونة وقلة الخبرة الأروباوية، وصَائغ من «خان الخليلي» حَضر على عجَل، ليصهر الفضة حَول رأس العِملاق بحِرص، وتبدَّى بَعد عَناء، أنها سَليمة هِي الأخرى كرأس «زهرة»، لم يَعترِها النقصَان أو العَبث في أي عُضو، عَدا أُذن يمنى، بُترت مِن بَعد المَوت، بنفس السلاح الحاد، ولسِان ضَمر من قلة الاستخدام، يَدل عَلى بكم مُزمِن ولد به المسكين، أكَّده اهتراء وضعف في الأحبال الصوتية بالرقبة. واسترعى انتباهي فَقد في أحد القواطع الأمامِية للفم، سِن تَم كَسرها بآلة حَادة من بعد الوفاة مباشرة، تركت باللثة أثرًا لم يَجِد الوَقت ليلتهب، أمَّا قِناع الفِضَّة مِن حَول الرأس، فكَان مُحكمًا وبِلا لحامَات، لُغز آخر، على العبد لله فك شفرته قبل أن تنفقع مرارته.

حِين تأملت مَلامح الحُوت؛ بَدَت وَديعة سَاكنة، رَغم تضخُّم مُفرط في عِظام الذَّقن، جُحوظ عَين، وذُبول أختها لارتخاء في الجِفن،

وقصر نظر حَاد ليس له علاج، مُنِيَ به في طُفولة لا أشك في مَدى بُؤسها. انتهيت من فَحص الرأس العَظيمة، وبَاركت الميِّت العِملاق برَسم صليب سُليماني على شُقوق جَبهته المتعرجة، ثُم هَمَست في أذنه الباقية، تَصبيرًا وسِلوَانًا: «طاطي راسك عِند مَدخل النعيم يا أبو سَامية، وأبلغ «زهرة» من أبو جِلجِل السَّلام». ثُم أمرتُ الحَواري الأوحد «شِكيب» بمُعَاونة رِجَال «بيلاطس» والجنازير؛ في تقليب جَسد الحُوت فوق الطاولة، كَانت هُناك خَمسة جُروح طُولية عَريضة، بدأت مِن أعلَى الكتف اليمين واتجهت إلى أسفَل منتصف الظهر، غَويطة في مداخلها رفيعة في مَخارجها، مؤلمة في وقت حدوثها، الْتأمت بخياطة مُزرية واسعة الغرز تمت مُنذ زَمن بَعيد، سبَّبت التهابات كَادت لتودي بحياته.

ثم استوقفني ما ظننته وَشمًا زُغيَّر أسفل الكتف، تاه وَسَط الدماء المَنثورة على الظهر نتيجة نشر الرأس، وبالفحص، تبين أنه حَرْق مُستحدث، ثم جَاءني الوَحي مُناديًا من مَسافة ألف فرسخ، فهرعتُ إلى حَقيبتي، وأخرجت صُور شَجرة البُن الإفريقية. وَضعت العَدسة أمام عينَيَّ، وبَين زِحام الوشوم التي دكَّتها «زهرة» على ظَهرها من بَعد رحيلي عن أراضي النيام نيام؛ رأيت مَثيلًا لحَرق العِملاق، في نفس الموضع تقريبًا، مُثلث أضلاعه مُتساوية، طُول الضلع فِيه سَنطي مِتران، ولَم يَكن للمُصَادفة هُنا مَكان. المُثلث في ظَهر العِملاق حرْق غَير حَيوي، تمَّ بَعد الموت، وقد تخفَّى مثيله وَسط وُشوم «زهرة»، فلم ألحظه، لفَحامة الجِلد الإفريقي الأصلي، ولتولي مياه النيل صَنفرة مَلمس الحَرق وتنعيم حَوافه، حتى صَار كالوشم

العتيق، بين الوشوم تائه وزنديق.

حين اقترب الإيطالياني عَاجزًا فَاشلًا، وَاضِعًا ذَيله بين قدميه خَانعًا خاشعًا، طالبًا أن يتلقى التقرير الشُليماني المُكن عن حَال العِملاق؛ أسقيته قطرات من عَصير الخبرة، ثم لسعته بكَرابيج المِراس والفطنة، مِن طقطق لسَلامو عليكو: «ذلك الحُوت البَشري، لَم يَمت شَنقًا، ففقرات الرقبة لم تنكسر، والقصبة الهوائية لم تنقطع، والحَبل الغليظ الذي استطاع بالكَاد أن يَحمل وزنه، كَانت عُقدته أمام الوجه، ذَلك ليس وَضع الشَّنق المعتاد، ولم يَكن القاتل ليُجازف بإلقاء عِملاق يزن ٦٧١ رطلا مِن ارتفاع سَاقية مَجرى العُيون ليقتله بالجاذبية الأرضية، وإلا انقطع الحَبل، وثقب العِملاق بجسده المَهول الأرض كَشِهاب مُتهور، وطارت رأسه لتسقط في حِجر الخديوي بالقلعة.

عَلى ضَمَانتي، لقد تم الشَّنق والميت ميِّت بالفعل، فالأير لَم يَنتصب جرَّاء الاحتقان والضغط، ولم يقذف سائله المنوي كعَادة كُل مَشنوق يُعاني سَكرات الاختناق، الأعين ليست جَاحِظة، والشرايين فيها ليست متفجرة نازِفة، والأصابِع رغم التخشب مُنبسطة غَير قَابضة أو متشنجة، ليس هناك مُعاناة، لقد مات قبل أن يُحكم القاتل الحَبلَ على عُنقه، بعُقدة سَميكة مُركبة، تُشبه عقد البحارة المُتمرسين، ثم أدليَ برفق، مثل سَبَت مِن الخوص يحمل طبقًا فيه لبن، لم ينسكب، وبأعصاب من حَديد لا تتوفر إلا في فحل ثُور في مُوسِم التزاوج. لم تتأثر ألياف الحَبل بالوزن ولم تنفك أو تنفلت. أما عن القزم الذي يقطن الأمعاء، فإن خلق الله؛ التفاوت فيه هُو الأصل، يكفي أن

النساء يبضن الرجال، والمُستكشف الإنكليزي «چيمس كوك» وقبل أن يُصيب - وبحّارة مراكبه - أهل أستراليا بعدوى الوباء المُكن الذي قضى عليهم(74)، ضرب أخماسًا في أسداس حين شاهد الجراب الذي يحوي وليد الكنغر لأول مرة، وكذلك قد يكون ذلك القزم؛ جَنينًا لم ينفصل، لَم يُولد، لكنه اندمج وانصهر في مَضيفه، وبقُدرة قادر، استطاع أن يجد طريقه في الحياة عبر الاتصال بأعضاء أخيه الأكبر.

«قاتل واحد؟ كَيف له أن يَرفع مثل ذلك الوزن وَحده؟!»، سَألني الخسيس، فأجبت: «بل إن السُؤال العَويص، كيف لتلك القوة الجبَّارة - وإن توفَّرت في عملاقٍ آخر بحَجم القتيل - أن يَصعَد إلى بُرج سَحب المِياه في سُور بارتفاع سبعة أدوار دُون أن يلمحه أحد؟ لا بُد مِن وُجود خَائن مُوالس يسَّر له الصعود من جانب خفي. «مَا الرَّابط بَين وسم العملاق ووسم عِشق الفؤاد زهرة؟ وكيف من الأصل مات؟!»، دلالات فحص الرقبة والمَعدة والقلب، تقول إن الشَّيء الوَحيد الخَطأ هُنا؛ هُو كُل شيء، لقد مَات ذلك الحُوت ومِن قبله ماتت «زهرة»، وكأنهما أرادا فَقط أن يَموتا، دُون مَرض، دُون جَرح أو صَخَب، دُون جلطة في القلب أو صدمة في العَصَب. أما الحَرق العَجيب الذي حَدَث من بَعد الموت، فالأرجح أن تمَّ بعَصَاة وَسم حَديدية، كَتِلك التي تُستعمل لتمييز طوائف العَبيد أو الماشية، كَي لا تَختلط ملكيتها بَين التجار، عَصاة انغمست في النار حتى حَمِيَ طَرفها، قبل أن تختم الجِلد لتشويه، في شَكل مُثلث.

سَاد صَمت، أشعَل فِيه بيلاطس الإيطالياني غُليونه، فكَّر، ثم فكَّر، ثُم قال دُون تَبصُّر: «أنت نَبيه حقًّا يا سوليمان، مَاهر في أمور المَوتى

رغم خَبَال لا تخطئه العَين في عَينيك، لَكنَّك أغفلت أشياء، التاجر الحَاذق لا يَسِم عَبيده من بَعد المَوت، زَوجتك الإفريقية اختطفها الجَلَّابة(75) وهي في طَريقها للمَحروسة، لتعمَل بالبغاء الذي أرهق جَسدَها مِن اختلاف الرجال عليها، ووُسِمت بالمثلث الناري ليميزها النخاس الذي يملكها من بين قطعان المومس، ولما مَاتت، ألقى بجثتها إلى النهر، شأن كُل عاهرة في أي قرية أو كَفر، وقطع الكف تم لفشل في خلع خاتم ترتديه أو مباريم(76) ضاغطة على الرسغ، أمَّا القناع الفضي، فقد وُضع على الرأس بَعد بتر الأذن، قُربان للشيطان، طقس متطرف، سحر شَرقي متخلف».

حقًّا، «سِكِتنا لُه؛ دَخَل بحماره!»، لا بد أن الله يُحِب السذَّج لذا خلق منهم الكثيرين، شَقيق المسيخ الدجَّال، يُنافس سُليمان ابن نواعم في البَحث والتقصي، ويدَّعي أنني المَخبول صَاحب اللوثة المزمنة، ثم يَصِم «زهرة» بالعهر عِيني عِينك، لا يا تنين مار جرجس(77) الجبار، لا يا ربابة المقرونة الإزباجت، إلا «أم جَلال» الطاهرة وسيرتها العَطِرة، يَومًا مَا، حِين تَعود الدنيا لرُشدها، وتبطَّل تِمشي على إسْتها، ستُدرك أنك أخطأت في حَقِّي وحق ستّك السودة، وسَأنكِحك يا ابن الرفضي، لا بأيري الذي لا يَرضى بالذي ترضى به الأيورُ جميعًا، بل بأير شِكيب - غاوي الموتى - عبد الصمد، ودُون لِجَام أو بَردعة، خِبرتك زي الخرُّوب، قِنطار خَشَب وبقرشين سُكَّر، والجَزَّار الشَّاطر؛ مَا يخافش مِن كُتر الغَنم.

رَددتها في دِمَاغي تذكرة لنفسي العويلة، كَي لا تَنِخ في حَضرته أو تنثني، ثُم كَظَمت غَيظي وسَحَبت لرئتي نَفَسًا يَكفي سَبع رئات، ثم

أنبأت العِنّين الخَسيس بِما لَم يُحط بِه عِلمًا، فأشرت إلى جُثة العِملاق وقلت له في ثبات: «إن كَانت زَوجتي للبغاء مُستطابة، فذلك العِملاق بالتأكيد أجدر أن يكون بيتًا للدَعارة. لكنه بِضاعة كاسدة لتاجر عَبيد غشيم، كيف اشتراه وسِعره في الأسواق لن يتخطى قِرشين؟! كَما أنه لَيس مِن سُكَّان المَارستان، فجُمجُمته - عَدا السِن المكسورة والأذن المبتورة حديثًا – سَليمة، مُعفاة مِن حِلاقة المُوس الجائرة المُقررة عَلى المَجاذيب، لتطهيرهم مِن الأمراض الجلدية، والجبهة - يمين وشمال - لا تحمل أطلال الطّرق الرتيب بالشاكوش المَعدني أو الفصد(78)، لتهدئة لوثته العقلية ونوبات الغضب التي تعتريه، واسأل مجرَّب مُعذَّب مَشى على بطنه سنينًا فوق بلاط مارستان قلاوون؛ ولا تسألش دوقتور.

كذلك لم يكن الحوت من فئة المَحابيس، فجَسَده لا يَحمِل آثار لَسَعات الكرابيج التي لا تفوت مَسجون، وليس بذِراعيه أو كتفيه وشوم المُذنبين مِن مُعتادي الإجرام، بَل العملاق يَصلُح أن يكون نِمرة مُثيرة لجُمهور سِيرك، ذَلك يُفسر الطوق الحَديدي الصَدئ الذي ترك هبابًا عَلى رَقبته لمنعِه مِن الفِرار، والأظافر المَصبُوغة بالأزرق، حِلية تُضفي على المِسكين مَظهر الخوال(79) الهُزء ليَضحَك مِنه الكبار قبل الصغار، قلت آمِرًا الإيطالياني: «ابحث في سِجلات «ضَبطيّة مَصر» عن سِيرك شَعبي «نُص لِبَّة» مُتنقل، اختفى عِملاقه مُنذ أيام، سِيرك يَعرِض نِمرة مُكن، أحد أبطالها دُب رُوسي بُني كَبير من فصيلة «الكامتشاتكا» خصوصي، في كفه العريضة خمسة مَخالب لم تُخطئها عَيناي.

استمع الإيطالياني لكلامي ثم أمر حارسه بمصادرة البرطمان الذي يحوي القزم، تمهيدًا لعرضه على الخديوي إسماعين في القصر، وكَذلك أعطى الأمر بتحنيط جسد عِملاق مصر، تمهيدًا لعرضه مع الحشوة التي بباطنه في فاترينة بمتحف طِبي، ليبهر أعين الأمراء ويُدلي فكوك العامة، فيتردد اسمه مَصحوبًا بلقب «حامي حِمى المحروسة» في الساحات وفي الملكوت. «على جُثتي يا آكل الإزباجت، أنت تعطي المفترس ألف سبب ليستمر في افتراس ذوي العجب من مُغايري الخلقة، ألم يكفِك نشر صورة لوجه أميرتي الإفريقية في الجرانيل؟ وصورة أخرى مقربة للذيل بالمؤخرة من تحته، تُريد لتغذي مَجالس المحروسة بالنميمة وتزرع الخوف في النفوس، ليلتف الناس حولك ويستنجدون، أنت لا تبغي إلا الظهور يا مَبعث الطاعون»، قلتها بصوت مسموع وتفتفت بحرقة، فاقترب مني «بيلاطس» في هُدوء وقال بعد صمت: «لقد قرر القاتل إشهار جرائمه لسبب لا نعلمه، وحين يشتري الجرانيل ويجد آثار فعلته؛ كَلمات مشوهة مملوءة بالسُّخرية والاستهتار، سيزداد غُرورًا عَلى غُروره، وسيُكرّر فِعلته رغبة في فرض الرعب والاحترام، ضَحية، اثنين، أربع، في النهاية، سيغفل عن شيء ما، وسيسقط بين يدَيَّ قبل أن يستوعب أنه سقط، لك أن تفحص الجثمان وتغوص بيديك في الأحشاء، تلك مُهمتك، أما البحث وإدارة الأزمة فتحتاج إلى رجل عَاقل... أريفاديتشي يا سليمان»، قالها وانحنى كچنتل مان، ثم ابتعد ومن ورائه حارسه، يحمل بين يديه برطمان يحوي القزم، وجرّ أربعة من العسكر مِنضدة فوقها الحوت، تتدلى مَصارينه على الأرض وتزفّها جوقة مِن الدبّان.

بعد يَومين.

جَاء البصَّاصَة بالخَبر اليَقين، سِيرك «ماكسمِيليان الرُّوسي» الشَّعبي المُتنقل، ومَوضعه الحَالي ضَواحِي الجِيزة مَركز «البَدرشين»، هَرب مِنه عِملاق مُخيف، فكَّ سَلاسِل الطَّوق الذي يُحيط عُنقه، وكَسر قفل باب عَربته الحَديدية، كَان صَاحِب «نِمرة» شهيرة تُدعى «الوهم».
وبسُؤال الخواجة مُدير السيرك، أفاد بلكنة خربانة، أنه ومُنذ عشرين عامًا أو يَزيد، وأثناء تجواله بعَربات السِّيرك في جنوب مُديرية «سوهاج» بالصعيد، التقطت أذناه أصداء حِكاية مُخيفة يتداولها السكَّان منذ قرون، حَوْل كَائن وَحشي عارم الحجم، أطلق عليه الأهالي اسم... «الوهم».

قيل إنه الوحيد الذي نجا من طوفان عمِّي «نوح»، مَشى في البحر بجانب السفينة أربعين يومًا، وكان الماء يصل إلى ركبتيه، كَان يمُد يده للقاع المالح ويلتقط حوتًا، ثم يرفعه ناحية الشمس فيشويه بين أصابعه، وإذا أراد الشرب قبض قبضة من السحاب فشرب منه، وحين رَست السَّفينة على الجبل، واستقر الأمر بالخلق المحظوظين بالإيمان، تناسلوا كالأرانب، حتى باتوا قبائل، وكَانت قوافلهم إذا مرت به وهو مُضطجع؛ قال لهم: «إن بلغتم رِجلي فاهرشوا لي فيها». ثم استقر به الأمر في مصر، بنى أول الأهرامات من الضَّجر، ثم صَعَد إلى أرض سُوهاج، وكانت وقتها تسمى «أبيدوس»، فأعجبه الجو هناك، وحَار الأهالي عبر السنين في التعامل مع ذلك العملاق الكامن بين معابد القدماء، يحش الزرع ويفترس الماشية، ويعب من النهر عبًا فيبتلع الأسماك البُلطية، ويهتك عرض الأشجار، حتى

ألقيت عليه تعويذة من سَاحرة عتيدة، دعت عليه بالسخط والتقزم والاضمحلال، فلم تؤثر فيه، لضخامة الجسد الذي يحتاج إلى فنطاس مِن التعويذات، لكنه بات يَظهر في الليالي غير المُقمرة على هيئة قِزم، يقف وَسط الزراعات المُحِيطة بمعبد «أبيدوس»، يُغني نَشيدًا عَجيبًا: «الوهم، الوهم، المَسجُون، الوهم الوهم، مش مجنون»، ثُم يُنادي اسم المَار في الطريق مِن بَعيد، مَتبوعًا باسم أمه، إن استجاب، إن أسره الفضول فتوقف، اقترب الوهم مِنه، في كُل خُطوة يخطوها تجاه ضحيته، يَزداد طولًا وعرضًا، وتتسع خُطواته، يَطوي المسافات طيًّا، يَهرِس الزَّرع ويزيح جذوع الشجر بيديه، وقبل أن يخطر الهرب في ذِهن الضحية، قبل حتى أن تجفل أو تستغيث، يَكُون «الوهم» وبطول تضاعف إلى خمسة أمتار ونيف؛ قد أطبق عَلى أطراف ضَحيّته، بيدين عَارمتين لا فِكاك منهما، يَرفع الجسد عن الأرض، ولأن أذنيه حسّاستان تسمعان الهمس رَعدًا مُدويًا يصمّ أذنيه؛ يَدس «الوهم» رأس الضحية في فَمه، غَير مُبالٍ برفس أو توسلات، ولا يَقضِمها، بَل يَشفطها، يمتصها، حتى تخرج العينان وتنزف الأذنان ويشخر الأنف، ثم تخرج الروح بصَوت طقطقة تصل إلى الأهالي في البيوت البعيدة، قبل أن يُلقى بالجَسد الهَالك وَسط الزراعات أو في الترعة، خرقة بالية دامية تحمل أمارات الفزع، ليراها الأهالي من بعد الفجر، فيسود الهلع، ويحظر السير بين الغيطان لشهور، فيجف الزرع من عدم السقاية، ويشيب شعر الرءوس مَع ترديد الحكاية.

صاحب السيرك الرُّوسي «ماكسمِيليان»، قرّر أن يتبع أصدَاء ذلك

الغُول العتيق، تَجاهل نَظرات الشَّفقة والاستنكار في أعين الأهالي، وكَمنَ خَلف مَعبد «أبيدوس» وَسط الزراعات، ذِئب متربص يَحمل بُندقية «كِرينكا»، حتى لاح شبح القزم في لَيلة مُمطرة، نَشد النشيد المُخيف، ونادى اسم الروسي واسم أمه دُون تحريف، ثُم اقترب، وبدأ جسده في الاستطالة بسُرعة خارقة، حتى إذا أصبَح في مَرمى البُندقية؛ أطلق الروسي على عينيه رَصاصة أسقطته مغشيًّا عليه، وتوقف جَسده عَن التضخُّم، قبل أن يتمكّن مِنه ويُسلسِله بالجنازير، ثُم يُودِعه قَفصًا حَديديًّا صُنع خصيصًا من أجله، ليُصبح بعد تعافيه من طلقة العين... «الوهم»... عِملاق المَحروسة المَجنون، ولِمَ لا يكون... المسيييييييييخ الدجاااااااال!

تِلك كَانت آخر كلمة في الخُطبة التي يلقيها صاحب السيرك على الحُضور في كُل ليلة تحت الخَيمة، يتبعها رعب وذهول وتصفيق حاد، وترقب، ثُم تُطفأ نِصف المَشاعِل، ويَعلو رقع الطبول المنتظم مع وقع خُطوات ثقيلة تهز الأرض، قبل أن يلوح العملاق مِن خلف الأستار، طول بعرض، يَجره سبعة رجال أشداء بسَلاسِل حَديدية غَليظة مربوطة في رقبته، يتوسط الحلبة، ينظر للجُمهور المبهوت بعينه السليمة، يتجشأ فترتج الخيمة، ثم يزوم بتوحش يفر على أثره نِصف الحاضرين رعبًا، ويتبول النصف الباقي لاإراديًا.

لم تكن تلك هِي القِصَّة الحَقيقية.

هَكذا أقرَّ الرُّوسي بَعدما أخبرته بأن العِملاق كَان أبكمَ، ضَامر اللِّسان هزيل الأحبال الصوتية، لا يقدر على النداء برقة صبية، كَما أن عينيه مُرتخية، وليس بالجفن أثر رصاصة أو شظية. فزفر الروسي

في يأس، كسا الإحباط ملامحه بعدما أدرك ألا فائدة من الكذب بعد فَقْد نمرته الأثيرة، فقال بالحرف: «لَم أعرف للعملاق اسمًا، ولم يتكلم يومًا أو يُخرج صَوتًا مُنذ قابلته أول مرّة في الزراعات خَلف المَعبد العتيق. تقديري، أنه كَان في العشرين من العُمر، وَحيدًا بائسًا، لا يتحرك إلا في الليل حتى يتجنَّب أشعة الشمس التي تحرق بشرته البيضاء المهقاء وتزيده كَسلًا على كسل، وليتحاشى أعيُن الفضوليين الذين يَخافون ضَخامته المفرطة، يَقتات من الشَّجر ويَشرب من النهر كالبَهَائم، بل وأحيانًا يأكل الماعز والقطط نيئة، غَير عَابئ بالحِكَايات التي تراكَمت مِن حَوله عبر الشُّهور والسنين، يُذكي نَارها خَيال الأهالي، جِيل بعد جيل، حتى باتت حقيقة راسخة، أسطورة تدور حول وَحش عارم، يَكمُن في الزراعات خلف المَعبد، وَسط تماثيل المَسَاخيط(80) الضخمة التي يَهابها القرويون السذج، واختلقوا له اسمًا يزيده غموضًا ومهابة.... «الوهم».

مَع تقدم الزمن، ازداد العِملاق الكَسول عُزلة على عُزلة، وبَات يَكره الفُضوليين أكثر وأكثر، يَزوم حِين يقتربون، فيبتعدون مُرتعبين، حتى رأيته يَومًا، جَبَلًا نَائمًا في حُضن جبل، والتمست في هيئته نمرة عَجيبة لأعين زوار السيرك الجائعة، عمل شريف، يَرحمه مِن زَأْل الطوب وصراخ النسوة حين يَلمَحونه مِن بَعيد، لتخفيف اللعنة التي أصَابته مُنذ ضَربته العَملقة وهو زُغيّر وَحيد مَجهول النسب.

في يَوم الصيد المَوعود، وَضعت في الزراعات معزة مَشوية رائحتها قوية، وحين اقترب لِيلتَهمَها، أطبق عليه رِجالي مِن كُل صَوب، أطاح بثلاثة منهم في ضَربة وَاحدة، ذراع صَلب، وهرس

أحدهم بقدمه المفلطحة فهلك على الفور، قبل أن نَنجَح في إخلال توازنه بحَبل غَليظ، مَررناه بَين سَاقيه في غفلة مِنه، فترنح، ثُم هَوى عَلى وَجهه بهزة كَادت فيها أعمدة المعبد أن تسقط على بعضها، ضربت رأسه بنبوت غليظ، خَمس ضربات، بكُل غيظ، ولم تؤثر فيه، بل كاد يقوم، قبل أن يَكبس أحد رِجالي عَلى رَأسه برميلًا مُشبَّعًا بالكلوروفورم، فخفتت حَركته، وهدأ خُواره كخروف دَخل الفرن، ليستيقظ بعد ساعات في سيركي، ويصبح «الوهم».

حِين عاينت العربة الحديدية التي كَانت تأوي العِملاق، أدركت أنَّ المِسكين - في مَكمنه الأزلي خلف المَعبد - كَان غريقًا، وألقى إليه «ماكسمِيليان» بحبل النجاة... كُله، فازداد غرقًا، الرُّوسي الكافِر لم يَكُن أقل قَسوة مِن القرويين على المِسكين، أنقذه مِن الحُرِّية، جَلَبه مكبَّلا مِن الصَّعيد، رَبَط عُنقه بطُوق من الحَديد، كَان يَأكل ويشُخ وينام كَما البَهائم في نفس الموضع، وكَان حَريصًا على عَزله كُل الحِرص، كَي لا تألف أعين الفضوليين مَسيخه الدجال، فينطفئ حوله اللغو والإبهام، وحتى يَظل لإطلالته تحت خَيمة السيرك وَقْع يُذهل أعين الأنام.

إنَّ قاتِلَ «زهرة»، هو قاتِل سَاقية مَجرى العُيون - الوهم وبداخله القزم - وهُو مَن اقتحم تلك العَربة الحديدية منذ أيام، الباب تم كَسره من الخارج لا من الداخل، هكذا قالت العلامات في القفل، وكذلك الطوق والسلسلة التي تحيط العنق العريض، تم تحطيمها بآلة معدنية لا تتوفر في العربة المفروشة بالطين والتراب، دَخل القاتل وحده، ترك عَلى الأرض طبعة نعل القزم، قياس سبعة وعشرين،

بجانب قدم العملاق الذي لَم يُبدِ مُقاومة تُذكر، ليس هُناك آثار للعنف، وكأن العِملاق كان يألف وَجهَ قاتله، أو رُبما استسلم له فزعًا، مثلما استسلمت «زهرة» يَومًا، ويؤكد تلك الحقيقة أن جَسد العِملاق في المَشرحة - بعيدًا عن شق البطن الذي حدث من بعد الموت - سَليم، حيَاالله كَدمة في الفك حدثت في الأغلب وقت تخليص رقبته مِن الطوق الحديدي، وأثر خمسة جُروح ملتئمة، مَخالب دُب بُني عَجوز من فصيلة «الكامتشاتكا»، يَعيش حاليًا في قفص مُواجِه لعربة المَرحوم، رفضت أن ألقي عليه السلام تضامنًا مع المتوفي المظلوم، وكان آخر سؤال وجّهته للروسي «ماكسمِيليان» قبل أن أرحل: «هل كنت تعلم بأمر القزم في بطن الوهم؟»، وكَانت إجابته: «في أحيان، ورغم البكم، كَانت تصدُر عَنه كَلِمَات، حوار طويل بصوت لا يليق بحجمه، ينتهي بالسكات حين ينفتح بابه. في ليلة الاختفاء، صَرخ بصَوت حَاد في الفراغ، ثم تحدث بلُغة غير مَفهومة، أقرب للّعنات، سَمِعها أحد عُمّال السيرك، ولو علمت أن بداخله كائنًا حيًا، لشققت بطنه وأخرجت الرأس منها ثم أغلقتها بالخياط، ليصير مثل الكانجارو الأسترالي، نِمرة أعجوبة في سيركي يَستحيل نسيانها، أتدري كم كان سيُدر عليّ من أموال؟».

بصقتُ على الروسي، في سِرّي، لكني تأكدت من صِدْق كلماته الأخيرة، هو لم يقُم بالقتل، وإن فعل، ومات الوهم بين يديه، لشرَّح جثته علنًا، ثم عرضها في السيرك مُحنطة لإثارة العجب، مثلما فعل «بي تي بارنوم» في سيركه الشهير مع مرضعة جورج واشنطن(81).

***

---

(66) سور مجرى العيون: نظام قنوات مائية في العصور الوسطى في القاهرة، لنَقْل المياه من النيل بحي مصر القديمة إلى القلعة.

(67) الشفترة: الشفتان.

(68) بيلاطس البنطي: كان الحاكم الروماني لمقاطعة «يهودا»، وبحسب الأناجيل الأربعة، فإنه قد تولى محاكمة المسيح، وقبل أن يُصدر الحكم بصلبه، غسل يده بالماء قاصدًا إبراء يديه من ذنب قتل المسيح أمام اليهود.

(69) التخشب الرمي: أو الصَّمل الموتي، وهو إحدى العَلامات المَعروفة للوفاة، ويحدث بسبب تغيرات كِيميائية للعَضلات نتيجة توقف حركة الدم، يجعل الجثة متصلبة لعدد من الساعات. في الإنسان، تبدأ هذه العلامة في الظهور من ساعتين إلى أربع ساعات، ويمتد تأثيرها حتى اثنتي عشرة ساعة بعد الوفاة، ثم تزول بعد ٤٨ إلى ٦٠ سَاعة من بعد الوفاة.

(70) مسطرة الأرز: قياس صيني للحذاء، حيث إن قياس ٤٣ على سبيل المثال يساوي طول ٤٣ حبة أرز. وفي بريطانيا تم اعتماد حبات الشعير لقياس الأحذية.

(71) قبل اكتشاف الهرمونات، وخاصة هرمون النمو بالغدة النخامية، كَان العلماء يعتقدون بأنه يتم إرسال كل إشارات التحكم في الجسم من المخ عبر الألياف العصبية.

(72) تم بناء أول منطاد ناجح من قِبَل «هنري جيفارد» الفرنسي في عام ١٨٥٢.

(73) الطُّفيلي: كائنٌ حيّ يعيش على كائن حيّ آخر (المُضيف) أو داخله،

ويستفيد منه بالحصول على المغذّيات.

(74) في الرحلات التي قام بها الكابتن «كوك» مع سفنه وطاقمه إلى أستراليا وهاواي، نقل أفراد الطاقم مَرضَين تناسليين؛ «السيَلان والزهري»، إلى أبناء الشعوب الأصلية، مما تسبب في وباء وإبادة جماعية، لعدم وجود وقاية ضد تلك الأمراض في أجساد تلك الشعوب.

(75) الجلَّابة: تُجار العبيد.

(76) المباريم: نوع عتيق من أنواع الغوايش الذهبية.

(77) تنين مار جرجس: أسطورة تتحدث عن تنين ضَخم يسكن النهر، ويخيف أهل البلدة، فيسترضونه بتقديم أبنائهم ذبيحة له، ولما جاء الدور على ابنة الملك الوحيدة ليقدمها ذبيحة لاسترضائه، امتنع الملك، فخرج التنين ليدمر المملكة، وهنا ظهر «مار جرجس» ليحارب التنين، ودرات معركة كبيرة انتصر فيها «مار جرجس»، قتل الوحش وأنقذ المملكة؛ وهي قصة مُستوحاة من أسطورة «إيزيس وأوزوريس» وابنهما «حورس»، حيث تم تصويره على شكل صقر يمتطي حصانًا، ويطعن «ست»؛ إله الشر المتمثل في صورة «تمساح» بحربة طويلة.

(78) الفصد (أو الإدماء): سحب الدماء من المريض عن طريق شق جرح ينزف بشكل منتظم، حتى يخفف ضغط الدم، أو ينقيه من السموم، ويصلح كذلك لمنع وعلاج العِلَل والأمراض.

(79) الخوال: راقص مِصري شعبي يرتدي مَلابس نِسائية، انتشر شعبيًا خلال أواخر القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن التاسع عشر.

(80) المساخيط: أطلق العامة قديمًا على تماثيل المصريين القدماء كلمة «مساخيط»، ومفردها «مسخوط» وأن يَسخط فلان على فلان تعني أنه كرهه وغضب عليه.

(81) جويس هيث: امرأة أمريكية من أصل إفريقي، تم عرضها كنِمرة في سيرك «بي تي بارنوم» - رائد السيرك الأمريكي الأشهر - بزعم أنها الأم المرضعة البالغة من العمر ١٦١ عامًا للرئيس الأمريكي جورج واشنطن. اكتسب ذلك العرض، وبموجب هذه الادعاءات، مَكاسب هائلة، حتى تُوفيت السيدة «جويس»، فروّج «بي تي بارنوم» لفقرة جديدة في سيركه، استمرت لسبعة أشهر، جرى فيها تشريح جُثتها بشكل علني، ونالت تلك العروض شهرة أكبر. اتضح فيما بعد أن «جويس» كانت في الثمانين من العمر، ساعد جسدها الضئيل وتجاعيدها العميقة وأظافرها التي تشبه المخالب؛ في المبالغة بتقدير عمرها، أما الأسنان، فقد خلعها «بارنوم» بالقوة حتى تبدو أكبر سنًّا!

سِفر المقرونة/ إصحاح نِمرة ٨٣

ذِكر ما كَان من أخبار أسبوع الوبال، وفيه المَسيح المصري كَان بَايت ليلاتي مَشغول البَال عَ الخلق كِبار وعِيال، صَرعى الكُبَّة الطاعونية، التي باتت تأخذ في كُل يَوم مَوتى بعدد شَعرات إبطي الشمال، والدَّفن في قرافة الإمام صَارت أجرته نِصف رِيال.

بعد استيلاء «كارليسمو» على جَسد عِملاق السيرك، ومُصادرة جثة القِزم الذي كَان يَسوقه مِن الجوف بلجام مِن اللحم، أصابني إحباط رَهيب وتثبيط، ولَمَحت أثناء مُروري بسُوق «الاثنين»(82) كلمة «سليمان العَبيط»، محفورة بقلم السماء الفاخر، بداخل ثمرة باذنجان مَشقوقة نصفين ومعروضة للسوقة والزعانف بضعفَي السعر، فضربتني الكآبة، وانكفأتُ على نفسي مُحاولًا التخطيط للمُصيبة التي ألقيت في حجري باستماتة. عَالجت التصويرات بالأحماض، ودوَّنت الخواطر والانطباعات في إنجيلي بخط رقعة عليه تشكيل، لعلّي أستفيق من ذلك الكابوس الذي جثمَ على صدري منذ ماتت «زهرة»، بمعرفة القاتل ومقصده السَّافل من قطف شبابها، وحلفت يمين طلاق، ألا أتراجع أو أتخاذل إلى يَوم الحساب، ولن أنفخ في الصُّور(83) يوم القيامة ليصعق مَن في السماوات والأرض وتنفطر السماء وتتناثر النجوم وتُنسف الجبال وتفيض البحار وتزلزل الأرض وتُبعثر القبور ليخرج منها الميتون منذ أبينا آدم؛ حتى أصِل إلي قاتل القهوة وأمزق أوصاله، رَغم أنف الإيطالياني الذي يُريد أن يُقصيني عن الأعين ويطمس شُهرتي المُنتظرة.

ولكن؛ رياح المحروسة أتت بِما لا تشتهي سُفني، فقد رأيت في مَنام عجيب أن «شِكيب عبد الصَّمد» ناكِح الموتى، يَخلع لباسه المتَّسخ ويَمرُشه بيديه في مياه النيل، فتطفو الأسماك البلطي ميتة، ومن حولها أوراق الجَرجير، فقمت فزعًا، ضَربني القلق، وأخذت دِماغي في العويل، شِكيب في المنام؛ فأل سَيئ عِند أغلب مُفسّري الأحلام، ولِباسه في الحلم فجيعة، رزيئة، مِحنة ونكبة!

أيقظت «شِكيب»، وسَألته على حين غرة وأنا أراقب بؤبؤ عَينيه المعمَّص: «هل ستُحارب مَعي إلى يوم الدين يا شِكيب؟»، مسح رِيالته وأجابني: «أُحارب التتار مَعك يا مُعلمي كَما حَارب «قِريستوف قولومبو» اليهود الحُمر في الأمريكا»، فأدركت أننا مُقبلون على مُصيبة سودا، وتأكد معنى الحِلم بعدها بيومين فقط، حين طفحت رِيح الطاعون في الشوارع والحَارات بشكل غير مَسبوق، واستفحلت الكُبب في مُعظم الأجسَاد، وندُر مَن يَشتكي ولا يَموت، حتى بَات المِيراث ينتقل في الجُمعة الواحدة ثلاث مرات، وعنها، واتجنّ دوقتور الصحة المَمحون، قال إيه: «امنعوا السير، نهار وليل، وكُبُّوا الجير الحَي على الجثامين في المقابر، واعصروا في مناخير الأحياء مِنكم خَل ولمون ونشادر، واشتروا النشوق الصَّايص اللي مَا ينباع إلا في الأجزخانات الخُصوصي وهو في الأصل نشادر»، احتيال وغش، قوام تحضيره قُرنفل على شوية سنامكي ونوى مشمش وبلا أزرق على دماغه، وهُوب، راح كَمان مفرقع في الخَلق فَرمان، انكتب في الجرانيل بخط عُثمانلي عَريض صَفحة نِمرة وَاحد تحت الشعار: «بِداية مِن اليوم، اللي يِداري على مَريض جُدري جُذام أو طَاعون،

يُجازى بالإعدام الفوري دون قبول طُعون».

وكَان على المَسيح أن يَقف وقفة، ويُعلن العِصيان من قلبه دُون رجفة، على الجَهل والغَباوة المستوردة من بلاد المقرونة الإزباجت النِّجسة إيطاليا، دُوقتور الصحة الهُمام اللي مَالي الأرض كَلام تافه وسُخام، ماله؟ كَان تِلميذًا خَائبًا للمُدعي الغشَّاش «كلوت بيه»(84) اللي ربِّنا قبض رُوحه في «مَارسيليا» آخر أجوستو اللي فات، نار وسَخمطة على سيرته إن شاء الله، جَزاء الدَّجل والشعوذة التي صَبها سِنين في ودن سَاكن الجِنان «محمَّد علي باشا»، أكل بعقله وعقل كل رِجالة القلعة حَلاوة شعر، وآنَ الأوان أن يظهر الحَق، على يَد المَسيح المصري، دُوقتور السَّما الوَحيد والأصلي، وعنها وكَان؛ أول فَرمان، بعد النجاح والتوفيق في إثبات بُطلان تنقُّل عَدوى الطَّاعون عَبر ألبسة الخلق، باستخدام الحَواريّ الوَحيد اللي عَ الحِجر «شِكيب عبد الصَّمد»، اللي صَار من بعد ارتدائه لقميص المَطعون مِتصان ومَحفوظ من كل الظنون؛ هُو أن أتوكَّل على الله، وأفتتح مُستوصفًا(85) خُصوصيًا في السِّر، مَقرُّه أودتي المتواضعة بوكالة «السَّعيدية» شياخة دَرب الجماميز بالدور الأرضي يِمين.

وكَان أول ما فَعلت؛ رَسمت صَليب مُكن عَ الباب، ونقشت مِن حَوله دَائرة، مكتوب فيها بالخط الكوفي «وِرد الحِصن» للإمام الرفاعي رَحِمه الله: «بديموم أبديتك مِن كُل شَيطان استعذت، وبمكنون سِر سِرَّك مِن كُل هَم وغم تخلَّصت، يا حَامل العرش عن حَمَلة العرش، يا شديد البطش، يا حَابس الوحش»، وأضفت إليه كلمات تُتِم الحِكمة، وتُكمل الدائرة التي رسمتها، وكانت أكبر مِن وِرد الحِصن

بستة عشر سنطي، كتبت: «هب المَسيح الإذن كي يَضَع القاتل في النعش، ولتصير أودتي مَوطن الحِج الجديد، يطوف الناس فيها حَول العفش».

بَعدها، صَنَّعت مقصًا كَبيرًا من خَشب الزّان عند أُسطى «عَبده النجار» بالميدان، طوله متر وأربعين سنطي، رششته بالمَاء المقري عليه من فمي بعد أن فرّشت الأسنان، وأمرت «شِكيب» من بعد تناول خبز الحنطة، أن يَحمِله عَلى كتفه السمين ويَخطف رِجله حتى الناصية التي تَطل عَلى قناطِر السِّباع، ليقف هُناك في ملقف، ويقُص الهواء، مِن بَعد العشاء وحتى أذان الفجر، ليُشتت ويفتت رِيح الطاعون التي تتسرب من المَجارير لتجوب الأحياء وتتسلل إلى أنوف العامة لتُصيبهم بالكُبَّة، أجْر وثَواب، وأهو بالمرة، يُروِّج للمُستوصف الشُليماني بلافتة خَشبية مُعلَّقة على ظهره، عليها العنوان، ويُنادي بِلِسَان تَشتريه الآذان، فيُسمع المُصلين البَررة والنِّسوان؛ الخَبر السَّار، عَن توفر التطعيم الأصلي غَير المجّان، عِند العَبد لله في المُستوصف، ويُحذِّر مِن فَساد التطعيمات التي تُباع في دَكاكين الحلاقة عَ الفاضي والمليان، ولشِكيب أن يتسلَّم على كُل رأس يَأتي بها، أُجرة ملِّيم، أحفظها له في خزانتي مِن شر النشَّالين.

أمَّا تركيبة التطعيم المُكن الذي لم يطّلع على سِرّه حَلاق صِحّة ولم يَعلم به مَارد القمقم بجَلالة قدره، فقد كَان؛ إرثي ونَصيبي مِن جُملة هَدايا السَّماء للمَسيح المِصري المُعتبر، مُتمثلًا في القُدرة على وِقاية الأصحاء مِن المرض، وَحْي، أنزله المولى على العبد لله في مَنام طَاهر، طِرت فيه على ظهر شِكيب عبد الصّمد، إلى بَيت لَحم،

مَسقط رأسي الذي لم أطأ من قبل، صَليت الفجر تحت قبّة الصَّخرة بالقُدس، وهُناك، تلقيت التكليف ببطلان الوضوء، لتأثير المياه القاتل على أعضاء الجسم والجلود، وكذا أخذت المُباركة والإذن في تغيير اتجاه القبلة، من القدس إلى أودتي المتواضعة، وبات لي حق دعوة الناس إلى الحج فيها لمَن استطاع إليها سبيلًا، بقرشين صاغ للراس، وممنوع الشكك(86) يا سادة، وكذلك؛ تعلّمت من سَيِّدة عَجوز عَمياء وخَرساء، عُمرها ييجي مئة عَام، فَن «اللحّاسة»، عَلى يَديها المكرمشتين؛ مَارست فتح جِفن مَريض الإنسان، بالسبابة والإبهام، ومَد طَرف اللسان ببعض اللعاب، داخل العين اليسرى التي يدخل مِنها الطاعون والجَان، أُمرره في دَائرة، وأنا أردّد آية الكرسي في رأسي، عَكس عَقارب السَّاعة، فوق البؤبؤ، ألحسُه في سَبع لفّات، حتى ألتقط ما فيه من شَوائب وسَخمَطة وهباب حِلل بايت، فأبصُقها في فم المَريض العليل، ويشرب من بعده بعض الحلفا بَر والزنجبيل، ثم أردد في أذنه آيات من القرآن والإنجيل، رقية من المرض، وتصبيرة للنفس على مُصَابِها من عَرَض.

وزِيادة في التحصُّن مِن الحِقد والحَسد، والنفوس التي تحمل البغضاء، والتي بُلينا بها من ساعة ما دخل علينا جنس الطليان بالمقرونة الإزباجت، ارتأيت أن أكتب شَكوى ونصيحة مُزيلة بتوقيع لقيط مَجهول النَّسب، إلى صَاحِب الصَّدَارة العُظمى الخِديوي إسماعين ذي الأير المتين، ثواب من أجل أهالي المَحروسة، والله المُعين:

«بَلاغ لا يَحتمِل الانتظار، وتحذِير وَاجِب لا يستجيب له إلا كريم

جبّار، مُقدَّم ضِد ريِّس البوليس الإيطالياني سِنيور «كارليسمو»، والذي كَشَف لي وَحي الملكوت العَاجِل دُون تِلغراف أو حَمام زاجل؛ أنَّه ضَليع في دَسيسة خفيَّة، صِيغت بنودها الدنيئة بَين بلاده وبقية الدُّول الأروباوية، تَحت مُسمَّى «مُؤامرة المقرونة الكُبرى»، وتنص بنودها الغامضة على تفريغ أرض المَحرُوسة مِن السكان، بنَشر وتسريب ريح الطَّاعون بَين الأبدان، تَمهيدًا لقدوم الجيوش الجرارة للإطاحة بحُكم «فخامِتلو» دُون مُقاومة تُذكر. كَما اتفق المتآمرون مع وِلية سَاحرة غبيَّة، تقف في مينا «نابولي» كُل يُوم الصُّبحية، تُعزِّم عَزيمة سُفلية نجسة بلسان لاتيني زِفر؛ على كُل شوال مقرونة إزباجت يتم شحنه إلى المَحروسة، لتُصيب كُل من أكلَ بضربة شمس وكلَف، حتى وإن أكلها الضحية في الظِّل، وبتوالي سُقوط أجساد الخلق على الأرض جَرَّاء المَرض؛ يحدُث زِلزال كَبير مُعتبَر، يُصِيب المَحروسة نِهاية ديصَمبِر إن شاء الله بدون مقاطعة، وسَيكون مَركزه الأرض الواقعة أسفل قَصركم المنيف قيد التشييد(87) بين الإزبكية والسيدة زينب، بَعدما رَدمت يا «فخامتلو» بِرك الفراعين والسَّقايين والفواكه والناصرية، وكَعت التعويضات المُجزية لتهجير أصحاب البيوت مِن سَنة ٦٣ مِيلادية.

إني أُهيب بالعزّة الخديوية المَجيدة ذَات الثغر البسَّام، وبَصيرة الصَّقر التي تميط السَّتر عن غدر اللئام، سُرعة الاستجابة لإنذار العبد لله، وترحيل ريس البوليس الإيطالياني من فوره إلى بلد المقرونة التي جَاء مِنها، بعد قطع رأسه، والإسراع في تولِية مَن هُو أحق بالمَنصب مُنذ عَهد «سُليمان» الحَكيم، و«سَيُوفِي» اللهُ بوعده ولو

كرِه الكَافرون.

كَما أدعو «فخامتلو» كذلك إلى النَّظر بعين التوجُّس والحيطة، والتدبر والاحتراس، قبل أن تقع الفأس في الراس، إلى شَأن مُصوراتي چرماني، يَقطن بشَارع المُوسكي منذ سبع سنوات، ويُدعى «وِيلهم هَامرشِميديت»(88)، فلم تبلغ سُمعته عنان السماء؛ إلا بالبدعة والضلالة، والاحتيال المُكن الفينو على عَقل حُرمات المَحروسة، بمعسول الكَلام المشوي المخلوط بلغته المَمحونة: «ڤيلكومِن مَدام» بَدلًا من: «السلامو عليكو»... «الجَو، هَار، سُوخن، كتير، إس إست كاستنلوس بيتا أوستين»، ومَعناها باللغة الچرمانية الخبيثة: «اخلعي ملابسك يا سِت الهانم فالجو حَار»، ابن الأبالسة نجح في إقناع ناقصات العقل والدين بالتصوير عَرايا، مُتبعًا ومُقلدًا فنون «الشونجا» اليابانية الشهوانية والعياذ بالله.

وآخر أفاعيله الشيطانية التي أتى بها دُون استحياء، كَان؛ تتبع قافلة الحج المتوجهة إلى الحِجاز، بالكَاميرا الخَشبية وألواح الإزاز، حيث رَسم عِدَّة تصاوير مُريبة للحُجاج وهُم فوق الجِمال التي توضأت في النيل، بحجّة نقل ذلك الحَدث بالفوتوغراف الشمسي لِصَالح الجرانيل الأروباوية، مِما أثار حَفيظة جُملة المُسلمين من أهالي الإزبكية، فكَسَروا على دماغه كَاميرته الخَشبية، لأن البيه مسيحي؛ ومَا أدرانا بالنية! هل أتى زمان يَعترض فِيه فرد من أهل الكتاب طَريق الحُجَّاج هكذا بكل حُرية؟ هَل سننتظر أن يتجرأ ذلك النصراني ويَطلب يَومًا أن يدخل إلى حريم المسلمين فيرسم المَصُونات وهن يتقصَّعن في المَشربية؟ لقد نَما إلى عِلم العبد لله

دُون بُهتان أو فريَّة، أنَّ ذلك المَدعُو «ويلهم هَامرشِميديت» جَاسُوس بَصَّاص لصَالح الأمة الچِرمانية، بوَعز مِن «أوتو فون بِسمارك(89)» ذات نفسه، ليُبشر في المَحروُسة بالفكرة الفِيدرالية، فيَضم أراضينا تَحت لِوائه بدلًا من السلطنة العثمانية؛ وتِطلع حَظرتكم مِن المُولد بِلا حُمُّص أو طَعمية، وأُذكّر نفسي وحَظرتكم البهية، بكَلمات جِد المَحروسة الحَكيم، سَاكِن الجِنان المتبصِّر أبو دماغ ألماظية: «مُحمَّد علي باشا» حِين اتخذ صُورة بالفوتوغراف «الداچيروتايب»(90) العَتيق على يَد «فردريك جوبيل فيسكه» و«هُوراس فيرنيه» في نوفمبر سَابعة سنة ١٨٣٩، وقال يومها: «ذلك الفوتوغراف مِن فِعل الشيطان»، أتعرف السَّبب؟ لأنهما مَسيحيّان مِن أُمم الفرنساوية، ولو كَان مُصوِّراتي الباشا مِصري أصيل، نحيل وله لحية لا يغسلها إلا في النيل، ومِن حَي شعبي قريب، مِثل السَّيدة زينب على سبيل التسهيل، لقال الباشا الكبير في التصوير الشمسي قولة حَميدة، وعمَّمه في كُل أركَان المحروسة، بَدل ما القرع ما هو عمَّال يمِد لبرَّه، ولوجراي(91) الفرنساوي وما لوجريهش، مفيش شيء بيخفى في المحروسة، وبراحتك يا أبو السباع، خليك فاكر بس إن «اللي يِنقَّع جِنس الخَواجات والفرنساوية، الشيطان يِطرطر لُه في الملوخيَّة».

والسلام على كُل مَن اتبع خُطوات الحكيم «سُليمان» بغير فِصال أو سُخام.

إمضا

ابن البلد الغَيور

مُنجِّي الأرانب من هجمات الصقور

نذير السَّماء مِن هَجَمَات الصَليبيين عَلى أهل القُصور

مِن أأنق عشرة رِجال في دكرنس ودمنهور

قِنا يا رب شَر الجواسيس من الحشرات والطيور

حمار اللي ما يقولش آمين.

أمَّا بعد،

ببَركة الوَحي السَّماوي المَخصُوص، بِشارة الصَّليب المَرسُوم عَلى بَاب الأودة بالزعفران الطاهر، حِرصي الحثيث يُوماتي عَلى تقبيل حَديد ضَريح السيدة زينب عَمَّال على بَطَّال في الرَّوحَة والجايَّة، ومواظبتي على احتساء قَرعة البُوظة مع سِنة الأفيون في كل ليلة، تلك التعميرة المُكن التي تفوح برائحة الحكمة، استنتج العبد لله أن بعض الروابط المُلتبسة الملخبطة الخفية، مَدسوسة ما بين التصويرات الفوتوغرافية والمُعاينات، والتي لَم ولَن أُصرِّح بكُنهها للخَائن المُخادع «بِيلاطس البنطي» الذي يدّعي أنه ريِّس البُوليس «كارليسمو» رغم أنه طري بتلو، فهو أخ للمسيخ الدجَّال بِلا جِدال، لشَك في نَفسي تخطّى حُدود اليقين، في تورط ذلك الإيطالياني المَقيت وتستره الأكيد عَلى وَحش عَنيد يَجوب أحياء المَحروسة والصعيد، حَاملًا في يَديه النار والحديد، متسربلًا في قميص الطاعون، يَصيد في الخَلق صيد، ويَضع على رءوس ضَحاياه رَغّابة فضية مُخيفة، ليشغِل أذهان الهوام، ويُروِّع الأمراء في قُصورهم، والغلابة في الخيام، فيلتهون عَن خيوط المؤامرة الكبرى، مُستغلًّا

الصَّيت والحُضور الطَّاغي للعبد لله في جنبات المحروسة، يريد أن يجعل مني خَيال مآتة، ليَكتمل المَلعوب، فتصدُق روايته بكل سلاسة في القلوب، قبل أن يَدفعني دفعًا للفَشَل والسقوط، فيَكون بذلك قد ضَرب عَصفورين بحَجَر، مِنها؛ أنه أكَّد وُجود قاتل خطير في الجوار، وفي نفس الوقت؛ تَخلَّص من غَريم لَدود مثل سليمان السيوفي، فيلجأ إليه كُبراء القصور أذلّاء صَاغرين، دُون دليل مُبين، وتقع المَحروسة بعد الخديوي إسماعين وبعدي في حِيص وبِيص، فريسَة الاتِّكال والتَّعويل الكَامل على سَليل الطليان الفاشل، حتى إذا قرر في يوم تسليم كبش فداء مزعوم إلى القَضاء، مقطوع الأير واللسان، نَال كُل المَجد والأُبهة، فقد عمل من الجِلَّة؛ كَراميلا في أعين الناس، وسيغدق عليه الخديوي الغشيم بالأموال الطائلة، ويعِده البقاء في مَنصِبه حتى الحياة الآخرة، حَامي حِمى القاهرة، ويغنِّي لُه «عَبده الحَامولي» أغنية مُداهنة وتملُّق، بنغمة مستكوفي، في قلوب الناس تعلق، وسَأكون أنا بالطبع ضَحيته التالية، عَلى الصليب سيضعني، ويُفرق الطعمية والشربات على شَرفي.

لكن هيهات هيهات، فالحِكمة النبوية عزمت على أن تنتشلني مِن غَياهب اليأس، ومَكيدة التسرُّع والكلفتة، وذَكرتني؛ أن كُل شيء دَواه الصَّبر، إلا قلة الصَّبر؛ مالهاش دوا، لِتكمُن يَا سُولوم حتى تتمكَّن، وستكون بإذن الرب أداة الحرب، والسَّبب الأصلي في كَشف مَكيدة «بيلاطس البنطي» أمام عين الخِديوي الأحول الله يجازيه، فخامتلو، سفيهتلو، عبيطتلو، بَلانا بالطلياني في ليلة كَان فيها مُونِون مَع دَستة جَواري، وسَيُسجَّل اسمي في كُتب التاريخ

والجرانيل: «سُليمان أفندي السيوفي» المسيح المستكوفي، الباعث والحافز الأصلي لتَرحيل بني الإيطاليان الخونة من أرض النيل إلى أروبا، عبر مَضيق الدردنيل، وعلامة النهاية لسَيطرتهم على الباشوات من سُكّان الإزبكية وبِركة الفيل، أصل مِش كُروديات إحنا لا مؤاخذة ولا مُصابين من زُغرِنا بعِرق النِّسا، ولو العَمائم ذات نفسها اشتكت الفِسا؛ إيش هيكون حَال الألبسة؟ سأبذل كل الوقت للتدبُّر والتفكير، في البَحث المُضني، دُون كَلل أو مَلل، عَن قاتل حَبيبة العُمر «زهرة»، وعِملاق السيرك المحشوة بطنه بالقزم المثير، وكُلي ثقة في الله، أن ذلك الخَيط الأخير سيَقودني يَومًا لإثبات تورُّط رَيِّس البوليس الإيطالياني في المسألة، وسأُدوّن هنا ما لاحظت من القرائن والبراهين المُذهلة، حتى إذا صُلبت على غفلة، ولّا رجعوني حبس الديميرخانة فجأة، ينشر الحَواريّ الوحيد ودِيك البرابر نَاكح المَوتى الفريد، وقَاهِر الطَّاعُون الدبلي العنيد في الدِّلتا وجميع أنحاء الصَّعيد «شِكيب عبد الصَّمد» أوراقي، ليسود السلام بين الناس في رُبوع الأرض، وتُوضع تماثيلي فوق شوفنيرة كُل بيت.

أولًا؛ أسجِّل هُنا استغرابي لتِكرار استهداف القاتل لمَخلوقين من ذوي الخلق الاستثنائي المتفرِّد، عِملاق سِيرك شعبي يعيش في بطنه قزم طفيلي، وأُم جَلال، الحُرمة الوحيدة التي تمتلك ذَيلًا بين أفراد قبيلتها وتلد من الفم، مُصَادفة سَتصير يَقينًا مع قتلة ثالثة بنفس الشرط والكيفية، ولا أستبعد حدوث ذلك في الأيام المقبلة، وإن كَان الأرجَح أن القاتل ومِن وَرائه المَدعو «كارليسمو»، أرادا اختيار الضحايا من مُميزي الخلقة؛ كَي يَضمنا رَواج الخبر في أفواه الناس

وعبر صَفحات الجرانيل، وحُصول الدهشة والرعب، وكذلك إصراره المُريب على دفن «زهرة»، ومُصادرة جسد العملاق وقزمه، تسرُّع مُريب. ثانيًا، بَتر الكَف والأذن بَعد حُدوث المَوت بساعات، هل هي رَغبة من القاتل في الاحتفاظ بغنائم مِن أجساد الضحايا؟ أم أن البتر حدث لإحصاء عَدد من القتلى سيتزايد مع الأيام؟ أو ربما لإثبات حُدوث القتل بتقديم أمارة إلى طالب القتل؟ ذلك يَعني أن القائمة قد تكون طَويلة مُمتدة، والاستهداف فيها؛ كُل مَن كَان له نَصيب من العجب في الخلق.

كَيف غَاب عَن سُليمان السيوفي حتى الآن أسبَاب المَوت وعَلامات إزهاق الروح في الميتان؟ هَل فقدت الإمكانية والتجلي يا سليمان؟ أم أن مقتل «زهرة» أصَاب العقل بَعد السجن بالعَطب والخلل والذُّهان؟ ثَالثًا، فَكّا الضَحيتين يَحمِلان أثر كَدمة لا تخطئها العين، بين اللثة والأسنان، في نَفسِ الزاوية تقريبًا، قُرب اللسان، ذلك التكرار يدُل على مُعالجة ضَرورية تمَّت قَبل وَضع قِناع الفِضة فوق الرأس، ورُبّما كَانت تِلك وَسيلة إزهاق الرُّوح، أو وسيلة تَعذيب لم أصِل إلى فهمها حتى الآن لغياب أداة القتل. رَابع مَا استوقف المَسيح الحيّ ذا المِنن، كَان الحَرق المُثلث في الظهر، خَتم القَاتل مِن بَعد المَوت، إمضَاءٌ أراد له أن يُقرأ، مِن شَخص قوي اللحظ والمراقبة مثل العبد لله، وإلا، لاختار الدَّفن والستر بَدلًا من الشَّهر والتنكيل، وأضيف إلى ذلك، تأكُّدي التام مِن بنيته العَضليّة القوية، بَعد حَمل عملاق وتعليقه في حَبل غليظ، قبل إدلاء الجسد في الهواء، جَبروت لا يُستهان به.

خامسًا، وبالبحث في رفوف مكتبة عتيقة بالجوار، عَن حالة تشبه «الوهم والقزم»، عَثرت على تفسير يَشفِي الفضول ويُبدد العَجب مِن شذوذ الخلقة. في مَخطوط مُهترئ، ليس له تاريخ صُدور، يَحمل عنوان «عَهد الآلهة»، الفصل السابع، ذِكر لقول «هوميروس»(92) في ملحمتهِ الشعريةِ «الإلياذة»، وَصَفَ فيه كَائنًا أسطوريًا يُدعى «كِمِّير»(93)، لفظة يونانية تَعني «أنثى الماعز»، وتشير إلى كائن أسطوري مُركّب من رأس أسد، جَسد ماعز، وذيل ثعبان كبير.

ولمَّا نبشت في المخطوطات مِترين أعمق، عَلِمت أن لتلك الأسطورة جُذورًا في أرض الحقيقة، فقد يُخلق في بطن الأم توأمان، يَأكلان مَعًا ويَشربان، عِشرة عُمر قصيرة تمتد لشهور، قبل أن يدِب الخلاف بينهما على الميراث أو قطعة فِطير، فيهضم أحدهما الآخر، افتراس، دُون إرادة المفترس، ليتلاشى الأخ بداخل جَسد أخيه، يَمتزج، يَندمج، يَنصهِر، حُضن أبدي لا يَنفصل، ليصمت المَهضُوم المُتلاشي إلى الأبد، أو ربما تبقى له السَّطوة والقرار، رأس يتحدث من الداخل في نفوذ وبأس، يُملي الأفكار، يتسامر مع أخيه أحيانًا، يلعبون الطاولة على المشاريب، وقد يُصيبه بالجنون والسُّعار، وفي أغلب الحالات، قد يَعيش الإنسان ويموت دُون أن يُدرك وجود توأم يعيش بِداخله، ولم تكُن تلك هي آخر المفاجآت، فكلمة «كِمِّير»، تُستخدم للدلالة على السَّراب، حِلم، لا سبيل لتحقيقه، تدل على «الوهم».

سَادسًا، وبعد مُطالعة الصورة الجماعية التي التقطها من فوق السَّاقية، وباستخدام نظارتي المستكوفي ذات العدسة المكبرة،

لم ألحظ في وُجوه الفضوليين سوى الدهشة والعجب، اطمئنان مَخلوط بالخوف، والسبب؛ أن السُّذج باقون على قيد الحياة ليوم جديد، وفي نفس الوقت، هُم تحت رحمة الطاعون الدبلي الأسود، وقاتل طليق عنيد، ينتقي ضحاياه ويسلبهم الحياة بشكل فريد. لم يَستوقفني في الزحام غَير حُرمة، تقف في الطرف الأيسر للصورة وَسَط الناس، رافعة ذراعيها لأعلى، تُشير إلى جَسد العِملاق المُعلق من الرقبة، وبكفيها المرفوعتين، تصنع مُثلثًا، إبهام يتحدى إبهامًا، وسبّابة تستند على كتف سبّابة، ولم يُفلح تكبير صورتها لبُعد المسافة بين العدسة وبينها في استخراج تفاصيل أشمل، لكن الملامح شرقية: عينان يُحاصرهما كُحل كَثيف، وخُصلة شَعر بَيضاء تخرُج من الرأس لتندمج في ضفيرة طويلة تنساب على الكتف، ولم ينتَبْني الشك للحظة في أنني سألتقي بها يَومًا.

كَم أشعُر بالعَجزِ أمَام أجسَاد الموتى التي تضِن بالأسرار، خَرسَاء مُجبَرة، والأعين مُتحجِّرة، خشية قَاتل عَتيد لَه سَيطرة، يُراقبني في كُل مَوضع أخطوه بالقاهرة، لئيم، شَامِت في تخبُّطي أنا المَكلوم الحزين على غِياب العِشق عن حياتي، بعد شُهور طويلة قَضيتُها مُعذّبًا في سِجن بهيم، سُحقت فيه كرامتي، وذابت حَشوةُ رأسي وتطايرت شَهوتي كما السبرتو، فانطفأت شَمعة البَحث والتقصِّي، وعَلا الصدأ هامتي ورأسي، وكُلّما اختليت بنفسي؛ تَذكَّرت زَمنًا كُنت فيه عَريس، لي أير لا يعرف يوم الاثنين مِن الخَميس، قال فيه الشاعر(94) يومًا: «إنّ لي أيرًا خبيثًا، لستُ أدري ما عقابُه، كلّما أبصر وجهًا حَسنًا، سالَ لُعابُه»، ليصير أيري بقُدرة قادر؛ عُضو جَبان

خَامل، مَهزوم مُرتخي مُضطرب تعيس، لا يملأ مِنه السَّبعةُ كِيس.

ولَما كَان مِن شِيمة «سُليمان» الصَّبر عَلى مَكَارِه الإنسان والحيوان، بقلب أنهَكه الغَم حتى صَار كَحْيان عَدْمان، فأتقن فن الزُّهد في جَلسات السَّمر مَع الرُّهبان، أمرت نفسي بنبذ آيات الرفاهية والزوغان، حتى باتت الدُّنيا الغَرورة تأتيني مقهورة حَافية، على رُكبتيها مَاشية، صَاغرة ذليلة، تخبط بابي وأعمل نفسي مع الملايكة باكُل بِليلة، وأقول لها اجْرِي يا بِت؛ بَلا لِعب عيال، دَه حَال نبي المارستان الذي اعترف بنبوّته نسمة واحدة من الرجال والنسوان؛ صار ينكتب فيه مَوَّال، والحزن في قلبه بات يِملا ييجي مِيت شُوال.



---

(82) سوق الاثنين: سوق أسبوعي شعبي يُعقد في أكثر من مُحافظة، يوم الاثنين من كل أسبوع، ومع الوقت تحول إلى سوق دائم لكل أيام الأسبوع. يقع السوق الذي يقصده سليمان السيوفي الآن في منتصف شارع مجلس الشعب بالسيدة زينب.

(83) الصُّور: البوق.

(84) أنطوان براثيليمي كلوت، المعروف باسم «كلوت بك»: طبيب فرنسي عهد إليه محمّد علي باشا بتنظيم الإدارة الصحية للجيش المصري، وصار رئيس أطباء الجيش. ساهم كلوت بك في تأسيس «مدرسة الطب» بأبي زعبل عام ١٨٢٧، وكانت أول مدرسة طبية حديثة في الدول العربية.

(85) المُستوصف: مُستشفى خاصّ محدود.

(86) الشُّكك: التقسيط.

(87) يقصد سليمان السيوفي هُنا قصر عابدين الذي تم البدء في تأسيسه سنة ١٨٦٣م، وتم افتتاحه رسميًا سنة ١٨٧٤م.

(88) وِيلهم هَامرشِميديت: مُصوّر محترف، استقر في القاهرة حوالي عام ١٨٦٠، وهناك أسس متجر «هامرشميت» لبيع مواد التصوير الفوتوغرافي.

(89) شغل منصب المستشار الأول للإمبراطورية الألمانية حتى عام ١٨٩٠، تعاونَ مع الملك فيلهلم الأول ملك بروسيا لتوحيد الولايات الألمانية المختلفة في هيئة فيدرالية.

(90) الداجيروتايب: من أقدم تقنيات التصوير، وتقوم على تعريض صَفيحة نُحاسية رفيعة مَطلية بالفضة لبخار اليود، فتنتج طبقة من يوديد الفضة الحساسة للضوء على السطح، ومع تعريضها للشخص أو المكان المُراد تصويره، تتأثر الأملاح بالضوء وتبدأ الملامح والتفاصيل في الظهور.

(91) لوجراي: اسم المُصوّر الخاص بالخديوي إسماعيل.

(92) هوميروس: شاعرٌ ملحميّ إغريقي، مؤلف الملحمتين الإغريقيتين «الإلياذة والأوديسة».

(93) كِمِّير (كايميرا أو خَيْمَر): مخلوق في الأساطير الإغريقية، روَّع إقليمَي «كاريا وليقيا» بآسيا الصغرى، وقضى عليه البطل الكورنثي «بلِّيروفون».

(94) أبيات شعر لأبي نواس؛ شاعر من شعراء العصر العباسي.

سِفر الغجر/ إصحاح نِمرة ٨٤

مِن بعد استخارة، وحَرق واحد وستين سِيجارة، ودُون مُعافرة أو عِناد، قررت أن أستحضر المزاج الذي عطّله الحِداد، فحكيم الصحة لا يُسمى حَكيمًا؛ حتى يَسِنّ مشرطه كل أسبوع في حَجر مُبللًا بالزيت، ويعلم في قرارة نفسه عِلم اليقين، أن جَسدًا واحدًا للتمرن على التشريح، لا يَكفي اكتمال العلام، وكَما قال الشَّاعر «عُمر الخيام(95) » يومًا في رباعياته المُكن:

أَوْلَى بهذا القلبِ أن يخفِق

وفي ضِرامِ الحُبِّ أن يُحرَق

ما أضيَعَ اليومَ الذي مَرَّ بي

مِن غيرِ أن أهوى وأن أعشق

يَا سُليمان، يا ابن نَواعم المَارقة

آنَ للحُزن أن يُفارق

اشطف أيرَك بالحلبة يا سعادة البيه

وسيأتيك نَبأ أميرة الأفارقة

مِن أشعار «عُمر الخيام»

(عَدا البيتين الأخيرين، مِن تجليات العبد لله)

وكَان مِن أمري أن دَعوت الحُرمة «بَختة» الغَجَرية عَلى أكلة سَمَك

مقلية، وِصاية مِن «شَمعُون» صَاحبي وعِشرة العُمر، أشهر قلاء سَمَك في الحِلمية. الغَازية أصلِيَّة، مِن بنات قَبائل «النَّوَر»(96) القاطِنين بحُوش الغَجَر خَلف سُور مَجرى العُيون. تعارفنا في ظُلمة بُوظة «كتِّي» مُنذ أيام، جَلَسَت بِجانبي، ففاح عَبق الغليون المشبع بزيت التربنتين المُهيج مِن بين الخُصلات الكَثيفة، هَمهمت بلغة مَنسية خرجت مِن بَين شفتين كَسولتين، بحّة آسِرة مُنهَكة فيها بخر ممتزج، تنباك على لبان، وهَسهَسة سَلاسِل أحاطت رقبة عريضة مخروطة، وخُلخال، وَسوَسَت ألعابه في أذني بصوت ألف شيطان، فأزحت أيري الذي يحجُب الرؤية، ومِلت على كتفها، استنشقت العَبير، وقبل أن أرمي البُق المُعتاد في تلك المواقف الساخنة: «الكيف مِناقلة(97) ... تِحبِّي نروح مَكان ضَلمة أكتر؟»، قالت: «تعالى أقرا لك الفِنجان... يا سليمان»، فانتفض جَسدي: «يا منجّي من المَهَالك!».

أشعلت بيننا شمعة هزيلة، رأيت على إثرها سِنة من القواطِع الأمامية تنخرها سوسة، وبقايا جُدري؛ ترك في الوجه كَام حفرة زُغيِّرة. لمَّا صبّت القهوة السَّادة في الفِنجان، وقَرأت بختي بعين كَحيلة، أُختها مُغطاة بعِصابة سودا كَما القُرصان، قالت بالحَرف الواحِد، دُون زِيادة أو نُقصان، اكمنها غَامضة مُبهمة قليلة الكلام: «أول مرَّة أشوف وَلي حُرمجي بِتاع نِسوان!»، ولمَّا دَققت النَّظر في جِدار الفنجان الداخلي، جَحَظت عَينها، ثم أشارت على خطوط رَسْم مَكتوب فيها بالخط الهمايوني وبالضمَّة والفتحة «سُليمان»، ثم قَالت من بعد صَمت مُريب: «العفو يا كَبير المَقام، يا جَامِع الدبّان، لا تقلق عَلى مُستقبلك؛ فَلا مُستقبل لَك بَعد الآن، بَل المَاضي الماضي، فِيه

السر والمُفتاح والبيان، سيأتيك ذُو القرنين بأمر يُبدل حياتك؛ فلا يُلهِيك عَنه سَهو أو نِسيان».

ولأن بَنات الغَجر زَيّ الإبر؛ تِكسِي النّاس بالقماش وهيّ عِريانة، نَفَخت الغلبانة قِرشين صَاغ، أُجرة الديباجة المُبهمة والنصيحة الملخفنة، ولَم أشأ البَوح لها بمكَانتي في المَلكوت، والتباهي قُصَادها بمُعجزة تحويل الرُّقاق إلى وَرق بنكنوت، كفاية البلاوي اللي أنا عَاملها فوق، حتى لا تخشَع بَين مَساطيل البُوظة فجأة، ولّا تشق هدومها ويِجِي لها في القلب سَكتة. بَعد نَظرة فاحِصَة على ضوء الشَّمعة، تفحصت عُود بِتلو مستوي، زُموش بَطّة مِسكوفي(98) ملونة، حواجب غليظة منكوشة تحتاج مقص حلاقين، لكن حِلوين، وجُوز رِجلين ملفوفين بينهم ثمرة تين برشومي، ووَردة حَمرا مَزنوقة في الطريق الأملَس الغطسان بِين صدرها الحرَّان، قُلت لها: «عَلى فِكرة؛ الأودة عندي فِيها سَمَك وبِيرة وفصين رُمّان»، تبسَّمت بسِنّة فضّية لمعت في ضوء الشمعة، شدَّت الدخان مِن غليونها الخشب العَدمان، وقالت بشفايف مربربة تحتها وَشم مَمسوح من كتر البوس: «بكُل مَمنونية يا نحنوح». وعَنها، دهنت أيري بالتوليفة السليمانية في الخفا، وانسلتّ بصُحبة السنيورة مِ البوظة، كَرِينا بغلة، وطلعنا على الأودة في الدَّفا، نَفَحت «شِكيب» نقدية، مِ اللّي لِيه عَليّا، وطَلبت مِنه يِخطف رِجله للسوق، يِجيب لنا بِيضة نَعامة دكر، حَليب نَاقة بسبع رِجلين، وواحد وعشرين رطل برقوق.

لمَّا جَلست الغَجرية عَ الشَّلتة الطَّرية، وبعد دس سِنّة الأفيون المُكن تحت اللسان وفِنجان قهوة مَغلية، استمخّت، واتسلطنت،

وعُيونها من الهم اللي راكبها رغرغت ودمّعت، وهُوب، رَاحِت قايمة في الأودة متمشّية، سَحَبِت مِشط خَشَب من راسها فادّلق شَعر خِيل اسود مموّج، تخطّت أطرافه إسْتها بشبر ونص، رَفَعِت للسَّقف يدًا تستغيث بالرب، وسندت بالثانية عظمة الخصر، ثم هَمست بكلمات مُبهمة، تستأذن الفراغ، وبدأت في التمايل، صَنَعَت بالأصابع المربربة مَوجة غير مفهومة، ثم رقصت «فلامنجو» حَزايني، بملامح غاضبة عنيدة، ودَبّت عَ الأرض بكُعوب مترَّبة، دبّة بيضاء تقفز فوق صَفيح سَاخن، متلسوعة بالشهوة والمرارة معًا، نزّ العرق، واحمرت الخدود، ثم غنّت أُغنية اللي فَاكرُه منها يقول: «يا اللي اشتريت بالدهب، خُلخال لبنت الغجر، هتعيش بتلحس عَسل، ما تنزُّه بِنت الحَضَر، ده الشاطرة فيهم خايبة، ما يِحلى لها نتف الشِّعرة، إلا أما ينده دَكَر»، رَددتها بصَوت مَبحُوح، ثُم خَارت قُواها، جَلَسَت مفرهدة، فكّت حِزام الخَصر، طِرنا لسَابع سَما، اتمعشقنا حتى خَرَم خُلخالها طبلتَي أذني، شَاورنا للملائكة، فالتقطوا لنا صورة تذكارية، ثم هبطنا من الجنة.

شَهادة حَق، نِسوان الغَجر، غير جِنس البَشر، ولُولا الرَّغي والمَرقعة فيهم مترعرعة، لزَرعوا الشَّجر وبَنوا البيوت ورَبُّوا البقر في المزرعة، ولما سَألتها: «ليه صَامتة ومتكدرة؟ والحُزن كَابِس عَ الجُفون بحِكمَة وسَيطرة؟»، حَكَت لي قصة مِئندلة غير متوقعة: «بَختي مايل وحَظّي شوالين خرة، جَوازة مِن قُرداتي، مَسخرة، وشَهر كَان مَفروض عَسَل، ثُم خَابت كُل مُحاولات الحَبَل بالفشل، ولمّا رَمِيت بذور الكِتَّان فوق سطح الطُّبل، لم تلامِس الحبّات بَعضها، متخاصمين وكأن بينهم زعل، فتأكد في رَحمي العُقم بلا نقاش أو جدل، والعُمر

ما تخطّاش الستة عشر، ذلك نَذير كَرب وشؤم لكُل نِتاية في أرض الغَجَر، لشَغَف الرجال الاستثنائي بالذُّرية، البنت مِنهم قبل الدَّكَر، قَضَاء مَكتوب وقَدَر، الواحدة فينا يا تطلع غَازيّة ترقص للجَدع، يا قارئة فِنجان، كوتشينة، يا تِرمي الوَدَع».

«ولأني مقطوعة من شجرة، ما ليًا أب ولا خِيلان، أصدَر القرداتي فرمان: «الفقر ليَس عَارًا، ولكنه اسوأ من العار بفدان، وقراية الفنجان ما بقتش جايبة هَم»، ثم خيّرني بين الطّرد، أو مسح حَواري الإزبكية بالعرض، مُومِس، أجمع له نقدية، مِن فوق الرُّكب بشوية، يادوبك؛ تكفي مَزاجه اليومي مِ الأفيون واللحمة المشوية، فأبَيت، طَلبت الطلاق وجريت، وعَ الهلاهيل لمِّيت، كُنت بسيب البيت، وعَنها، عَلقة سُخنة وحَرقة دَم، وبدأ يشنَّع عليًا، قال إيه؛ مَسحورة، مَعمول لي عَمل، واقع في غَرامي جِنّي عاشق بيبات ليلاتي في طيز جَمل، لحد يُوم كَان تلات، وفي قلب مُولد مليان فلاحين وبروطات، طَلب الدِّيوث مني أختلي بغريب لتّات، قلت له إحنا الغَجر لِعبتنا الهَوى، وفَض البَكَارة عَندنا شقاوة؛ بس للي استوى، لكن الدّعَارة خطية لا تُغتفر ولو الجيب اكتوى. الناهية، ضَربني لُوكامية، دوَّختني شوية، وفي لمح البَصر، التقط المَاشة مِن فوق فحم النارجيلة الملتهب، وقلع عيني من غير سَبب، وما دِريتش بنفسي يا سليمان، عَفريت وطلع مِ القُمقُم، سَلتّ المَاشة مِن إيد البِعيد، وغرزتها في صِدره بغِل، ومِن هَبلِي، دَهَست مُقلة عِينيّا بصوابعي وأنا بفِر، جريت في قلب المولد أشر دم، لحد ما وقعت ما دريتش بنفسي.

في ظَرف يُومين عقدوا المَحكَمة، وكَبير قبيلة «النَّوَر» زعق وقال

دِي بِت غلبانة مُعدَمة، وأصدَر الحُكم، بعدم القصَاص مني، لأن القرداتي طِلِع نخَّاس، لكن عليّا تسديد المهر اللي دفعه في الجواز؛ غرامة، وكان نُص رِيال، وأن أغادر في التوّ جَنة الغَجر، وتِحرم عليّا الزيارة لآخر العُمر، أُخت عَقيمة لإبليس، أحيض ولا أبيض، لقيطة منسية ما يطلبها عَريس، ومِن يُومها غيَّرت اسمي، مِن «هياتم الفص»؛ لبَختة الغَجرية، وسِكِنت حواري الأزبكية، أقرا الفنجان والكوتشينة في الستر واتغطى بالسرِّية».

صَراحة؛ البِت صِعبت عَليّا، وأردت أن أصنع لها مَعروفًا، يُسرِّي عَن ذلك القلب المَجروح، فنَصَبت الكَاميرا فوق الحَامِل، والتقطت لها صورة وهي تقرأ فِنجان القهوة، وصُورة أخرى مَلط، ضِحكت فيها على سَهوة، الصَّدر كان نَافر، حُصان جامح، يُعافر، والوراك؛ طلبت تكون مَستورة بالقماش، وأصرِّت رغم إلحاحي «دي صينية خُشاف»، قالت: «الغجر؛ لا يخجلون من الحَلمات الوردية، ولا يَستحيون من النشل في الطُّرقات الخلفية، لكنهم يَرون في وراك امرأة مَكشوفة، أو زَواج بذَكَر مِن خارج مِلّة الغجر؛ عِهر، فِسق، خلاعة لا تُغتفر».

حين انتهينا من التقاط الصور، قلت لها مُواسيًا: «إن آلهة الإغريق لَم يتزوجوا يومًا، بَل كَانوا يَخطفون نِسوة البشر اللاتي يمتلكن القدرة على قراءة الفنجان، فهُنَّ أشهى النساء في كل زمان، يظل الشغف معهن متوهجًا، والأصل في الإنسانية، أن يَعيش الفرد عُمره القَصير طُول وعَرض، ويزأطط قدر المستطاع مِن غِير صُداع»... حِكمة؛ أردت بها أن أطيب خاطر الغجرية، فبَكَت، وبَكيتُ على كَتفها حين نظرت للحَائط مِن ورائها، حيث كانت صُورة أميرتي الإفريقية

مُعلقة، العينان تنظران لي في صمت، تلك النظرة التي لن أراها ثانيًا، حقًّا، الندم لمَن عَرف الحُب، والأسف لِمَن لَم يَعرفه.

استغفرت في سِرِّي، وطلبت من المَرحومة العفو: «لَن تَمحو ذِكراك في قلبي أنثى تدبّ على الأرض أو تمشي على الجدران»، ثم ضَاجعتُ بَختة مَرتين إضافيتين على الحصيرة بعدما طردت عائلة من القطط، أستطيع أن أقاوم أي شيء؛ إلا الإغراء. حِين انتهينا، عَقصتْ شَعرها الفتّان بمِشطها الخشبي، أشعلت غليونها ونفست سحابات الدخان، ثم وقفتْ بجانبي وأنا أحمِّض الصُّور، وحين استقرت أطياف الأبيض والأسود في المَحلول الملحي على الورق المشبع بنترات الفضة، ظَهرت التفاصيل، فنظرتْ بَختة إلى هيئتها وسَالت من الدَّهشة ريالتها، فالتصوير الشَّمسي مُعجزة لأمثالها من سُكان عِشش الغَجر، فن ترصده عينها لأول مرة في العُمر، كَان ذَلك حِين التقطت عيناي في صُورتها وبجانب كَتفها الناصِع؛ ظِلًّا غريبًا، لم ألاحظه أثناء التصوير، سَوادًا لم يحترم مَصدَر النور في لمبة المغنسيوم(99) التي فرقعتها على شرف بَختة، التقطت العدسة المُكبِّرة، وقرَّبت المِصباح مِن التفاصيل قيد أنمُلة، فميّزت مِن بين خُصلات الشَّعر المُموَّج الأسود؛ ما يُشبِه وَجهًا: عَينان ثابتتان، تنظران إلى الكَاميرا بثقة، وهلال عريض أسفل منها، يُماثل هيئة الفم، ابتسامة بلا أسنان؟ أجفلت كقرد لَسَعته النيران، وسَقط مِن يدي المِصباح فانطفأ، سَاد الظَّلام، فضَحكت بَختة بسَخَف وقالت: «لا تخف يا خيبان، محدّش غريب، ده «شَنتَف»... «السلام عليك يا سُليمان»؛ ولمَّا كَانت آخر الكَلمات بصوت لن يخرج من حنجَرة

بَختة أيًّا كَان، رَكَضتُ يا مؤمن حتى ارتطمتْ رأسي بالجدار فسقطت على الأرضية، وحين استفقت، وَجَدت نَفسي بدَاخل ظلمة التَّملية(100) ، مَربوط اليَدين والسَّاقين بجانب حِزم المُلوخية، رددت سُورة الناس والنحل والصَّمدية، ثُم صَرَخت صرخة جلية، فالتقطتْ أذناي وَقْع خلاخيل غَجرية: «ها، أفتح ولَّا تلِم عليًّا الخلق مِ السيدة للحِسينية؟»(101) .

حين أعطيت «بَختة» الأمان، فتحت الترباس، واندلقتْ كالشوال على الأرض، بحثت بعينَيّ في خُصلات الشَّعر الأسود وخلف الأذنين، فابتسمِت بنت الرفضي، وجرجرتني إلى الكنبة، استلقتْ، وأجلستني على حجرها: «اطّمّن يا سليمان، «شَنتَف» ده مش ابن «أم الصُّبيان»(102) ، ده جِنّي غلبان كَان يَسكُن تُرب المَماليك من زمان، ولا تخف؛ نحن وحدنا، فقد صَرفته الآن». صَرَخت فِيها: «يا سلام!»، ثم تمالكت زمامي، وهدأت نفسي بشرب جُرعتَي كُونياك، ثم استجوبتها، فعَلِمتْ أنها في اليوم المشئوم وبعد أن طعنَت زَوجها بماشة الفحم، جِريتْ في المولِد بعِين سليمة والتانية حُفرة من اللحم، نامت تحت شجرة جميز، فسمعتْ أزيز حشرة، لكن الأذن اليمنى التقطت كلامًا عَجيبًا، لَه رائحة المِستكة والحبهان: «قُومي من نومك يا غُصن الْبان»، فانتفضَت الغَجرية، ولمّا لم تَرَ بعَينها الناجية مَصدرًا للصوت؛ رَكضتْ، ومن العَوَر وقعتْ، قبل أن يهمس الصوت في أذنها ثانية: «استهدِي بالله، مَحسوبك «شَنتَف»، صُعلوك مِن صَعاليك الجَان، وزوجك القُرداتي؛ كَان عَلى حَق يا مدام لمّا قال إنك مَلبوسة مَمسوسة من زمان، أنا غريق في بحر هواكِ، مُنذ لمحتكِ

يومًا وأنتِ تغسلين النهر بشعركِ الأسود، عِند سَاقية مَجرى العيون، يا بخت الصحون والدهون، كَان يوم حر، عز الضُّهر، وتلك العيون الناعِسة التي لا تليق إلا بجارية لسُليمان الحكيم إنبراطور الجان، أصابتني بالجوع والحرمان، رَسَمتِك بالزعفران في كُل بيت وقصْر أهيم به، وصِرت بِكِ مهووسًا كَما العيَّان، فمَحوتُ اسمِك من سِجلات المندل(103) ، حتى لا يسمع بكِ أهل العرافة مِن السحرة صانعي الأعمال، وصِرتُ أراقب كل مَن اقترب منكِ، رجالًا أو نسوة، وحين عَلِمتُ أن زوجكِ القرداتي ديُّوث، يَطلب من القمر مَسح لِمامة البَشر، وَسْوِستُ في أُذن قِرده فانتحر، وسَكَنتُ مِن يَومها بين خُصلات شَعرِك، مُصمّمًا على تحريرِك من العبودية، حتى إذا أراد القُرداتي أن ينكِحكِ في ليلة، تجسَّدتُ أمام عَينيه بوجهي القبيح المُستعِر، لينفر مِنكِ ويزدجر(104) ، وزيادة في الكُهن، عقدت على رَحمكِ قِفلًا ليس له مُفتاح، حتى لا ينفخ القرداتي بطنكِ في ليلة أُنس فتأتي بطِفل يِصير مِن الهم والحزن؛ سفَّاح».

حين انتهى «شَنتَف» من وصف العشق الذي انتابه؛ قالت بَختة: «وإيش مَنعك بعد كُل العشق والمِلاغية؛ إنك تجامعني كَما الحكايات الأسطورية؟»، كَسَا الأسَى صَوت «شَنتَف» ثم أجاب: «أغا، طواشي، مَخصي، زيِّي زَي الحريم، عَ الدبّان لا باهِش ولا بانِش(105) ، من زمن فات، ييجي تولتوميت سنة، عزِّم عليًا سَاحر سَكران بعزيمة تلفانة، ناقصة كِلمتين، وبَدل ما تِصرفني مِن المَكان ولّا تِحرقني، أصابت أيري اللي كَان في زاوية النشان، فاتبخّر، وراح في خبر كان».
يُومها قُلت: «يا ميلة بختِك يا بَختة، يوم ما يطلع لك جنّي مِن غير

ما تِدعكي مِصباح، يكون عِنين، وسيفه مش دَبَّاح!». فهز الشجر بغضب، وأثار في الرمال زوبعة جعلته يكُح زلط، ثم قال: «لا أبغي إلا القُرب منك، وافقي على صُحبتي، وأقسم برحمة جدتي «قطايف» التي تسكن الخرابات، العين اللي انتزعتها ماشة القرداتي؛ ستصير بقُدرة قادر جَوهرة، تشوفي بيها اللي جَاي، قبل اللي بات في الزمن وَرا، ويوم ما يعجبك راجل عَال، والحليب اللي رضعه من بِز أُمّه لا يُصيب بالإسهال، استأذني مني كي ينكحك، ولن أمنعك، بل سأكون ثالثكم، أبات في خصلات شَعرِك، أغزل لك الضفاير، وأحْمِيكي مِ الهوى الطاير، ولما تجوعي أجيب لكم الفطاير، ويُوم مَا يُغدُر بِيكي؛ أنفيه من مصر للجَزائر، من غير تذاكِر، بعد ما أخصيه وأكِّلُه مَحاشمه، والشرط والإلزام بينا، لا تِظهرين قُصَاد البشر إلا عُورة مَعيوبة، ولا تكشفي عِينك الملوكي البنفسجية؛ غِير لصَاحب قلب طاهِر يُعاني سَكَرات العُزوبية».

حين انتهت «بَختة» مِن حَكي قِصّتها، اقتربت منها في حِرص، رَفَعت العِصابة عن عَينها، وكَانت المفاجأة، أن العين سليمة كَحيلة ناعسة، رُموشها طويلة وارفة، والبؤبؤ، لؤلؤة بنفسجية لمعت في ضوء المِصباح، فأردفَت بَختة: «شَنتَف» الولهان، ما كانش يتخيّل إنه في تصويرات سليمان السيوفي هَيظهر ويبان». سألتها في إحراج: «هل بالفعل كان يبيت ليلاتي في طيز جمَل؟»، فهزت رأسها إيجابًا في خجَل، فأشفقت على الجمَل، ثم سألتها: «وهل كَان ذلك الجنيّ حَاضرًا مرابضًا تحت السرير سَاعة الوَطء؟»، فأجابت ضَاحكة: «هو؛ مَن كَان يَصرُخ بدلًا مني قائلًا آه يا سليمان». كَان ذلك أصعب من

الاحتمال. شَرِبت آخِر قَطرة مِن الكُونياك الفينو وأنا أنقل البصر بَين صَاحبة العين البنفسجية وظِل الجِني «شَنتَف» المتخلل لشعرها في الصُورة الفوتوغرافية، واستعذتُ في سِرّي بسورة الجِن، كَي لا تُؤكَل مَحاشمي في غفلة مني، فيرث الجنيّ فُحُولتي دُون عَناء.

وكَان من الحظ والنصيب؛ أن أصابتني قصة الجنيّ بشرود، اتجهت أثناءه «بَختة» إلى صُور «زهرة» المَوضُوعة في رُكن، مُستغلة غفلتي، قلبتها بفضول قطة، ثم سَألتني: «جَاريتك؟»... أجبتها دون فِكر: «بل ملكتي المتوجّة»، ثم آثرتُ الصَّمت حتى لا أنهار من البُكا، فأردفت: «في الملامح حياة مَديدة، وفي عينيها أسرَار جسيمة».

«حياة مديدة؟!»، «بَختة» تفتي ولا المهدي العباسي(106) بجلالة قدره، وقَبل أن أطعن فُضولها، وأسحب الصور من بين يدها المخضبة بالحنَّاء، أشَارت إلى صُورة أخرى، يظهر فيها الجَسد الأبنوسي في المَشرحة، ثم عقبت في لَهفة متطرفة: «تِلك الجارية تنتمي إلى البيت العَتيق»، سَألتها عَمّا تقصِد فأشارت إلى المُثلث المُحترق في ظَهر «زهرة»، ثُم أسرَّت لِي بأن: «ذَلك الوَسم نَادر، قَديم الأثر في تراث الغَجر، لا يتحصّل عَليه إلا المُبجلون مِن النَّسل القديم المُعتبر»... «أي نَسل؟»، أجَابت بَختة: «يقولون إن الغَجَر، ليسوا بَواقي البَشر، بَل كُنَّا فِئة مِن السَّادة، نَملُك تِلك الأرض وما حَولها، ثم أصابنا شتات عظيم، أضعف قوتنا، وبدّد سُلطاننا، ومع مُرور الزمن، مُحيت سِيرتنا، ووُصمنا مِن الشعوب المجاورة بالبلاء والمُوبقات، فضَربتنا الغفلة، ولحق بنا النسيان، فتآكلت سِجلاتنا، فصَدقنا كُل مَا قِيل فينا، وكَأنّه الإنجيل والقرآن، وكَانت تِلك كُبرى الانتكاسات».

لما سَألتها عَمَّا كَان، قَبل السهو والنسيان، سَحَبت نفسًا مِن الدخان، وقالت: «السَّمكة تفسد دائمًا من رَأسها يا سليمان، يُقال إن جِد أجداد الغَجر، في يَوم عَسِر، أخفى كُتبنا التي تَحمِل أسرار المَاضي المُعتبر، في مَكان مَجهول، ثم تبخَّر أثره بين الأمم والبشر، هُروب لا يُغتفر، لم يترك لنا إلا الدفوف والصاجات، فصِرنا عبر السنوات قُرداتية وقارئات فنجان وغازيات»، وقَبل أن يُدرك «بَختة» الصَّباح، فتَسكُت عن الكَلام المُباح، قالت وهي تكسو بالعصابة عَينها البنفسجية استعدادًا للنوم: «في الجَنوب الحَار قُرب بلدة سُوهاج، بين أطلال تماثيل المَساخيط العارمة، هُناك غَجَري تَخطَّت سِنين عُمره المئتين وخمسين عَامًا، لم يَر حَيّ في زماننا مَلامِح وجهه، يُقال إنه لا يَمَس الطَّعام مُنذ مئة وأربعين سنة، ولا يشرب الماء، وأصابته على مدار حياته سبعون صاعقة من السماء، وقد لمحتُ مِثل ذَلك الوَسم عَلى ظهره حين زُرته يومًا»... «إن كَان عُمره مَئتين وخمسين عَامًا، لن يتذكر حتى أنه إنسان». وكَأنها سمعت أفكاري، عقبت: «ذاكِرته أفضل من خوجة(107) تاريخ في مدرسة»، قالتها ثم تثاءبت، فهزمها النوم في لَحظات، سَالت ريالتها على المخدة وعَلا الشخير المُنتظم. خاء خاء، حتى كِدت أن أطلب من «مسرور» السياف أن يقطع رأسها لأرتاح، ولكن، مَعشوقة الجنيّ الخصيّ ذات العين البنفسجية، بَدت جَميلة مربربة رَغم تمرُّغ جَسدها في سُخام الحياة.

وسَألت نَفسي: «هل أتبع تلك العلامة الخرقاء؟ هَل أحج إلى الجنوب لأقابل مُعمّر كُبَّارة تَخطت سنه المئتين وخمسين بالمرتاح، فأطلب مِنه التعرّي لرؤية وَسم على ظَهره وأسأله عن مَصدره،

قد يكون ذلك هُو الخيط الوحيد المتصل بمقتل «زهرة»، وقد يَكون فَخًّا مِن فِخاخ الغَجر الشهيرة، فإن أجدادها رَفضوا مُساعدة «العدرا»(108) حِين جَاءت إلى مِصر هَاربة من الاضطهاد بصُحبة يُوسف النجار، كَيف تُعطي الأمان يا سُليمان لأنثى غَجَريَّة تمضغ اللِّبان وتُعاشِر خصيًّا مِن الجَان؟ لأ، وعُورًا كَمان! فَجأة تيقَّظت كُل حَواسي مِن سُبات. أيُعقل يا سولوم أن يكون المسيخ الدجال امرأة؟! مَسيخة طرية مِربربة؟! هل وطأت للتو عدوّ البشرية في خمسة أوضاع متفاوتة وقمة في الغوغائية؟ هل سَيحبل مِني «ضدّ المسيح» ذلك الذي جاء من لا أبٍ؛ بأخ لجلال يُشبهني، ولكن أعور بضبّ؛ فأصير فضيحة السماء وعِزَّة الحُكماء، ويتم مُصادرة إنجيلي لعدم كفاءتي؟ يا لهوي! كيف نَسيت أن حدّادي الغَجر هُم صُنَّاع المَسامير التي تُثبّت الأيدي والأقدام في خشب الصُّلبان؟ كَيف أغفلت أنهم خَونة المُسَحَاء في كُل عَصر، ونَشَّالو الجُيوب في شوارع مصر، هُم المشتتون المنبوذون من سُلالة قابيل الملعونة، صَاحب أول قتلة في تاريخ البشرية المَمحونة، أستغفر الله العظيم! هُم المشعوِذون، اللصوص، السّحَرة، الكفَرَة، وخلاصة الفئات المنحطّة، ثم تعالَ هنا، أين المأمن والمناص مِن ذَلك الشّنتف العتّين الخبّاص إن قرر الغدر بالعبد لله؟ إن استعانَ بالأعمال السفلية، قد ينبت له أير عال العال، طوله سبعة أمتار، هل سيتردد في وطئي دُون إذن أو إنذار؟ أو يقص شبرًا من أيري بالغدر؟ يا نهار اسوَح، لقد هَمَس ذلك الجنيّ يَومًا في أذن قِرد فانتَحر، فمَاذا إن تبوّل في أذن سليمان المُعتبر؟!

كَاد العقل الراجِح أن يَسيل مِن أذنَيّ، إسهال فادح، لولا أن تذكرت دُعاءً لخالتي «أليصابات» الله يرحمها، كَانت تقرؤه في جَوف الليل فتُنير العتمة بالإيمان، تمتمته سَبع مرات في سِرِّي، فأسبغت عليّا السماء السكينة والطمأنينة، وتردّد الوحي في أذني بأن: «أحوال الكُمَّل العارفين مِن أمثالك؛ لا يخدعها فخ سَاذج، المسيخ الدجال يا سليمان، لا يُشبه الحُرمة بَختة، فقد قالت سِيَر الأولين إن ظهره مَحنيّ على قُدام، وما كان ليتقن رقصة الفلامنجو أو يمضغ اللبان»، فارتاحت نفسي بعد توجس وارتياع. استلقيت بجانبها، أصابعي تمسك أصابعها، أحاول منعها من الهرب إذا استيقظت، وفي قرارة نفسي اتخذت قرار، لأجل الحُب الضائع، والقلب الجريح الثائر من بعد فَقْد «زهرة» الفادِح، فليحترق التأنّي، ولتبطل حرية الاختيار. إن المَسار إجباري، إرغامي، اضطِراري، إكراهي، إلْزامي باقتدار، تيار نهر كاسر، يَجرفني نحو مُثلث موسوم مَحروق، فَوق ظَهر عَجوز يَعيش في الجَنوب الحار، سألبّي النداء المستكوفي، ولو حوّلتني قارئة الفنجان الغَجرية إلى حِمار!

* * *

(95) عمر بن إبراهيم الخيامي النيسابوري، شَاعر وفيلسوف فارسي شهير.

(96) النَّوَر: قبيلة من قبائل الغجر.

(97) الكيف مناقلة: المقصود هنا أن مُتعاطي الكيف- الأفيون أو الحشيش- يجب أن يُشارك زملاء الجلسة فيه، بحيث يتناقلونه فيما بينهم.

(98) البط المسكوفي: بط يتميز بوجهه الملون، وواحد من أقدم أنواع الطيور الأليفة في العالم.

(99) فلاش المغنسيوم: حرق اللمبات المملوءة بمعدن المغنسيوم كَان يُنتج ضوءًا بصفات مماثلة لضوء النهار؛ وفي ذلك الوقت كان التقاط صورة واحدة يتكلّف احتراقًا كاملًا للمبة.

(100) النَّملية: خزانة من الخشب أو المعدن تُستخدم لحفظ الأطعمة ومنع النمل والحشرات عنها، وهي بديل للثلاجة الحديثة.

(101) حي الحِسينية: حي شعبي من أحياء القاهرة العريقة، يحدّه مِن الجنوب حي الجمّالية، ويجاور حي الظاهر.

(102) أم الصُّبيان: اسم لمخلوق خرافي تنتشر الحكايات عنه في مِصر والدول العربية، ويمثل أنثى غُول شديدة البشاعة، لها أرجُل بقرة، تتنكّر في شكل امرأة جميلة تظهر ليلًا أو قبل الفجر؛ تخطف الرجال وتسخطهم إذا رفضوا الزواج منها.

(103) المَندَل: دائرة يجلس القوم داخلها حين يريدون دعوة الأرواح لاستعلامها أمرًا من الأمور، في هذه المجالس يحضر الجان لاستراق السمع ومعرفة الأخبار.

(104) ازدجر: كفَّ وامتنع.

(105) من منشة الذباب، والمقصود أنه يهش الذباب فقط؛ يعني أنه عنين، لا يستطيع إتيان النساء

(106) المهدي العباسي: كَان مُفتيًا للدِيار المِصرية، وهو أول مَن جمع بين منصبَي الإفتاء ومشيخة الأزهر، واستمر بالإفتاء أربعين سنة.

(107) الخوجة: تعني «أستاذًا» باللغة التركية، وقد تُطلق للتكريم «خوجة أفندي».

(108) العَذرا: يقصد مريم العذراء والدة السيد المسيح.

سِفر الأسفار/ إصحاح نِمرة ٨٥

استعدادًا لرِحلة الجَنوب، ولِخَوفي مِن الموت مُوت، طلبت مِن أُم بيدرو الخياطة أن تصنَع لِي قَميصًا أصفر مُقلّمًا فيه سبعة جُيوب مُغلقة، اتقاء للنشالين، قميص مُكن سَلطنة، يَليق بالصَّلب إن حَدث فَجأة، أو تم استدعائي إلى الملكوت على غفلة، وأضَفت في وَصيتي فقرة في البند ٥ /٢ ض، تُفيد بأن أكفّن وأُدفن في ذلك القميص بالعِند، واقفًا وليس مُستلقيًا في اللحد، فقد عِشت طول العُمر مَذلولًا مُنحنيًا على رُكبتَيَّ لكُل مَن هَبَّ ودَب، حتى إذا قامت القيامة، أُبعث بذلك القميص، فأصبح بين المُحَاسبين من البشر مُوضة وعَلامة تُعتبر، ويُميزني المؤمنون من أصحَاب الأكفان البَاهتة، مَسيحًا مُخلّصًا له حُضور وطلّة وفائدة. وعَنها، تحصَّنت بوِرد الحِماية، وطَلَبت مِن «بَختة» مُشاركتي في رِحلة الكِفاح، لمَعرِفتها بمَوضِع العَجوز الهَرِم في جَنوب الغبرة، ولأن الغَجر لا يُحبون الغُرباء ولو فرشوا لهم الفراخ على صَواني السُّفرة.

أشعلَت المِدملكة غليونها، ووَزَنَت دِماغها بنفسين، وأوقدت مصباح الفكر وهي تُطالع فنجاني بتركيز شديد، ثُم دسَّت أصابعها في صَدرها وسحبت علبة نُحاسية زُغيِّرة مُعلقة في سِلسِلة زاحمت مِئات السَلاسِل، فتحت الغِطاء، وبملقط استخلصته من شَعرها المُموج عَكَشَت بَرغوثًا، أخرجته، طلبت مِنّي الثبات والكف عَن الحَركة المُفرطة؛ وضَعته عَلى طرف إبهامي وابتسمت مُطمئنة، حتى لدغني الوِسخ بألمٍ تضاعَف في ثانية، مَاء نار سَرَى في الأوردة، امتصّ قطرة من دَمي فانتفخ بطنه، قبل أن تنقله إلى إبهامها، وكأنه

ابن اختها، وتركته ليمتَص قَطرة مِن دَمِها، مَطرح ما يِسري يِمري يا سيدي، ثُم أغلقت عليه العُلبة النحاسية وهو مُتخم مُمتلئ يتجشأ مِن الشّبع كدراويش التكية.

قالت بَختة: «في أمعاء ذَلك البرغوث، اختلطت دِماؤنا، فلا يُفرّقنا إلا الموت، ومن الآن فاحذر، إن انتويت الغدر، انتهى أمرك قبل الفجر، وكُل ما سَأفعله؛ أن أُلقي بذلك البَرغوث إلى النَّار، فتُولول عليه أسرابُ البراغيث لَطمًا وانهيار، تُغادر كُل جَسد معفَّن تَسكنه في الجوار، لتحضر جنازة ذلك البرغوث، ثم تجتمع فوق إسْتك قفزًا، بنيَّة لدغك لدغة بَرغوث واحد، فتموت مِن فَورك مَقروصًا مشفوطًا مَمصوصًا»... حقًّا، لقد صَدق المَثل الذي قال: «اللي يكلم القُط يِخربشه»، ابتسمت لها في كَسكَسة فاضِحة، قبَّلت يدها وشَكَرت سَعيها، وأقسمت على نفسي بحق كل ديك باض، أن أُبقِي عَيني سَاهرة مِفنجلة، لا تغيب لحظة عن تلك الغجرية التي تجمع بين الأزواج، وأن أظل واعيًا مُتنبِّهًا، أنفي أنف كَلبة حِبلى شَمَّامة مُتوترة، وحتى أيري العزيز فاقد الذاكرة؛ سأدهنه ليلَ نهار بتوليفتي من المعجون الفاخر، لتكون بُوصلته مُحرَّضة منتصبة مُتحفِّزة، لن أغفل لحظة عن حفيدة الحدّادين صَانعي مَسامير الصُّلبان، حتى أصِل إلى الحقيقة الكاملة دُون تقاعُس أو نُقصان.

قبل صَلاة الفَجر؛ حلمتُ بابن خالتي الشَّاعِر الأسود «عَنترة بن شدّاد» الله يرحمه، كَان بسم الله ما شاء الله يَعتلي فرسَه في ميدان السيدة زينب ويُشهر سيفًا من البقسماط، ويقول: «خُلقتُ من الحَديدِ أشدّ قلبًا، وقد بَلِيَ الحَديدُ ومَا بَليتُ، وفِي الحَرْبِ

العَوانِ وُلدتُ طِفلًا، ومِن لَبن المَعامِع(109) قد سُقيت»، فقمت من فوري واستمنيت، في إناء اللِّبلاب الموضوع بجانب الحِيط، ثم قلَّبت بِذرة أطفالي في طينته بشوكة، وتركت لهم باسمي رِسالة مُوقَّعة مختومة، تَحوي إحداثيات مَخبأ النقدية، يبجي سبع جنيهات وشوية، أودعتهم تحت البلاطة الواقعة أسفل رِجل النملية، وكَذلك أشرت في رسالتي إلى موقع عُلبة خَشبية، مَقاسها خمسة وعشرين سنطي متر في ثمانية، أخفيتها تحت عتبة باب الأودة، مُقسَّمة مِن الداخل إلى مربعات زُغيَّرة، يَحوي كُل مِنها أظافري التي أقصها بعناية وأصنِّفها حَسب الطول والعرض والسُّمك والمَكانة، كُل أصبع مِن الواحد وعشرين له خانة خُصوصي مرقّمة بالشهور والسنين، مَارست تلك العادة السرية بانتظام مُنذ خَرجت مِن الديميرخانة، ليتبارك بها الخلق مِن بَعد صَلبي ولا يتركوا فرضًا على السّجادة، وليبيعها «جَلال الدين» حَبيبي يومًا في مزاد علني كلما ضَاق به الحال، فيشتري بِيتًا مِلك في أرض الميعاد وينجب براحته العيال.

لمَّا انتهيت، رَويت الإناء الذي يَحوي أبنائي بماء الورد وخلاصة المُغات والحلتيت، وغرزت في طينته بذور البُن، ليكون سواد «زهرة» مؤثرًا في نِصف النَّسل، سِرًّا بيني وبين أوراق اللبلاب، حتى إذا غَدَر بِي «كارليسمو» الهِباب، وقتلني على الصليب فورًا ودفنني في التراب، نَبتت أغصَاني مِن الطِّين، وخَرَج للدنيا سبعين «سُليمان سُيوفي» لا يلتوي لهم أير في الأرض ولا في السماء، ليَستأنفوا مُهمتي التي خُلقت من أجلها، في عَهد أجدد مِن الجَديد، جَيش سُليماني يأكل الحديد، في حَرب مقدَّسة ضِد شرور الأمم الأوروباوية

الصفراء شعورهم مِن الصديد... وعَنها، صَعدت إلى سَطح الوكالة، وَضعت الإناء الذي يَحوي بذوري في رُكن تزوره الشَّمس بانتظام، ولا يشُخ عليه الحمام، فنسج العنكبوت عليه الخيوط، حِماية من المتطفلين. قرأت الفاتحة على رُوح «زهرة» سَبع مَرَّات، ثم نزلت مُتسللًا إلى النَّاصية، حَيث يقبع دَلدُول «كَارليسمو» الحارس عَريض الصَّدر، مُتربصًا بالعبد لله يوماتي مِن العَصر للعَصر، داخل عَربة مقفولة البيبان يجرها فرس أسود بلجام.

ولأن «السجَّان زي المَحابيس؛ من الضجَر يَصرخ ولو في إسْته محشورة سلسلة المفاتيح»، راقبت البعيد ليلاتي مِن خصاص الشبّاك كَما راقبني في كُل يوم، حتى فهمت النظام والكيفية، ورصدت؛ أنه حِين يشرع في النَّوم يُغطي عينَي الفرس حتى لا يتحرك، ويُطفئ شَمعة سراج العربة عشان محدِّش يتفرج، ويترك فتحة السَّقف مُواربة، لصيد النسمات العابرة، حَاكم آكِلي المقرونة المحرَّمة في الملكوت لا تحتمل جلودهم رطوبة المَحروسة، حتى لو في الشتاء. وكَان مِن أمري أن رَسَمت الصَّليب على جَبهتي بزيت الزيتون، ثم تسلّلت، مُلتصقًا بالجدار كالبرص، حتى أدركت العَربة، ارتقيت سقفها داعيًا ألا يتململ الفرس فيتحرك، ولما اطمأننت للسُّكون، أدليت ذِراعي بحِرص مِن الفتحة المواربة فوق رأس الزبون، وشَرعت في تقطير الكلوروفورم مِن القطّارة، فوق ثقوب القناع الجلدي المنتفخ بالنعناع والقرنفل والليمون، قِناع الطَّاعون، وكَما تقول الوَصفة السليمانية: سَبع قطرات وتزول عَن الوَعي الرُّخصة، ويفقد الجسد الأهلية، لكن إبليس؛ لم يكن ليرضَى بانتصار المسيح، لقد

تدخَّل بَعد القطرة الخامسة ورقع جيص صحّى كَلبًا ضَالا نائمًا في زُكن، نبح، والحارة ضيقة، ففتح عبد «كارليسمو» عَينيه فجأة، نظر للقطارة المتدلية فوق رأسه، نزع قناعه في لحظة، ثم جذب ذراعي بكل قسوة حتى كاد ينخلع، حطّم سقف العربة بجَسدي، ولو كَان جَذبني برفق لولجت من فتحة التهوية الضيقة ورحمة خالي فتحي. القصد، إني سقطت فوق الكنبة بجانبه، فأغلق الملعون فخذيه على رأسي، كَمّاشة مِن العضلات والضَّأن، كَالِنِي لُوكميّات من الجبهة إلى الذقن، وقبل أن أغوص في غيبوبة، حرَّرت يَدي بأُعجُوبة، وقفشته من خصيتيه، فصَرَخ صرخة خنزيرة تلد، فألقيت زُجاجة الكلوروفورم في الفم المنفرج، وخبطته بُكْس نبويّ مُكن أسفل الذقن، كَسَر الزجاجة في فمه، وأكمل جَميله فكسر أنفه، قبل أن يُكمل الكلوروفورم تأثيره، خارت قُواه من فوره، وعَلا صَوت الشخير في مناخيره النازفة ببربور دامي، فرسمت على جبهة الجعير صَليب، الدنيا لسّه بخير، ثُم سَلتُّ من مَحفظته النقدية، تعويضًا عَن حَالتي النفسية، واستخلصت من جيب سُترته بطحة كونياك وصادرت الولاعة والكوفية.

برفقة «بَختة» وشِكيب، تسللت إلى موقف الحمير الواقع خلف مقام السيدة الطاهرة، اشتريت لهما بيض مسلوق وعجوة، ثم أكْرَيت(110) حِمارين حِجازي عريضَي المؤخرة، ركبت وَاحدًا، أجلست فيه بَختة على حِجري كَي لا تقع، وتركت الحِمار الثاني خَالي الظهر مِن الأحمال وبلا بردعة، مِن أجل «شَنتَف» التي أصرَّت الغَجرية أن يُرافقنا، متحجّجة في دلع مِرِئ: «مَعلِهش، عِنّين

ومِسكين، عليه أقساط بالسَبَع سِنين، وظرُوفه في مَعشر الجِن سُخام وطين»، فوافقت مُبتسمًا، وأقسمت، كالتاجر المنافق حين يَحلف، كالسَّكير حين يُصلِّي، أن ينضم الجنيّ لنا فورًا: «يا خطوة عزيزة... أهلًا»، وتَبِعَنا «شِكيب» مُترجّلًا، حَامِلًا حَقيبة مُعدَّات التشريح، الكاميرا في صندوق صفيح، زُجاجات الكولوديون، الخيمة السوداء لزوم التعتيم لتحميض الصور في أي وابور طحين، سَاعة الحائط الخشبية أم بندول نحاسي، سِجادة الصلاة وبعض الملابس الشتوية لمواجهة برد الصعيد القاسي.

حين بلغنا مِيناء بُولاق، وركبنا الباخرة المغادرة إلى سُوهاج، جَرى الاتفاق على الأُجرة بيني وبين الريِّس؛ بأن يَمسح «شِكيب» أرضية الباخرة بالخيش والصابون، يُفرغ أوعية البول في حجرات النوم، يُغذي المَوقد البُخاري بالفحم، ويَطهو للبحارة قلقاس وباذنجان ولَحم، وفي الليل، يَعمل وَردية إضافية، لتحسين أحوالنا المالية في تِلك الأيام القحط، وذَلك بسبب انشغال العبد لله ليل نهار بمُراقبة الضِّفاف، خشية كُل متآمِر خطّاف، يَسعى لخيانة المَسيح نظير ثلاثين فِضة ورَطلين خُشاف، وكَذا؛ كَي أتفرغ كاملة لرصد ومُتابعة «بَختة» ذات نفسها، وخُصلات شعرها السَّوداء المُموَّجة، والتي لَمَحت مِن بَينها «شَنتَف أغا» مَرتان، في الأولى؛ كَان يَرتدي قُبقاب مَصنوع مِن الهَوا، وعَلى كَتفه فُوطة شفافة مُنتنة، يُدندن بأغنية «هِئ مِئ»(111) مَعكوسة الكلمات، للسِت «سَاكنة بك»(112) مُطربة السرايات، بعدما قَضى حَاجته في قفا الغجرية مِن سُكات.

في المرة الثانية كَان يرشف كُوب حِلبة حَصى، ويُدخن سيجارة

خَلف خُصلة طائرة، شُفت الأغا في النغنغة؛ زي التيران في المزرعة، ورغم أن أير البعيد غائب، شَعَرت يُومها بالغيرة تفور، مُجرد شعور، شربت بعده سبع زجاجات بِيرة، حَسرة على مُعجزة فقدتها بين يوم وليلة، انصفنا يابَا، ده إحنا غلابة، فقد كُنت رَسول النباتات منذ عامين وزيادة، أثناء إقامتي بلوكاندة بير الوطاويط، وتخصُّصي كَان؛ قِراءة العَلامات في فُروع اللبلاب، ويامَا سَخَّرت جِنيَّات، يرقصن لي بالصَّاجات ويلففن سَجاير ويطبخن قرنبيط بالكُرات، كُنت سُليمان «مُكرر» درجة ثالثة أنبياء من بعد الحكيم سليمان، قبل أن يَصدر القرار بندبي مَسيحًا يتجنَّب الصُّلبان، ومِن سخرية القدر أن يقف «سُليمان السيوفي» الآن عَاجزًا عَن صَرف جِني مَخصي مخضبة يداه بالحناء.

وأخذتني السَّكرة، ثم جَاءت الفكرة، ارتأيت فيها أن أقدم طلبًا لتعديل بند المُعجزات، عليه طَابع دَمغة وشوية إمضاءات، ثم اسودّت الدنيا في عينَيّ فجأة، سَبع دَرجات، ورأيت أن ألقي بنفسي إلى تماسيح النيل خوفًا مِ اللي جاي واللي فات. «والله فكرة»، قلتها ثم تراجعت في آخر لحظة، بعدما اعتليت سُور الباخرة وصِرت أمام الركَّاب مُسخة، كيف أغفلت أن المَسيح الأصلي يَمشي على سطح الماء ولا يِغرقشي؟ عُدت يائسًا إلى القَمرة، وانشغلت بتنظيف الكَاميرا، ثم التقطت لنفسي صُورة ملط، لما رأيتها صفَّقت واستفاق ضميري، وردَّدت فيما بيني وبين نفسي قول الشاعر كُشاجم(113) الله يمسيه بالخير: «ما كان أحوج ذا الكمال إلى عَيب يُوقِّيه من العينِ»، فتملكتني ثقة بالنفس، ولَم أشرع تِلك الليلة في مُضاجَعة

«بَختة» حتى فلّيت شعرها طردًا لـ«شَنتَف أغا» بِمشط مِن خَشَب البلُّوط سنونه ضيقة المسافات، اشتريته مِن الحُرمة «اللحَّاسة» العَمياء في بيت لحم بسبع شِلنات، وأقسمت على الغجرية قبل المُباشرة غير الشرعية؛ بأن تأمر الجِني المَخصي إذا كان حَاضرًا في القمرة، بالانزواء، والكَف عَن ترديد آهات الوطء، والالتواء، وأن تنصحه بتسلية نفسه عن طريق الظهور للبَحَّارة، دُخان أسود يلقي بشبكة أو صِنَّارة، فيفزعون في الليالي غير المُقمرة، ويُلقون بأنفسهم من الباخرة.

في سُوهاج، وحِين رسَت الباخِرة عَلى الضِّفاف، اخترقنا سُوق المَسَاخيط الشَّرقي المُزدحِم بالخوَاجَات مِن كُل البِلاد، يُكافحون أسراب الذباب بأيدي عَبيدهم السود، حتى يَتفرغوا لشِراء كُل ما نَتَج عَن الحَفر في أراضي الموتى، تَماثيل، جُعُور(114) ، أواني حَجرية وحنوط(115) ، عَلى أنغام رَبابة حزينة، يَذبح العازِف أوتارها بقوسه في رعونة، وفي مُنتصف السَّاحة، اعتلت غَازية حَافية الطاولة، تهز البطن على دقات الطَّبل في ضَجَر وسَأم، والمُومسات المائعات يتجولن ويتقصعن في الأركان. البشرة مِن النحاس والقَصدير، ولا يرتدين إلا الأقراط، ليغِظن بأجسادهنَّ الممشوقة بائعات بتاو(116) حَاقِدات، كُن في يوم من الأيام؛ مُومسات، قبل أن يغدر الزمن بِهن فيزهدهن الرِّجال، وتتولى الشَّمس تبخير مَا تبقى مِن الدهون في الأرداف.

ومَررنا بتجّار المُومياوات، فَرَشوا بِضاعتهم واقفة مُنتصبة، تَستند ظهور البيوت الطِينية المُتهالِكة. الصَّراحة؛ زغللت عَيني مُومياء

عَجيبةٌ لرَجُل، الفك مَفتوح عَلى آخره، يَستجدي الهواء منذ قرون خلت، والمَلامح تَنضح بعَذاب مبين، يُغطي أيره بكفَّين ظهرت فيهما عَلامات الربط بالحبال. ظنّي أن المِسكين وُضِع في التابوت حَيًّا، تنكيلًا به، لارتكابه جَريمة شَرَف في الأزمنة الغابرة، أو لثورته على الحَاكِم قبل أن تُوجد القاهرة، تم تحنيطه في ذلك الوضع المُهين؛ ليكون عِبرة للعالمين، فقررت - ثواب ورحمة على روح زهرة - أن أشتري ذلك الجَسد المُعذَّب مَهما كَلَّفني الأمر، عرضت سبعة جنيهات، فقال البائع اثنا عشر جنيهًا وريالان. شَخَرت وفاصَلت، فنفحني جُعران هدية، وقال: «تلك المومياء حَالتها جيدة يا سيدنا الأفندي، ستعيش في بيتك عِشرين سنة دون أن يتغير لونها للكركم الهندي»، ثُم أشار إلى وَشم في رُسغ المُومياء، نكش فراخ بلغة القدماء، ثم أخرَج من جَيبه ورقة بَردي ملفوفة ومُهترئة، زَعم أنها كَانت في التابوت الذي آوى المعذَّب، فضَّها برِفق، وأشار إلى رَسم مُماثل للوشم، يَطلُب المُقارنة: «شُوف»... أجبته: «لا أفقه لُغة البائدين يا خفيف»، فأشار للرسم وقال: «أمنحوتب الرَّابِع(117) ، ذَلك الرَّجل كَان ذا شأن في يوم من الأيام، لكنه أخطأ، فلم يُدفن بذراعين متقاطعين كالملوك»، فقُلت: «يا سلام! لم أسمع بذلك الاسم من قبل، وخَالي «فتحي» بالمناسبة كان تاجر مَساخيط، لِنَقسِم البلد نِصفين».

دَفَعت في المُومياء تسعة جنيهات، ترحَّمت على صاحبها وقرأت الفاتحة، ثم طلبت من «شِكيب» أن يَطحن المومياء على جنب، لمَّا أدركت صُعوبة نقلها. ففسخها شكيب، بحث عن جعارين في البطن المليئة بالقار(118) ولم يجد، فدَق الجمجمة بمطرقة، وبشبش

الأطراف، حتى تحوَّل الجَسد اليابس إلى رماد، وَضَعتُه في برطمان «مَعجون سليمان»، وقلبته، ليُضاعف تأثير توليفتي على النِّسوان.

اعتلينا البِغال سَبعة أميَال، مَررنا بجِيَف الحيوانات المُلقاة على الرمال، جمَل ميت أكلت الضباع سنامَه وسوَّدت الشَّمس أحشاءه؛ حِمار مُجفف كالمومياء، رأس جَاموس مُتبقية، وريَش قفص صَدري خاوٍ مِن الأعضاء، قبل أن نصل إلى أبيدوس(119) . المعبد العتيق كان رابضًا في صمت مهيب، بِناء يَعود لزمن مَا قبل الزَّمن بزمان، جدرانه؛ بيَّضها براز الطيور المعشعشة بين الحجارة، والسطح مَسقوف، عَكس مَعابد الأقدمين المَكشوفة إلى السَّماء، تُحاصِره كثبان الرِّمال الناعمة مِن كُل جَانب، وعند مدخله؛ وقفت شَجرة بَاسِقة مُتحدية، ومن بعيد تراصت البيوت الحَجرية والمقامات والأضرحة، تطل على ذلك الصرح في إجلال واستحياء.

كَان الغروب قد فرض مُوضة الأحمر على السماء حين اقتربنا مِن أعمدة المعبد الشَّاهِقة، لامَسْتُ مَنحُوتات القدماء البارزة، وأنا أُتمِتم بأوراد الحِماية الفائقة، وحِين أَعتمت السَّماء نَظَرت إلى الحُرمة الغَجرية وهَمَست في سِرِّي بسُورة «الناس»، وِقاية من «شَنتَف» الخنَّاس، ضُرّتي، الذي يَسكن شَعرها ويشخ الدخان في نفس اللباس، ثم انحرفنا مِن جَانب المَعبد حَسْب وَصفها، لنَسِير في الصحراء القاحلة على ضَوء المِصباح.

رُبع سَاعة تِجاه الجَنوب، هبَّت خلالها عَاصِفة من رياح الهبوب(120) ، أكلنا فيها الغبار القديم وحلّينا الفم بالحشرات الطائرة، ثم غرزتْ كَوارع «شِكيب» مِن الوزن في الرمال، وكَاد

كندوزيٌّ الفهم أن يُسقط سَاعة الحائط عن ظهره فيكسرها؛ لأن الأفندي المَمحون نَاكِح المَوتى المَفتون، لم يرفع عينيه عن إسْت الحُرمة الغجرية طوال الرحلة، يتمنى موتها لينكحها خامدة هامدة، فلا تُقاوم رائحته المقرفة. تُرى؛ هل نكّاح الموتى مُزدوج الخلقة مثل الكِمِّير؟ خلطة بين إنسان وخنزير؟ وجاءت الإجابة حين تأملت جسد «بَختة»، فقلت في سِري: «يا سِت هَانم؛ مَا تلبسي لِباس»، قبل أن أبصق على «شِكيب» آكِل أموال الأوقاف، وأنفحه شلُّوت مَجيد، طار صَداه إلى الملكوت، ثم قرصت حلماته احتياطيًّا، فاستفاق واستقام واعتدل وتاب وأناب، وانتويت في سِرِّي أن أخصيه إذا عُدنا سَالمين بإذن العليّ الوهَّاب، كَان ذلك حين توقفت الحُرمة فَجأة عن السير، بَركت كما الناقة، وأشعلت النار في حُفرة، ثُم ربّعت سَاقيها واستوت على الأرض، صَبّت كَنكة القهوة، ونَظَرت في الفنجان للحظة، بعين بنفسجية، ثم ولّت وَجهها شطر الصَّحراء ونَادت في الفراغ: «يا رأس الحقيقة العَارية، يا خَازِن الأرواح السَّامية» سَبع مرَّات ولم تُكمل الثامنة، فقد هَدأ صفير الرياح بغتة، وأخذت «بَختة» تنظر من حَولها في وَجَل وترقّب، قبل أن أسمع وَقْع ثلاث خُطوات تمشي على الرِّمَال، عَصا غليظة وساقين، فوقهما جَلابية مُرقَّعة، ورأس، ملفوفة بشال صَعيدي أربعة أمتار، مئتين وخمسون عَامًا تتقدم مني دُون استعجال، قُلت لنفسي، لو عِشت مِثل عُمره لنَكَحت يا سولوم كُل مَملكة الحَيوان، عَدا القراض والدبّان، وأنجبت من الشَّجر أخًا لجلال، لحمه من خشب الزان.

حين دَخل الغجري الكُهنة دَائرة النور، رَاحت رُوحنا، رَفَع عَصاه

وأشار بها إلى بَختة في نُفور وقال: «انصرف يا أغا قبل ما أركِّب لك بَردعة»، فغادر «شَنتَف» فروة رأسها نافضًا الخُصلات الداكنة بكل مَرْقَعة، فخارت بَختة على الأرض في فرهدة، وبرطم «شَنتَف» بكلمات واعدة جَعلت العجوز يشخر بأنفه شخرة عارمة، فتبدَّد، دُخانًا في الهوا، وزاد الطين بلة هُروب شِكيب النذل، آخر حَواريّ في مصر، خيانة جعلت شعر أسماك النهر يشيب، ألقى سَاعة الحَائط على الأرض فانكسَر البندول، وزحف على الرمال بسرعة ذَكر زُحلفة مَسطول، لا يعطله إلا شعر العَانة عن الوصول. حين نظرت للمُعمِّر سمعت عقلي يقول: «نِمرة سِيرك رَديئة، يا حرامية يا نَوَر يا لمامة الخليقة»، ولكن على مين؟! عَلى مَسيح وَاجه الأسماك وَحيدًا في البرية، واصطاد الأُسُود في البحر وعمل منها صَيَّادية؟ وذكَّرت نفسي - وجَلّ مَن لا يَسهو - أن العجَلة من الشيطان، فآثرتُ الصَّبر في حَضرة الكُهنة ذو المئتين وخمسين شِتاء، مُستمتعًا بفقرة احتيال سَافرت من أجلها إلى الجنوب أميال.

اقترب النصَّاب الغجري، غَارزًا عَصَاه في الرِّمَال، رَكع أمام النار فوسوست في صَدره ألف سِلسِلة وتضاربت الحبَّات، ودُون أن يَرفع اللثام الذي أخفى وجهه ويَهم بإلقاء السَّلام، وجّه كَلامه إلى بَختة، وكَأني سراب: «مَا الذي أتى بِكِ إلى الجَنوب يا مَلبوسة يا أم مُخ مُباح؟»، فأجابته الحُرمة بتوقير واعتبار: «يا عَم «جَعجو»؛ إن ذلك الرجل يقول إن له امرأة ماتت، ولا أقول، على ظهرها وَسم رأيت مثله على ظهرك يَوم جئتك وأنا فتاة بتول، قبل زواجي من القرداتي على طول، فقررت أن أحج إليك برفقته، لنتلقى مِنك الرأي

السديد والقبول». وأردت أن أوفِّر على الحُرمة الشَّرح وحَرقة الصدر، وظننت ساعتها أن «جَعجو» أعمَش ومقطوم الظهر؛ فأخرَجت مِن حَقيبتي صُورة «زهرة» كَي يَراها وقربت المصباح، بعد لحظات بَرزتْ مِن كُمِّه يَد بيضاء بائسة، جِلْد على عضم، التقط مِن يدي الصورة، نظر فيها للحظات لم تطُل، ثُم انتفض وكأن الشيطان لَسَعَه بملعقة ساخنة، تلفَّت حَوله بِريبة، وانزلق اللثام، فظَهَرَت أنف عظيمة عَارمة، بدون لِجام، كَبيرة كجِذع شَجَرة مُتيبِّسة، مِنقار عَنقاء، زلوم فيل متحمسة، فتحتاها شغوفتان بالرائحة، وفي حَجم مدفع القيصر(121) ، ذكَّرني بحكَاية «توماس ويدرز(122) »، استنشق الهواء بصوت مَسموع، حتى كَاد أن يثير من حوله إعصار، ورفرفت فتحات الأنف ككَلب صيد أصابه السُّعار، قبل أن يكشف الهرِم اللِّثام عَن رأسه كاملة، فصَرَخَت الحُرمة في فزع، ليس لأن البعيد منتقب، ولم تنكشف مَلامح وجهه على حَي يُرزق مِن قبلنا، بَل لأن المحجرين كَانا خاليَيْن من العَينَيْن، ومَكان الأذنين؛ مَطموسين، أما الشَّفتان، فكَانتا مرتقتَيْن بخيوط سوداء غليظة، خِياطة رديئة، كَيف يأكل ابن الكلب؟! زلوم الفيل لا تُغنِي الحيوان عَن الفم. سَألت نفسي وتملكني الهم والغم حين لاحظت الجبهة المكرمشة، تتوسطها عين خالية من البؤبؤ ولا تحيطها رُموش، وسبع أذرع زُغيِّرة، تَخرُج مِن رأسه كزهر عبّاد الشَّمس، ولم يكن الوقت مناسبًا أن أسأله: «هل أنت خَال الجَنين الأمهق الذي سَقط مِني في النَّهر؟» بالطبع كان الجد أو ربما العم، كَان ذَلك حين تحدَّث، والصَّوت المنبعث منه؛ كَان من البَطن يخرج، أو ربما من فتحة الدُّبر إن بقيت بعد كل تلك السنين، قال لبَختة بِغِلّ وسوء فَهم: «أتيتني بنذير الشُّؤم يَا صَاحِبة العُقم،

الشر مُستطير، ليس له كُفؤ، ولا ينطبق عليه حُكم من أحكام ذلك الزمان» ثُم التفت نَحوي وصَرخ دون فم: «سيأتيك الموت يا أرعن قبل سَاعة، إن لم تتبعني الآن دُون تلكؤ أو لكاعة» ولم ينتظر ذُو القرنين ونِصف مِن نبي مِثلي إجابة، تلثَّم، وتحرك في عُجالة، بخفَّة لن تُؤتَى لِمَن في مِثل عُمره، شَرعي أن يكون المُسنّون عالة على البشر، لكن ذلك المُسِنّ استثناء، فقد قفز عَلى الرِّمال، جَربوع(123) مُجرب بلا جدال، ودُون أن يلتفت وراءه، أخذ يُغمغم بكلام مُبهم، بالكاد استطعت أن أتبع آثار خطواته على الأرض الناعمة في إضاءة المِصباح، جَارًّا «بَختة» مِن رُسغها، تَرتعد أوصَالها، حتى بلغنا بُقعة، بتقديري كَانت تقع خلف المَعبد العتيق، فانكفأ العجوز على الأرض، حفر وحفر وحفر، فأر مُجتهد مُعتبر، حتى التقط حلقة مَعدنية صَدئة، جَذبها بقوة ثور، فانفتحت بين قدميه ثغرة تصلح للعبور، فيها سَلالم حَجرية، هَبطها دُون أن يدعونا وراؤه للدخول. قليل الذوق. تبعناه إلى دَركه الأسفل في ذُهول.

في السرداب السفليّ، خُضنا مَتاهة من سَبعة مَمرَّات، قبل أن نستقر في حُجرة مُربّعة واسعة مُصمتة، حِيطانها مِن الجرانيت الأخضر، وقف فيها جِد البشرية مُوليًا وجهه شَطر كُرة حَجرية، قرمزية داكنة مِزاجية، في حَجم كَف اليَد، مُعلقة في الهواء دون سند أو خيط، دَاخل كُوّة بالحَائط. الكُرة بَدأت تَدور حَول نفسها دُون مُحرك، في فِعلة استثنائية جَعلت ذا الأنف المَهيب يثور ويُغمغم، ويُدوّي كقَفِير نَحل متأزِّم، فما كان منه إلا أن ركض إلى الركن المُقابل فجأة، وأخذ يتحسس بأصابعه نُقوشًا غَائرة، لا تنتمي لهيروغليفية

القدماء بِصِلة، وكأنه يتأكد أنها موجودة في مكانها، ثم هَمس من دُبره - ولعلي مُخطئ - هَمَسَات ثائرة، وفجأة نزلت صَخرة، أغلقت الباب الذي دَخلنا مِنه، حقًّا؛ شُغل سَحرة، ثم تحركت الأيدي التي تنبع من رأسه في عصبية، والأصابع، أصدرت فرقعات غبية، فمِلت إلى أُذن بَختة المُرتبكة: «الحاوي حويط، ولُولا العبد لله ما فوّتش نملة في حياته إلا وزنقها في حيط، لأغفلت ما قلتِ بعد قراءة فنجاني عِند بوظة «كتّي»: «سيأتيك ذُو القرنين بأمر يبدل حياتك»، والبيه عُمره بالصدفة ميتين، فاكراني كرُوديًا عِتّين؟ آه يا حَوَش يا نَوَر يا وِسْخِين!»، قلتها بيقين، ثم أخرجت سِلاحي الفريد الذي انتشل نصف البشرية من الشتات، يَداي المُباركتان، رفعتهما إلى سقف الحجرة في تضرّع وتشفّع وتخشّع وذُل، دَعوت عَلى صَاحب الأنف العارم في ابتهال، بأن تُطمَس عَينُه الباقية، ويسيل أنفه بالمخاط كالسَّاقية، وأن تُحاصره التماسيح والثعابين والضفادع والصراصِير والقمل مِن كُل ناحية، وتُخسف به الأرض سبع طبقات».

وعَنها، التفت ذو القرنَيْن ونصف، بأنف طوله فدان تحاشيته بأعجوبة، وقال بشفتين مخيطتين منذ زمن بعيد: «لا أعلم يا أبو مخ تلفان، لِمَ اختارت السَّماء مَجذوبًا مثلك كَي يرث مثل ذلك السِّر الجَسيم، اسمع وافهم يا متعثّر، لعل الإجابة تأتينا في التّو، بعدما تأخرت لقرون»، قالها ثم اقترب ووضع كفَّيه اليابستين على جَانبَي رأسي، فوق الأذان، فشعرت بتنميل، وثقل لِسان، ظننته في البداية تضليل، وكِدتُ أن أدفع الكركوبة في صدره ليبتعد، ولكن رنّت في داخل رأسي كَلمات بصوت لا أعلمه، لُغة غَير مفهومة، حَليب دافئ

انصبّ بين تلافيف عَقلي وتخللها بيُسر ونعومة، رأيت من بعده صورًا قديمة متدفقة، لا تمُت لذكريات سليمان السيوفي بصِلة، وما لبثت أن ترسّخت في عَقلي تلك الذكريات كأني حَضرت أحداثها البارحة، بل وأصبحت في ثواني؛ حقائق راسخة. وجوه، أحياء سكنية، روائح وأصوات، مشاعر، حزن، وَجَل، ذُعر وجزع، وسأدوّن هنا مُلخصًا للوحي العَجيب الذي تلقيته، قبل أن يطويه النسيان، لأن الكُهنة صَراحة؛ لَتَّات وعَجّان، ولسانه أوسخ من الحرمة «جليلة» صَاحبة بُوظة «كتّي»:

«أما قبل... في زمن سَحيق، حَكَم بلاد الفُرس مَلِك عَادل يُدعى «كُورش بن كَمبوجية»(124) ، والذي أَرسَلَ في يوم مِن الأيام خِطابًا إلى الملك المصري «أحمُس الثاني»، يَطلب مِنه التكرُّم بإيفاد طبيب عُيون، ليُداويه من رَمد أصابه وأغلق بالعماص الجفون. ولما كَانت مِصر في ذَلك الزَّمان منارة لأسَاطين الطب والفَلَك والسِّحر المكنون، وجبالها؛ تفيض بذهب من كَثرته؛ صَار في قيمة التراب المنثور، كَان المصير المحتوم أن يُعاني أهل مصر مِن تُخمة الترف، وسَطوة الجند المرتزق، يُحاربون ويحمون الأسوار نيابةً عن أهل البلد، مع تفشّي أمارات الشقاق بين أفراد الحاشية الكسلانة الطماعة في السطوة والثروات. المهم؛ أرسل الملك المصري كبير حُكمائه الضليع ويُدعى «أودجا هورسنت»(125) ، إلى بلاد الفُرس، راجل كُمّل وظريف، كَان يَعمل في مُنشآت منتشرة في البلاد وتُدعى «بَيت الحَياة»، مُهمتها السَّامية كَانت؛ العناية الفائقة بصِحَّة الإنسان، فِرقة مِن الأطباء يَعتنون بالجَسد، لَحم أصَابه مَرض، عِظام

تكسَّرت، تشوّهت، رَمَدٌ تفشّى، كبد فَسَد، وفِرقة أخرى؛ تتولى الأمور الرّوحانية، تشفِي بالسِحر والموسيقى والرقص كُلَّ العِلل الباطنية. وعنها، استطاع الحكيم المِصري شفاء عَينَي المَلك «كورش» بأعجوبة ليس لها مَثيل، حَجَر قُرمزي، وَضَعَه فوق العين فبَرِئت مِمَّا فِيها في غضون أيام معدودة.

أكاد أرى فرحة ملك الفرس بعينَيّ وكأني واقف على بُعد سنطي متر من الحكيم المصري.

ملك الفرس أجزلَ العطاء، وطلب من الحكيم المصري المُكوث في بلاد فارس حتى لا يُعاوده الداء، فاستجاب الحكيم، ووعد بالإقامة شهرين إضافيين قبل أن يعود إلى مصر، ولكن؛ كَان القدَرُ بالمِرصَاد، فقد قُتل الملك «كورش» فجأة في مَعركة مَع الأعداء، وتولّى الحُكم من بَعده ابنٌ غاشم جائر ظالم يُدعَى «قمبيز»، والذي أسَرَ خيالَه حكايات الحكيم المِصري السَّاحر عن بلاده، ولمَّا سَأل عن ماهية الحجر القرمزي الذي شفى والدَه، قال الحكيم: «إن ذلك سِر مِن أسرَار الوُجود، لا تستطيع عقول البشر استيعابه، مَحفوظ منذ الأزل في بيوت الحَياة، ويتوارثه فئة محدودة من الأنقياء، يُعدّون على أصابع اليد الواحدة»... في تلك الليلة؛ لم ينم الملك، أرسل العسكر فبعثروا مَسكن الحَكيم، ولم يعثروا على الحجر القرمزي في أي رُكن، فاقتادوه إلى البلاط، وأشرف «قمبيز» على تعذيبه حتى كَاد يموت: «أين الحجر؟»، لم ينطق الحكيم بشيء، فما كان من «قمبيز» إلا أن سَجَنه في قَبو سَحيق، وخَاض حُروبًا قتل فيها الألوف من الأعداء، أخضَع آسيا الصُّغرى وجُزر الجريج(126) ، وجَمع في مسيرته

جيشًا جَرّارًا فَريدًا، تتقدمه العربات والأفيال، مَهرًا لغزو بلاد القبط... مِصر.

بدأ «قمبيز» في الزحف أثناء حكم الملك المصري «أبسماتيك الثالث» سنة ٥٢٥ (ق م)، يَعني حوالي ٢٣٥٩ (ق س س)، بعد اتفاق خَسيس وتدليس، مع يَهود فِلسطين، نُصّ فيه أن يتخذ من بِلادهم قاعدة للانقضاض على مِصر، مُقابل التصريح والمأذونية بإعادة بناء «هيكل سُليمان» الذي دمَّره الملك البابلي «نبوخذ نَصر»، بَعد حِصاره القدس قبلها باثنين وستين عامًا. اكتسب الفارسي البعيد بهذا الاتفاق؛ ولاءَ اليهود المرتزقة الذين كَانوا في الجَيش المِصري يَعملون بالأُجرة، وكَذلك استطاع شراءَ ذِمَّة خائن يُدعى «فانيس»، إغريقيًّا كَان، ورئيسًا للجند، أطلع «قمبيز» الفارسي على الخطط التي أعدَّها المِصريون لمُواجهة الفرس، وهُوب، راح حَاشِد جنوده في أرض فلسطين، أرسى الأسطول في عَكا، ثُم الْتقى بالجيش المصري في «الفرما»(127) . هُزمنا، تحت قيادة «أبسماتيك الثالث» أمام جحافل الفرس، كَانوا أشد قوة وأكثر عَددًا، والكثرة تغلِب الشجاعة.

«لا تُصدّق أيها الأحمق الأرعن مَن قال: «إن الفرس غزوا أرض مِصر بجيش من القِطط التي كَان يُقدسها الأجداد، فسجدوا لها تبجيلًا وغشمًا، وانهزموا بسبب ذلك دُون مجهود يُذكر»، قالها أبو البشر السَّميك دُون لِسان، ثم أكمل وحيَه صبًّا في عقلي الذي ازدحم بالأحداث الجِسام:

حين ارتدّ الملك «أبسماتيك الثالث» إلى «منف» ليقاوم غزاة الفرس، تعقَّبه «قمبيزهم»، اجتاح «منف»، ووقع الملك المصري أسيرًا

رغم الأنف، فتعمَّد الفارسي إهانته وإذلاله، كان يفخر بانتصاره، فأجلسه وكِبار رعيته الذين أسرَهم في مدخل المدينة، أخصَى الصبيان، وألبس البنات زِيَّ الجواري، ثم أمرهن أن يَحملن جِرار الماء مثل العبيد ويمشين في الحواري، قبل اختلائهن بجُنده للتسرية عنهم، ولما وجد الفارسي في الملك المصري استماتةً وجَلَدًا؛ قتله شَر قتلة، طعنات فئوس بلا عدد، إعدام وحشي أمام شعبه، والخونة من مُرتزقة اليهود الذين كَانوا بعد ترف المَملكة؛ أهم أسباب المهزَلة.

استقر الأمر لقمبيز، وكان أول ما فعل؛ أن أمر بتقويض كُل بِناء في الأقطار يَحمل اسم «بيت الحياة»، وأمر باعتقال جُملة الأطباء والعلماء فيه، تمهيدًا لشحنهم مربوطين بالسلاسل إلى بلاد فارس، وبحث عن الحجر القرمزي الذي سمع عنه من الحكيم، ولم يجد له أثرًا، ولمّا يئس، وقتل من العلماء من قتل، حوَّل «بيوت الحياة» إلى إسطبلات لخيوله، وبدأ الإعداد لغزو غَرب البلاد وجنوبه، غِلًّا وانتقامًا، فتصدَّى أهل النوبة لجُيوشه، وكَانوا جُندًا طوالًا أشداء، تُصيب أسهمهم مُقلة العين مِن مسافة أميال، أعادوا الفُرس مَهزومين، عُور الأعين، أذلّاء.

أما في غرب البلاد، فقد أرسل «قمبيز» خَمسين ألف رَجُل من حُماة العرش إلى الواحات، ليستَولوا عليها ويهدِموا مَعبد «التنبؤات»(128) ، مفتاح مُلك مِصر مُنذ أشرقت الشمس على تلك الأرض، بَعدما علِم أن آخر بيت للحياة، مازالت حيطانه قائمة؛ وأن الحَجَر القُرمزي الغامض الذي أصبح هاجسًا لا يغيب عن باله، قد تم تهريبه إلى هُناك. ما إن اقترب الجيش الفارسي بعد مَسيرة

شهر، حتى هبَّت عَاصفة عَاتية، أهلكت الجند والقوَّاد عَن بَكرة أبيهم، دفنتهم تحت الرمال الناعمة، لم ينجُ منهم فرد، ولا تركوا خلفهم سيفًا أو دِرعًا يصلح أن يكون نُصبًا تذكاريًا.

بعدها بشهور، انتحر الملك «قمبيز»، أثناء نوبة صَرع غامضة، قيل وقتها إنها لَعنة كَاهن مَعبد «التنبؤات»، ألقاها وأبواب السَّماء مفتوحة على مِصراعيها، وقيل إن ذلك من تأثير الحَجَر القُرمزي، الذي أكل عقله، ليخلُف «قمبيز» في الحُكم ابنٌ يُدعى «دارا»، وكَان أخفَّ من أبيه وطأة في الإدارة، رهبَ المصريين، وأراد أن يستميلهم حتى ييأسوا مِن جَدوى الثورة على الغُزاة، وليأمن شَر الحجر القرمزي الذي كان سببًا في مَقتل والده، فما كان منه إلا أن استدعى الحَكيم المَسجون «أودجا هورسنت»، طلب مشورته، فأجابه بالْتماس، تعود به الحياة إلى «بيوت الحياة»، فوافق «دارا»، ولكن كَان الأوانُ قد فات، فقد اختفى الحجر القرمزي في ظروف غامضة، خوفًا من عودة جيش الفرس لغزو الواحات، وتفرقت العلوم المُدوَّنة في سَبعين كِتابًا مقدسًا، احترق بعضها مع مَكتبة الإسكندرية في عهد الرومان، بعدما انتفع بها ونسخها جريج اليونان، أعادوا صياغتها بلغتهم فاكتسبوا الصدارة والسبق بين الأُمم، والبقية الباقية من الكُتب، التي تحمل أمور السِّحر والكَهانة، أخفاها الفارّون مِن العذاب في أمكنة مَجهولة، ثم ماتوا دُون أن يورثوها لأحد من الأحفاد، خوفًا من التكالب والأطماع، وشفقة من المصير المحتم لكل مَن يعلم أزيد من اللازم.

نَسل الكَهَنة؛ سَافروا مُتخفّين في كِتمان شَديد إلى القارة

الأميركاوية، مَع أول الدفعات المُهاجرة، خَوفًا من العسف والاستعباد، وتحت أسماء عائلات مُستعارة، وتاريخ لا يمت للحقيقة بصِلة. أما نَسل السَّحرة، الذي أخفى كَبيرهم كتب الأسرار عن عَمد، ويُقال إنه كان آخر مَن شاهد الحجر القرمزي عن قُرب، فقد ضَاق بهم الحال، أصبحوا هائمين على وجوههم، تضرِبهم مَوجات القهر والنفور، بلا دستور، حتى صَاروا غجَرًا منبوذين، يُعانون الفقر ويُوصَمون بالفجور، تشتتوا بين الأوطان، غرباء، مذمومين مُحقَّرين، منفيّين على الحدود يعزفون بالدف والكمان، حتى نالت مِن عقولهم آفة النسيان».

كَان ذلك آخرَ ما ألقاه المُعمِّر ذو الأنف العارِم في رأس العبد لله من وحي، قبل أن تلتقط الآذان وَقْع خُطوات نعل نُحاسية، تنزل على السلم وتصُك الأحجار بأصداء معدنية، كَيف تبعني حارس «كارليسمو» إلى سوهاج؟ أم أن ذلك هو وَقْع حذاء القاتل؟ ولم تتأخر الإجابة. فَجأة؛ اهتز الجِدار بخبطات شديدة، فما كَان مِن العجوز إلا أن مَد يَده اليابسة في إحباط، وانتزع الكرة القرمزية الثائرة من داخل الكوة، وَضعها بين يدَيَّ وكَانت ثقيلة كجبل رغم أنها زُغيّرة، نقَّل زُلال عينه الوحيدة بين عينَيَّ، ثم أمرني بصوت ثابت النبرات أن أحفظ الكرة لآخر الأجل، وقال: «أنت وبكل أسف... آخر أمل»، ثُم صَفع خدي بيده الباردة لأستفيق، قبل أن يَصرخ: «اثبت يا ابن نواعم يا مُشعِل الحَريق».

كَان ذلك آخرَ ما قال العجوز قبل أن ينهار الجِدَار، فتكوَّمت مَع الغجرية في رُكن وانتظرت طقطقات الانهيار، ولما طَال الصَّمت،

اختلست النظر من بين خصلاتها السوداء، فمَيزت قرنين ضِخَامًا يَخترقان الغُبار المتطاير، وسَمِعت بأذني صَوت خُوار، من هول الموقف؛ تمتمت في سِرِّي بأوراد الحِفظ مِن طاعون البهائم، وتمنَّيت لو لَم يَرحل «شَنتَف أغا» عَنا، كَان سِرّه ليكون باتع في مثل تلك الوحلة، ثم راقبت عَجوزًا في عُمر الكون ذاته، يُحاول أن يُزيح الأحجار التي سقطت فوقه وكسرت ساقه، يتحامل على جَسد ذو طول دُون عرض، ليواجه مُصارعًا رومانيًا جَسورًا، يَرتدي صديرية سوداء وسِروالًا من الجلد، وفوق الرأس قناع مُتقن لثور، هل باتت الأقنعة موضة كل العصور؟ ولمّا كنتُ ضامنًا وموقنًا أن مَوتتي المشرِّفة لن تَحدث إلا فوق صَليب في مساء يوم جُمعة سَاعة العَصاري، انتويتُ أن أشتبك مع ثور البراري، لآخُذ بيد المُسن ذي الأنف البُخاري، وأنقذ الغجرية... بسرعة شديدة؛ تيمّمت في التراب لانعدام وجود ماء، رَسَمت الصليب بين كتفيّ وجبهتي، وبَحثت بعيني عَن سِجّادة صَلاة لعلّي أؤدي رَكعتَي الاستجداء، ثم اكتشفت أني نَسيت في أودة المستوصف عود السواك، فهَداني الفِكر وأرشدني الوَحي العَالِم بالنية، بأن أتروّى قليلًا، كَي لا تتلوث بجرأتي -غير المَحمودة- سمعة المَسيح المُسالِم، وكذا؛ لأن العجوز للتوّ أوكلني بصون الكرة القرمزية صون العبد للسِّت هانم.

حين تقدّم الثور مِن العَجوز، شَرَع الأخير في البرطمة كالمَلبوس، وما لبثَ أن قبض ذو القرنين على رقبته، بدا كفرخة مَسلوقة ما زالت تنبض بالحياة بعد نتفها، انتشله مِن بَين الأحجار ونفضه، كَسر له ذراعًا اغتر بالمقاومة، قبل أن يطعن كتفه بسكِين كسر في طريقه

عظمةَ الترقوة، فضعفت المُقاومة في جَسد تخطَّى المئة وخمسين بمئة سنة، ولو أراد الثور أن يقتل العجوز لقتله، وتأكد ظني بالنية، حِين تهيأ لسَحقِ رقبة «جعجو» كورقة شَجر خريفية جَافة، لكنه بدلًا مِن ذلك؛ استخرج مِن حِزامه سِيخًا مَعدنيًا عَجيب الهيئة، نِهايته مشقوقة مثل لِسان الثعبان، ومُلتوية، رأيت مثله سَاعة ولادة جَلال العَتِرة، مَرسوم على جُدران الكهف بأيدي البِدائيين من أجداد زهرة.

بأظفر الإبهام، مَزَّق الثور الغُرز السوداء في فم العَجوز الخالي من الأسنان، ورفعَ السيخ المعدني إلى أعلى، ضَغَط الذقن إلى الخلف كفرارجية سوق الاثنين المتمرسين، وبَدأ في غرس السيخ بحَلْق العجوز المسكين، فأخذ يكُح في اختناق، ورغم أن المرأة؛ رَجلٌ ناقص الأهلية، صَرَخَت الولية الغَجرية صَرخة مُدويَّة، وقامت من فورها لتنقضَّ على الثور دُونما رويَّة، في شجاعة ولا شجاعة فتوات الحسينية، فرفسها الثور رَفسة مُحكَمة، ضَرَبت الحَائط برأسها، طقطقت رقبتها طقطقة مسموعة، وهوت على الأرض خامدة، كَانت تِلك هُدنة كَافية لأن يستعيد العجوز نَفَسًا أخيرًا باقيًا في صَدر أشك؛ أن به رِئتين من الأصل، ويُخرج مِن طيّات ثوبه خِنجرًا مُستقيمًا مُدبب النصل، وفي لَمح البَصر مرّر يَدًا استمنَث في زمن شكسبير؛ على عُنق الثور الفحل، فبجّه بَجًا، وانفجر الدم سَيلًا، سُبحان من أحيا العِظام وهي رَمِيم! ارتخت قبضة الثور فوق عُنق العجوز، وعَلا خواره في رُعب واندهاش، وقبل أن يَركع؛ مُحاولًا بيديه حجز الفيضان الأحمر الذي أغرق الأرض من تحته، انقضّ العَجوز عليه بمعجزة من السماء، ركب ظهره، وفي خفة نِسناس هَربَ مِن

القرداتي، دَسّ السَّبابة والوُسطى في أنف الثور، جَذب الرقبة إلى الخلف كجزار محترف، واجتز الرأس بضربة واحدة. لحظة حَاسِمة، ارتجت بعدها الأرض بوقع نِصف طِن سقط عليها. «الله أكبر»، صَرَخت مِن الفرحة، وقبل أن أقوم مِن مَكاني سَقطت رأس الثور مِن يد العجوز على الأرض، وهَوى المسكين بجانبها.

اقتربت منه في وَجَل، نظر إليّ بعين وحيدة يَملؤها الندم والعماص والزَّعل، وكَان آخر ما قال: «لن تَرى الحقيقة المطلقة حتى تمتلئ الغرفة كلها»، ثم انكفأ على الأرض مَيتًا، لامست عُنقُه اليابس فلم أجد في القلب نبضًا، لقد سَقط الهَرم بعد مئتين وخمسين عامًا من الاستمناء والفرك والرَّكض والقفز على أكتاف الثيران، كُل ذَلك الطيش وكُل تلك الغباوة مِن أجل كُرة قرمزية؟ يا لها من نهاية! رَسَمت الصَّليب، وترحَّمت عَلى الجزار وذبيحته التي لم يُسَمّ عليها، ولأن الحي أبقى مِن الميت، انحنيت على الغَجرية، فَحصت النبض والنفَس وكَانا يُجاهدان لتبقى معي في هذه الدنيا، فشرعتُ في حملها، كَان ذلك حين أقنعني الفضول أنها حتى وإن نجت؛ فقد تعيش عمرها مَشلولة إلى الأبد، لن يضيرها الانتظار لدقائق أحتاجها لفهم قَدْر من الألغاز التي حَاصَرتني في ذلك السرداب العجب، قبل أن تنهار جُدرانه التي أصدرت طقطقة عالية تستعجل الاندكاك.

حين جرّدت جثمان العجوز من الهلاهيل التي يرتديها، رأيت المثلث المُحترق بين الجلد المترهل في ظهره، مُكررًا بَدل المرَّة سَبع مَرَّات، إضافة إلى وُجود علامات حَرق مِن آثار صَعقات برق لم يبخل عليه باللسعات، ذلك العجوز مُستعمل كعاهرات الإزبكية المُصابات

ببلاء الزهري والسيلان. بفحص الوجه العجيب مُتطرف القسمات، المليء بحُفر الزمن والثغرات، أدركت أن خياطة الفم التي شَقَّها الثور بإبهامه؛ صُنِعت مُنذ عشرين عامًا على الأقل، فم والْتأم، ولا أعلم كيف من ساعتها عن الطعام انفطم؟ أمّا الأنف الذي تَخطّى حجم الأتَّة النَاضِجة، فقد زَاد حَجمه وتوحَّش، بسبب استخدام كِلابيّ مُفرط، والعَين الوحيدة التي تتوسط الجبهة، لم تكن ذات فائدة، بؤبؤ مَحَته السِّنين البائدة، وجِفن تآكلَ من قلة الرَّمش والغمز لمِلايات اللف العَابرة، لتتولى حاسَّة الشَّم مُهمَّة إرشاد العَجوز عبر السِنين، يتجنب بها الحُفر، ويتقي بها شرور الطريق، أما الجَسد اليابس، ورغم أن كلمة مئتين وخمسين عامًا تبدو مِن السَّخف قِلة أدب، إلا أن حالة الأير؛ عَلامة لا تكذب في جِنس الرِّجال، وما رأيت حقًّا؛ لم يكُن يَمُت للأير بصِلة، مَن قَابل الكائن الساكن لقوقعة «أم الخُلول» سيُدرك ما أقصد، حلزون فقدَ صَدفته نتيجة الاستمناء الفادِح لعُقود غابرة، كَذلك فحصت الأسنان، ولم يكن هُناك حتى أطلال أسنان، لقد عاش عمِّي نوح قدر «جَعجو» أربع مَرات، تُرى كيف كَانت أسنانه بَعد تسعمائة وخمسين عامًا؟ أما لِسان ذلك الكُهنة، فبُتِر مِن زمان، وتمَّ كَي الجرح بنار حامية، وامتنع من ساعتها بالتأكيد عن أكل اللبان.

وزادت طقطقة الأحجار فوقنا، أزِفَ الوقت، فانتقلت إلى رأس الثور المقطوعة، وفَشلث مُحاولاتي المستميتة في نزع القناع عنها لأعرف هوية المُصارع أسفل منها، قبل أن أكتشف أن الرأس بالفعل؛ رأس ثور ناضِج! تملكني الرُّعب من قدمَيّ إلى الحواجب، إنسان برأس حيوان! تِلك أعجوبة العجائب، واكتمل الرَّوع في صَدري

حين طَالعت القدمين، حَافِر مشقوق، يرتدي نعلًا كَعبه من النحاس، يُساعده في التمسك بالأرض حين يَركض، والقفز لمسافات إن أراد، رأيت أثره فوق سور مجرى العيون على التراب، عِند لقائي الأول بالوهم العملاق، ظننت ساعتها أن القاتل يُعاني غباوة، بارتداء نعل أصغر من حجمه، تمويهًا واختلاقًا وسذاجة، ليبدو قزمًا أو طفلًا عاقًا في عين القواصة، ولم أكن لأتخيل يومها، أني أتبع خطوات ثور حقيقي، أراد أن يمشي على الموضة بارتداء نعل بشري، وتأكد حَدْسي، حين رأيت بأم عيني نقصًا في عروة صديريته، زِرًّا نُحاسيًّا مفقودًا، يَرقد الآن في حقيبتي التي تركتها قبل أن أنزل ذلك السرداب وراء عجوز ظننته حتى دقائق... نصَّابًا ومُدعيًا ومَوكوسًا.

ولأن الدنيا قوامها الغَربلة والانتقاء للقرارات المَصيرية، كَان على العبد لله الاختيار بين حَمل جَسد الثور لفحصِه على روقان، مع رفع جثة «جعجو» لاختبارها، أو، إنقاذ الغَجرية المربربة، لاستئناف وطئها، ثوابًا واشتهاءً، ولأنها بالتأكيد ستُفصح بمزيد من الأسرار، وتقرأ لي القهوة في الفنجان وتمسح البلاط حتى يؤذّن الأذان، وماله! النسوة في إنجلترا الآن يُطالبن بحق الانتخاب، علامة من علامات السَّاعة... ولثِقل وَزن الأول، وخُلو جَسد الثاني مِن أي مُفاجآت بعد تفتيشه، وَقَع اختياري على بَختة، بطِيب خاطر وانشراح، رفعت الجَسَد البتلو على كتفي، وصَعَدت السلالم بكل ما أوتيت من قوة، حتى خرجنا في مَطلع الفجر، قبل لحظات، من انهيار السقف بِدَويّ رهيب أيقظَ تماسيح النَّهر البعيد.

* * *



(109) المعامع: الحروبُ أو الفِتَن.

(110) أكرى: استأجر.

(111) الهِيَ والمِئ: الأغاني الخليعة في ذلك العصر.

(112) من أشهر مطربات القرن التاسع عشر، وقد لُقبت بـ«ساكنة بك» تكريمًا من الخديوي «إسماعيل» الذي ناداها مرة بساكنة «هانم» فاغتاظت الأميرات فغاظهم أكثر وناداها بـ«ساكنة بك»، وأصبح اللقب مقرونًا باسمها حتى ماتت.

(113) كُشاجم: شاعر وأديب، من كُتاب الإنشاء، وهو من أصل فارسي، ولقب «كشاجم» يعني اختصار العلوم التي كان يتقنها: الكاف للكتابة، والشين للشعر، والألف للإنشاء، والجيم للجدل، والميم للمنطق.

(114) جعور: جمع جعران.

(115) حنوط: كل ما يُخلط من الطيب بأكفان الموتى وأجسامهم، وهنا المعنى المقصود «مُتعلقات الموتى» من قدماء المصريين.

(116) بتاو: خبز مُسطّح مُخمر، ينتشر في صعيد مصر.

(117) أمنحتب الرابِع: المعروف تاريخيًا بالملك «أخناتون»، ولم يُستدل على جثته بشكل قاطِع حتى الآن.

(118) المقصود بـ«القار» الأسفلت، وقد أُطلِقت كلمة مومياء على الأجسام المُحنَّطة؛ لما يَعتريها من سواد يُشبه أحيانًا سواد القار المعدنيّ.

(119) أبيدوس: عاصمة مصر الأولى في نهاية عصر ما قبل الأسرات، وحتى

الأسرات الأربع الأولى، ويرجع تاريخها إلى خمسة آلاف عام.

(120) رياح الهبوب: رياح قوية تهب على طول الأطراف الجنوبية للصحراء، وتترافق هذه الرياح مع عواصف رملية هائلة، وقد تستمر لثلاث ساعات متواصلة.

(121) مدفع القيصر: مدفع ضخم جدًّا تعود صناعته لسنة ١٥٨٦م، وهو نُصب تذكاري لفن صَبّ المدفعية الروسية في موسكو.

(122) توماس ويدرز: والمعروف أيضًا باسم «توماس وادهاوس»، المولود في يوركشاير بإنجلترا عام ١٧٣٠، عملَ مؤديًا في عروض سيرك مختلفة في منتصف القرن الثامن عشر، وكان يشتهر بامتلاكه أطول أنف في العالم، يبلغ ٧.٨ بوصة؛ حوالي ٢٠ سم.

(123) الجربوع: فصيلة من القوارض الليلية، تعيش في البراري الصحراوية.

(124) كورش بن كمبوجية، أو الملك «قورش» العظيم؛ أول ملوك فارس، حكم من سنة ٥٦٠ إلى ٥٢٩ ق م.

(125) Udjahorresnet: كبير أطباء مصر السفلى خلال الأسرتين السادسة والسابعة والعشرين في مصر القديمة.

(126) الجِريج؛ المقصود بهم الإغريق، اليونان.

(127) الفَرَما: تعني بيت آمون باللغة القبطية؛ وهي إحدى المدن الثلاث لمنطقة بورسعيد القديمة.

(128) معبد التنبؤات: المعروف بمعبد «وحي آمون».

سِفر الخاتم/ إصحاح نِمرة ٨٦

تفنيد ما حَدث مِن أهوال عجاب في أسبوع فات، بخط يد العبد الذي تهابه الخرفان، وتخشى الأسود من ضرباته بالنقرزان، السَّيد المُهاب، والضَّبع الوثّاب، الصادق الكذاب، مَن لا يخاف المُرور على الصِّراط رغم انقطاع صِلة الرحم بالحُرمة «نواعم مكرم» منذ سَنوات، أُم متآمرة، طبيخها خرا، وخِلفتها كُلَّها بَنات.

أمَّا بَعد،

حين ألقيت بجسد الحُرمة «بَختة» فاقدة الوعي على الرِّمَال، نظرت لها وحدثتني نفسي بدون تكليف: «يا حَظَّك النَّحس يا سليمان! جيت تتاجر في الكتان؛ ماتت النسوان!»، وصَدَّقتْ طقطقات الأحجار على كَلماتي، فشَرَعَت في تقويض سِرداب العَجوز العَدمان أبو مناخير فدان، انخفضت الأرض فجأة، والحمد لله كُنت والحُرمة الغجرية عَلى بُعد أمتار، صَوت فاق دَويّ الرَّعد في قوته، وزلزلة ضَربت سَطح الأرض، فانهار السقف، ثُم انسابت الرمال الناعمة، فيضان، ملأ ثغرة في حَجم مَعبد مدفون، ووارت حبَّاته الهبوط والنقصان، حتى عَادت الأرض مُستوية لا ينقصها إلا تراكم الكُثبان، وكأنها لَم تشهَد مُنذ لَحظات مَصرَع عَجوز دَشّن جِنسَ ما قبل آدم الإنسان، وثُور وَضيع فاجر يسير على قدمان، ولا يتورع عن ضَرب النسوان، وفرار «أغا» من أغاوات الجان، ذلك بخلاف خِيانة شِكيب عبد الصَّمد، الحَواريّ الوحيد الذي ظننته من الأتباع قد صَمَد، اختار الزوغان، تاركًا ساعة الحائط مَكسُورة البندول، يَضرب ذيل

عقربها الهواء في غضب وسَخَط.

وكَان مني أن حَملت الغجرية على كَتِف، فطقطق ظهري وانحرف، ووضعت الكرة القرمزية الثقيلة في كِيس كانت الولية تحمل فيه القهوة والودع وريشات الطواويس، ثُم ابتعدت مُسرعًا، متتبعًا آثار أقدام «شِكيب عبد الصَّمد»، لا تُخطئ العين حوافر البقر، مِشيت ومشيت، ومِن الأفاعي والعقارب احتمِيت، أتلفَّت حَولي في خِشية مَع كل هَمسة للريح، لا أعلم ما قد يقابلني من عَجَب بعد إنسان له رأس ثور، حتى كِدت مِن الرعب والحِمْل الثقيل أن أتخلَّى عن الحُرمة المربربة فتسحبها الضِّباع إلى الجُحور، أو يَشبع بها عَفاريت الجان، وتوًّا ما أتت سيرة سيِّد الخصيان؛ تجسَّد لي في هيئة دُخان، تلوت نِصف سُورة النَّمل، وتَمالكت نفسي على مهل، دَار البيه مِن حولي دورة، لم يُلقِ فيها بسَلام، ولم ينظر لبختة فاقدة الوعي، بل تخلل رأسي وكتفي، أجرب ويسلِّم بالأحضان، برَّر فِراره من السرداب بكُل استخفاف. عُذر أقبح من ذنب! بثّه في أذني بصوت فتاة تُعاني آلام الحيض لأول مرة: «لا مؤاخذة يا سليمان كُوني من السرداب فرِّيت، أصل «جعجو» المُعمِّر بِعيد عنَّك وعن السامعين؛ خُلقُه أضيق من شَرخ في حِيط، وخُصوصي مَع الأغاوات اللي زي حَالاتي، اضطهدنا اكمنِّنا بين الخلق ناقصين بيضتين، غشيم. بالك... في مرَّة غِضِب على جنِّي طَواشي مَعرفة، وراح البعيد حَابسه في إناء خزف بدون مغرفة، رغم إنه كان سمين، ولما حَب يكيده حَشر مَعاه سَبع جِنِّيات من خادمات الفردوس، يِحلُّوا بجمالهن مِن على حَبل المشنقة، شُوف الجبروت يا أخي! والمِسكين؛ لأنه عِنّين،

احتقن وغل، حَاكم الخصيّ تزيد شهوته، وتكثر دمعته، ويَصير كالبغل حيران هيجان، لا منه حمار ولا حصان. المهم، بعد سِنين من الحبس في الإناء، وفي يوم حَظ؛ حرَّر الطواشي المِسكين مِن مَحبسه؛ واحد من بني الإنسان، بعد مَا كَسر الإناء بالغلط، وللعِشرة اللي صَارت بين الجني الأغا وبين الجنيات، سَرَّحهن عَ النواصي من غير كلوتات، متعة وثواب للأفندية والبكوات». هُنا، فهمت مَغزى التلميحات، أحابيل الشيطان لا تنطلي علي العبد لله يا «شَنتَف»، يا أغا الجِن، يا ملك الموبقات، لم تُرِد مِن تِلك المُقدّمة المُغرِضة سوى أن أصير مِثلك؛ قوَّادًا لثَّات، تاجر نِسوان والعياذ بالله، أقتات من عَرَق وِراك الحريمات، الغجرية المسكينة تخرج من قُرداتي؛ لتقع في أسر جني بضفيرة مثلك، قوَّاد سَرَق بِضاعة قوَّاد، والله إنها علامة من علامات الساعة، لقد قُلت مُنذ أسبوع قولة حَكيمة: «أحبب جَارك ولا تَشتهِ امرأته»... الآن أقول وبكل فِطنة ورشاد: «اكره جَارك... وحب امرأته». انتسخوها لتعمَّ الفائدة على الخليقة الناقصة.

استطرد «شَنتَف»: «بَختة، مقهورة مِسكينة، بَاعَت روحها، واشتريت، لقاء عين جديدة بدل التي قوّرها القرداتي، دين في رقبتها إلى يوم الدين، وقد تركتك لتنكحها، وترتحل بصُحبتها في سَفرة للجنوب، وهِئ ومِئ ورَقص وشَخاليل، تسرية عنها، وعَربون مَحبَّة وأخوَّة بيني وبينك يا جميل، إحنا مش ضُرر وحياة مَية النيل»، ولمَّا سَألته: «ماذا تعني النقدية لقوَّاد من مَعشر الجن؟»، ضَحِك الدُّخان، قرقر كالجيص وكَاد يتبدَّد في الهواء، ثم تكثف في هيئة تطابق العبد لله، نُسخة مِني ولكن سوداء البشرة، قَال: «لستُ

بقوّاد يا بهلول السَّماء، ولا تُصدق كل ما قيل فينا؛ نحن مَعشر الجَان، أطيب الكائنات، فقد عَاهدنا سليمان على طاعة الإنسان والولاء، وليس لنا آفة إلا التخفي والتلاشي والاحتجاب، لقد أخفقنا عَبر آلاف السنين في الظهور أمام بني جنسك بهيئتنا الكاملة، لقُصور في أعينكم؛ ليس له عِلاج، وإن الفضل لَيعود إلينا في الحِفاظ عليكم مِن الهلاك عَبر العُصور، خِدمة مُزمنة نؤديها يوماتي لوجه الله، ولو تعلمون مقدارها لشكرتمونا ورفعتم الأيدي من أجلنا بالدعاء».

قلت: «خُش في الموضوع يا أبو نسب، المسيح ليس لديه وقت للترهات والشحاتة والنكد». سَاد الصَّمت لحظات، فكَّر الخصيّ، ثم فكَّر، ثم عقَّب بغشم ودُون تبصُّر: «إن كنتَ المسيح حقًّا فاشفني مما أصابني مِن خِصَاء، أنبت لي بَيضتين شفافتين ولا تفكر في بيضات الفراخ، يُظللهما أيرٌ يُماثل أيركَ المبروك في العرض والارتفاع... أو ألقِ بنفسك مِن فوق أعمِدة ذلك المعبد البعيد إلى الخلاء، ولو كُنت المَسيح حقًّا فسترفعك الملائكة قبل أن تلمس الأرض، وسَاعتها، سأكون أول الساجدين لك تبجيلًا واحترامًا، وسأملأ ساحة المندل بحكاياتك حتى تصير بين مَعشر الإنس نجمًا يَستحق الاقتداء». الخبيث المَخفي يختبر سُليمان السيوفي، يُريد أن يُحرِّك المَسيح الحَي على هَواه، ومَا كُنت لأتهرب مِن إلقاء نفسي من فوق المعبد؛ إلا لرفضي إيقاظ الملائكة على مَلا وِشهم في مثل تلك الساعة، هم يَسهرون على مُراقبة البشر طوال الليل، لكني على أي حال أخرجت المعجون السحري الذي استخلصته مِن قضبان الثيران المُجففة في الشمس، توليفة سليمان للانتشاء، خمَّست في وَجهه خمس

خمسات لأقي أيري شرَّ التَّبر والحسد والارتخاء، ثم أمرته بدهان مَوضع ذكره المفقود في كل يوم من بعد صَلاة العشاء، فشكرني العكروت، ووعدني بالتجربة، قبل أن يهمس في أذني بورع: «إني مُصدِّقُك، وكان ذلك مني اختبارًا، فالمَسيح المنتظر؛ ما كان ليَرضخ وينساق إلى تجربة أراد فيها عبدٌ فقير من معشر الجن أن يُحركه كيفما يَشاء»، ثم تجسَّد دُخانه في هيئة أبي رحمه الله، ففر الدمع من عيني دُون عناء، قبل أن يُحَذِّرني بصوته الذي أفتقده؛ مِن مغَّبة اقتناء الكرة القرمزية التي أحملها في حقيبة بَختة: «تِلك الكُرة جلبت على الغجر أسوأ اللعنات، ألم ترَ كَيف فعلت بهيئة «جعجو»؟ لقد وهبته الخلود مئتي عام، لكنها حوَّلته إلى حطام، كَذلك فقد جذبت هَجين ثور نجس، ناكح إحدى بنات البشر، وأنجب منها غُلامًا مشوه الهيئة، أنصحك بالتخلص من تلك الكرة الملعونة دُون تراجع يا سليمان، فشيمة الغجر الخيانة والخبث والالتواء، واعلَمْ، أن تدميرها لا يقدر عليه إنسٌ ولا جان، لكني أستطيع أن أرشدك إلى مكان تدفنها فيه، على عُمق لا يصل إليه بشر، أو موضع في النهر، ليس له قعر، وليطمس الطمي الأحمر تلك اللعنة حتى آخر يوم في ذلك الزمن».

وزنت كلمات الخَصيّ، ووجدت فيما قال - ورغم العِنة فيه - رُجحانًا وكياسة، لا أريد لأنفي أن يصير مثل التابوت، في طول أنف جعجو، ولا أريد أن أعيش حتى يأتي زمان يَصير فيه أيري بقايا دودة لا تصلح لصيد سمكة كفيفة، ثم قال العقل الراجِح بعد كُحة خفيفة: قد يكون في تلك الكرة سِرًّا من أسرار البسيطة، لم أرَ قبلها جِسمًا يَدور في الهواء دُون خيوط، أنا الذي طالما التقطَت

عيناي الحساسة كل خِدع السَّحرة، خاصة النِّمَر الشهيرة في سيرك «شفيق وزة»، ذلك الخسيس الذي تقرّب إلى أمي «نواعم مكرم» قبل وفاة أبي، ويامَا أمرني بالنزول إلى السوق لأشتري البرتقان في الصيف، ليخلو له الجو مع سِت الحَبايب، قبل أن يَرموني بالشهور في «مارستان قلاوون»، ويدَّعيان أني مَريض مناخوليا، سِجن الديميرخانة كان أقرب لفخامة قصر رأس التين(129) مُقارنة بذلك المَكان الذَّميم. ما علينا، لقد استدرجت تلك الكرة القرمزية الثورَ الذي قتل «زهرة» و«الوهم»، إلى فَخ مُميت، انطبقت عليه الحيطان بعد فصل الرأس العَجيب بسكين الجدع الكركوبة «جعجو»، لقد مَات ثور فريد، ووُلِد مِن نسله جيش من الألغاز.

كَان ذلك حِين عقَّب شَنتَف: «إن بقاءك هنا لدقيقة إضافية بصُحبة تلك الكرة الملعونة يُعرضك للموت المحتوم يا ابن نواعم، قد يكون هناك ثور آخر تأخر أو ضلَّ طريق الوصول، أو ربما تمساح للتو خرج من النيل ليلحق بك بعد صلاة الظهر على طول»... لِماذا ذكر الخصيّ اسم أمي نواعم؟ هل حضَّرَته تلك الولية المأبونة بالسحر ثُم أمرته أن يتهمني بالفشل والتثبيط والتخييب كَما اعتادت أن تفعل كل نهار على غيار الريق؟ وكيف عرف هيئة المَرحوم أبي فتجسَّد على شَاكلته ولم تكن له صورة فوتوغراف واحدة أو رسم؟ هل يرى مُخي عاريًا بدون لِباس؟ هل اطّلع على كُل مَا مَررت به في حَياتي؟ هَل يَعلم بأمر قِصَّتي المُخزية مع المدعوة «عَبلة زغلول»؟ وبمجرد ما ذكرت سيرة الزفتة الكارثة؛ انفتحت في الدخان الأسود مسافة، قُوس قُبّته مُنقلبة، إلى أسفل، هِلال، ابتسامة، قبل أن يقطع ابن

الرفضي أفكاري باستهانة: «سِرك المكنون؛ في بير يا سُولوم، إلى يوم القيامة»، وغمز الوِسِخ بعين تجلّت وسط الدخان، قبل أن يُعقب «وليجمعنا الله في حمّام مليان نسوان»، الناقص يعلم بشأن «عبلة زغلول».

اضطربت مثانتي، كأني أكلت قِدرة فول وعليها شكارة كمُّون، تعرّقت راحة يدي، وارتعشت الأصابع، لقد عِشت عُمري أخشى تلك اللحظة، وتمنيت لتلك الذِّكرى المخجلة أن تزول، لم ينتشلني من الفِكر، إلا اقتراب نَفر من أهل سُوهاج، فغمغمَ «شَنتَف» في تحذير: «الوقت هو العدو يا سليمان، لقد أعذر مَن أنذر»، ثم انقشع، لم يترك وراءه سوى ضَحكة خَبيثة أصابتني بالدوار، ثم أتى الناس في غوث وهَرولة، ومن ورائهم مُفاجأة تتدحرج على الرمال، «شِكيب عبد الصَّمد»، الحَواريّ الأصيل الذي ينتهي نسبُه عند يأجوج ومأجوج من ناحية الخيلان، دام شخيرُه وسلّك الرَّب مناخيره، لم يَهرب، لقد زحف على الرمال زَحْف فرس نهر دون سيقان، ليأتي بالإغاثة قبل غُروب الشمس، وكِدت من الفرحة أن أتف في يدي وأصافحه، لولا أني أعرف أين يَضع يده غالبًا! لكنه على كل حال؛ استدعى الأهالي الذين حدَّدوا مَوضعي بسبب صوت السقوط العنيف لأحجار السرداب، والذي نَفيتْ معرفتي بمكانه نفيًا مُبينًا وآثرت الشُكات.

حِين أفاقت «بَختة» بصفعة من يد صَعيدي، وفحل بَصل انغرس في الأنف حتى بلغ اللحمية، تحرَّكت أطراف الألماظية، فاطمأننتُ أن العُنق لم يُدك، وحَملها على ظهري من السرداب لم يَرُح هَدرًا، فطلبت مِنها التزام الصَّمت واتّباعي دُون سؤال. رَكبنا بصُحبة

«شِكيب» باخرة عَائدة إلى المحروسة، فارّين مِن الموت على يد ثور، كل تِمساح هائم، وقرصات الناموس المتآمِر، على المتن. طلبت من الحُرمة «بَختة» إقصاء القوّاد «شَنتَف» عن ضَفائرها المُحمَّلة بالرمال، لامست المشط، فخرج الجيص الأسود من الأودة ضَاحكًا شامتًا، ولم أجرؤ أن أحكي لها بما نوّه عنه الوِسِخ، خوفًا من فضح قصتي مع الحُرمة «عبلة زغلول»، واستأنفت الحَكي عَمَّا حدث لبَختة مِن بعد ارتطامها بالأحجار المرصوصة، ثم مقتل العجوز بطعنة نافذة كَسَرت الترقوة، ومُصارعتي للوحش بجدارة «هرقل ابن الأولمب» حتى فصلت رأسه ورميتها ع الأرض، وشُربي للسيجارة، ثم حمل الألماظية على كتفي بكُل جَلَد، وإنقاذها مِن كُل ثعبان، نِسر، ضبع وأسد، ثم لقائي بالأهالي، وكيف أن شِكيب كَان السَّبب، سأذبح له عجل متوازي الأضلاع، شُكرانية على ما فعل.

لما انتهيت، أخرجت الكُرة القرمزية مِن الكِيس وتأملتها في النور، مَشوبة كَانت بصُفرة، تُشبه صُهارة حِمم بركانية، تتحرك على سطحها في نعومة، تغلي وتُبقبق رغم برودة سطحها الكامل المثالي. حين سَألت «بَختة» عن كُنه الكرة، كَانت بالجهل مستكفيّة، قالت، إن معرفتها بالعجوز «جعجو» لا تتعدى كونه أقدم كَائنات الغجر الحيَّة، سَافر إلى سُوهاج قبل بدء الخليقة بأسبوعين، وعلى مدار قرنين وشوية؛ ترك في الأجيال سِحر له قيمة مرعية.

كَان ذلك حين تذكّرت أمرًا مَضى عليه وقت طويل، ذِكرى جميلة وفُراق أليم، في آخر يوم لي بأرض «النيام نيام» حين ودَّعت جلال، وأهدتني أمه يَومها سِلسِلة بها حَجَر قُرمزي على هيئة نجمة، نزعته

من صدري ووضعته فوق الكرة لمقارنة المعدن بالمعدن، ومَا حدث كَان له وَقْع مدوّي، فقد انجذبت كل الصُّهارة نحو مَوضع الحَجر، واهتزت الكرة بشكل لا يُحتمل، تملّكها الغيظ وأصابها الخبل، حتى كَادت أن تطير من بين أصابعي القابضة عليها في استماتة، قبل أن يصدر عنها صوت طقطقات، ثم تشققت قشرتها وتساقطت، تُراب، وتبدّى بداخلها آخر شَيء كُنت أنتظر رُؤياه، خاتم غليظ مِن مَعدن أخضر عَجيب، والفصّ، عَرش شَاغر، نجميّ الهيئة، له أعمدة تنتظر مَلِكًا ليقود الرعية من فوقها، ولم أجتهد لأدرك أن حجمه يتناسب تمامًا مع حَجم حَجر «زهرة» القرمزي الذي حرّرته، وما أن قرّبته من الخاتم؛ حتى انجذب انجذاب المغناطيس للحديد، الْتحم بصوت فرقعة مَحدود، ولم تُجْدِ مُحاولات بث الفُرقة بينهما بأي وعود، وريث جلس على عرشه بَعد سِنين من الحرمان، فجأة، اعترتني شهوة لا أعرف لها مَصدرًا، ثم تجلى الوحي في أذني اليمنى، فيضان، هَمَس قائلًا: «آنَ الأوان يا سليمان أن تكون شاكوش هذا الزمان، وكَفاك أن تعيش عيشة المسمار؛ يُدقُّ على رأسك ليل نهار»، فتهيَّأتْ نفسي على ارتداء الخاتم، موقنًا بنوالي البركة، حتى أفرد سيطرتي المُكن على العالم والخَلْق النكرة، ليسود العدل في أركان المعمورة، ولكن، استوقفتني «بَختة» بملامح قَلِقَة، شأن كل حُرمة نِكدية تُفسد سَاعة الحَظ والمتعة، طلبت مِني التروّي، وعدم التسرع في ارتداء ذلك الخاتم: «ربما يحمل لعنة، أو يَسكُنه أحد المرَدَة»، اتركه معي، أُخفِيه في صدري من اللصوص وقُطاع الطرق، حتى نجد له صِفة نافعة أو صِرفة مُربحة».

مَن التي تتكلم؟ الملبوسة المركوبة بأغا الخصيان! لَم تكُن الحُرمة الغجرية لتُثنيني عَن مَصيري المَحتوم المَكتوب، في اللوح المحفوظ بحُروف من ذَهب، فاسم «سليمان» الذي حَملته مُنذ ولدت، ليس عبثًا، بل هو علامة؛ انتظرت طول العُمر أن تظهر وتتجلّى، إرْث لطالما استحققتُه لكنه تأخّر؛ بسبب ظلم أزواج أُمّي إلهي يصيبهم جميعًا بالعنّة والسيلان والبرص والزنطاريا، اضطهدوني منذ بلغت الحُلم، ونكحوا الحُرمة «نواعم مكرم» في الأودة المُجاورة، كُل ليلة، هِئ ومِئ وحاسب يا سيد بطّل زَق، وفي الصباح، تُبلل شَعرها، وتكُب مياه الطّشت في الحارة أمام أعين الجارات، لتُشعلهن حَسدًا، ولتعرف كُل حرمة منهن أن «نواعم» امرأة شهية مرغوبة، مُهلِكة لرُكب أجعص الرجال، وحين اعترضتُ على مَسلكها يومًا وصَرَخت فيها «بطّلي يا أمّه استهبال»، لم تستجب، ولسواد قلبها، وكونها برج السرطان لم تغفر لي يومًا استيقاظي قرفان، وتسخين حلة مياه حتى نقطة الغليان، ثم كبها على رأسها وهي نائمة، واحراق ستائر غُرفتها، لعلها تِختِشي ولا تُنجب المزيد من العيال، فما كان منه الجاحدة إلا أن ألقت بي في غَياهب «المارستان القلاووني»(130)، ليَخلُو لها الجو مع اللي يِسوَى واللي ما يِسواش. يا ليتها تراني الآن، وتشهد المُعجزة الجديدة التي تنضم إلى جُملة المُعجزات، خاتم «سُليمان الحكيم» ذات نفسه، مَسئولية جديدة تُلقى على كَاهل العبد لله، فما أعطاه الرب لكل نبيّ بالملعقة، أرِثُه في ذلك الزمان بالمغرفة، فالأرض تفتقدُ الرُّسل والأنبياء، لقرون خلَت من قبل بعثي في ذلك الشتاء.

مِن الآن؛ سأُعيّن الهُدهُد وزيرًا للمالية، وسأتعلَّم لُغة العناكب والصراصير والنمل، وسأُفصّل للأخطبوط سروالًا له سبعة أرجل، سيَبنِي لي مَردة الجن القناطر والقصور والكباريهات، ويمدّون لي الطُّرق، خطوط السِّكك الحديدية ويرفعون الجُسور، وسيكون لي من الجواري سُبعمائة وكُسور، وحين تستحيل المحروسة - تحت رعاية العبد لله - فِردوسًا من فراديس ألف ليلة وليلة، سأدعو الحرمة «ڤيكتوريا» ملكة الإنكليز، إلى زيارة سخيَّة، سَمك مَشوي وطحينة وجرجير، لها وللرعية، وعلى رأسهم وزيرها «جلادستون» ابن تاجر العبيد(131)، يزأططوا ويحلُّوا بالشَّرْبات، وهُوب؛ فُسحة بالحناطير، أفرّجها مَعالم المحروسة، من خان الخليلي للسيدة زينب، وأجيب لها أبو فروة(132) من بركة الفيل، وبصنعة لطافة كِده وهي في طريقها بالباخرة للإسكندرية، سآتي بعرشها في لَمح البَصر من «لوندرة» إلى مُستوصفي المجيد بالسيدة زينب، وسأطلب من الأسطى «عبده» النجار أن ينحت عليه شوية أويما(133) مُعتبرين، ليُغيروا هيئة العرش حبتين، ووصَّيتُه أن يُطوِّل خشب الضهر شِبرين، لأختبر الفطانة في الولية الإنكليزية والمَفهومية، إن أدركت أن ذلك عَرشها، فستَسجُد على الأرض أمامي في تبجيل، وستعرف مَن هو «سليمان السيوفي»، فتترجاني أن أكتب الكتاب وأعلّي الجواب، ونعمل فرحنا في قصر الخديوي ونِسقِي الشربات، رغم إنها ماشية في الخمسين؛ وأرملة مكمكمة من ييجي سبع سنين، لكن العود جَامد ومَتين، يستحمل القدرات السليمانية الفريدة منقطعة النظير في السرير، تمهيدًا لغزو إنكلترا بمشيئة الله.

ولم أكن لأُضيِّع لَحظة مِن العُمر في أحلام يقظة آتية آتية لا محالة، والدنيا للتوّ توليني ظَهرها صَاغرة خاضعة لأركبها ببردعة مطعَّمة بالذهب. وضعت الخاتم في إصبع السبابة اليسرى رغم اعتراض الغجرية، أغمضت عينَيَّ شوية، وسَحبت لرئتي شهيقًا ثم أمرت الماء حول الباخرة أن ينشق كما انشقّ يَومًا بين يدَيْ خالي موسى، فلم يَستجب، وأدركت ساعتها أن الماء العذب ثقيل، لا يُقارَن بماء البحر المالح. فتمنيت طَبق فَاكِهة كبيرًا، ولم تتدلى حتى برتقانة فاسدة مِن بَين السُّحب إلى فمي، فما كان مني إلا أن أشرتُ بالخاتم نحو «شِكيب»، وأمرته في سرِّي أن ينقلب إنسانًا، فلم يرتجّ جَسده أو حتى يَهتز شنبه، بل وفاحَ منه صنان السعادة وهو غير دريان. ففركت الخاتم، دعكته، وغسلت حَجَره بالليمون والمياه الجارية، ومَا حدث كَان أعجَب مِن العَجب، لم يَحدث شيء بالمرَّة، أرجعت ذلك العطل إلى أن الخاتم رُبَّما يَحتاج إلى صقل وتلميع عند جواهرجي عُقر، حتى يَعود للعمل ويُنفذ ما آمره، فقد كَان مَدفونًا في صَخرة منذ عَهد جدي «سُليمان الأول» عليه السلام، وربما أصابه الذهان، ونسي أنه مبروك مسحور يُرفع عليه الأذان، وهَا أنا أرثه لأستكمل مَسيرة الشجعان، مَسيحًا مُخلِّصًا سُليماني المَلكات، يُحيي الموتى ويُسخر الجنيات.

قبل أن تَصِل الباخرة إلى المَحروسة، كَان عليَّ تجفيف مياه المَجاري التي اجتاحت ثنايا عقلي وأغرقته. بدأتُ بتدوين شهادتي على الأحداث الجِسام التي رأيتها في سُوهاج، حتى لا يقرضها نملُ النسيان، ثم استجوبت الحُرمة الغجرية «بَختة» مِرارًا وتكرارًا

حتى كَادت تتقيأ مِن الإلحاح، ولم أجد فيما قالته إضافة أو جَلاء، ولمّا سألتها عن خَصِيّ الجان «شَنتَف»، قالت إنه انزوى بعيدًا حتى يأمن بطشي، لمَّا رأى خاتم «سليمان» في إصبعي. أما الثور القاتل؛ والذي استوجب سِنة أفيون استحلبتها تحت اللسان حتى أستوعب زيارته المفاجئة لسِرداب جعجو، فلم أجد له تفسيرًا كافيًا، إن كَان للوهم العملاق أخٌ قزم يَعيش في معدته كالجنين، «كمير»، كَما قالت إلياذة «هوميروس» منذ مئات السنين، فذلك الثور ليس إلا نتاج فلاح مَصمَص فدان أفيون حتى اشتهى بَقرة عُشر فنكحها، أو حُرمة سكرانة راودت ثورًا عن نفسه فلم يعصم نفسه، وظني أن الأولى أقرب للحدوث لأن الثور قد يفلق الحُرمة نِصفين إنِ اشتهى.

لما رِسيت الباخرة في ميناء بولاق، ولكون العبد لله فطنًا وداهية، ذا فراسة اعتادت أن تشتمَّ الخطر حتى وإن كان في العِراق، حَدث ما توقعت، حَارس «كارليسمو» كَان متربصًا بجوار الوكالة، غَاية في الرذالة، العصبية تنكح ملامحه دون زيت تليين، فمُه مُصاب بكدمتِي النبوية، وفي يده كُرباج مَجدول وبطحة بيرة طاليانية، فما كَان مني إلا أن تخفيت عن الأنظار، وأرسلت «شِكيب» إليه برسالة شفويّة تحمل التمويه والإنذار: «لقد سَافر سِيدي سُليمان إلى سُوهاج، واختفت آثارُه هناك. شُهود العيان رأوه وهو يُرفع إلى السَّماء الثالثة، وغالبًا سيصعد إلى السابعة، وسيظل في الملكوت بجانب الرب إلى يوم الحساب، أبلغ سيدك «كارليسمو» الآتي، إن لم يكُف عن تتبع «سليمان»؛ سيُصيبه البُهاق والسيلان والفتاق، وستُطارده الصَّواعق في الآفاق» وما كَان من الحارس إلا أن لَسَع «شِكيب» على إسْته

بالكرباج وألقاه في العربة، راقبت الرطوبة وجَحافل الذباب تضرب ملامح الحارس، ولو استمر في المراقبة لأرسلت عليه الجراد والقمل والضفادِع والدم، وكُل آيات التكدير والهَم، لكن اليأس في النهاية أصابه، وانطلق بالعربة وفيها «شِكيب» يترجرج، فدعوت الله أن يلتزم السُّكات، ويتحمَّل تقريص الحلمات، قبل أن أتسلل إلى المستوصف في خفية، وكان العفش منكوحًا منتهكًا، وإن لم يجد مَن فتّش وبعثر شَيئًا ذا قيمة، فقد صحبت في رحلتي أغلى ما أملك، ساعة الحائط، الكاميرا، أدوات التشريح والبومباغ الأسود الساتان الذي فصَّلَته مِن أجلي «عَواطف فلامنجو» الخياطة أُم رِجل واحدة.

* * *

الرسَالة التالية تُعد وثيقةً مُستقلة ومُنفصلة عَن الأسفار السَّابقة، تم العثورُ عليها بلا تصنيف أو ترقيم مُحدَّد، لكنها تخضع لترتيب الأحداث التي مَضت رغم حدوث انفصال زمنيٍّ واضِح في التدوين، يَمتد لأكثر من عشرة أيام على أقصى تقدير، وقد قررَت اللجنة تركَ الرسالة في مكانها كما اختار «سليمان السيوفي» التزامًا بالمهنية والأمانة العلمية.

«د. عادل سَعيد حسُّونة»

رئيس اللجنة

* * *

رسالة استغاثة مِن المَسيح المتين «سُليمان السيوفي» إلى أُم الصِّينيين، ونَصيرة المَظلومين والمنكوبين والمُضطهدين/

الإنبراطورة «تِسي شِي»(134)، زَوجة المَرحوم الغَالي «شيان فنغ»؛ أبو الجميلة «تونزي» والعريس «جورون»، ربنا يحميهم، ليُطيل الرَّب عُمرِك يا ست الكُل حتى تَبلُغي الثانية والسَّبعين، ويُزيل الصفران مِن لون بَشرتك فتستغني عن الحُموم إلى حين، ويُوسِّع جفنيكِ كَام مِللي كده حتى يَتسنى لحدقتيكِ أن تُبصرا المؤامرة الكُبرى التي تُحاك في أرض المَحروسة وأنتِ نايمة على وِدَانك يا سِتْ هَانم، جَاية لك جَاية لك، وكُلي ثِقة ويَقين أنَّ أسفَاري السابقة قد وَرَدت نُسَخها إلى بلاطكِ الكريم، وتمَّت ترجمتها إلى لُغتكِ العويصة التي لا تزيد عن نكش الفراخ بحَرفين، قبل توزيعها في حرملك(135) قصركم المنيف، لتعرف الجواري السابحات في مغاطس لبن الحمير؛ القصَّة الكَاملة الشاملة لسُليمان الحكيم، المَسيح المَصري، قبل أن آتيهن مِن حيث لا يعلمن على رأس جيش، ويَكفي أن يَتصبرن - حتى أتهيأ للزحف المقدس - بقراءة سِيرة جدي الملك «سُليمان»؛ وكيف كَان يطوف في اليوم على تِسعين امرأة ورا بَعض. للأنبياء قوَّة «مَاء» لِمئة رَجُل مُجتَمعين.

عَلى إثر وَعكة صِحّية ألمَّت بالعبد لله لأيام غير معدودة، كَدمة مَجهولة النسب في الوجه، وفقد لِسِنَّة فمي الذهبية؛ أستأنِف تدوين ذلِك السِّفر الكَاشف الفاضِح والهَاتِك للأسرار الباطنية، بَعد تمام تهجيري القَسري المُؤسف والفادِح مِن أودتي الإيجار بالسيدة زينب، والتشميع السفيه الجائر بالشمع الأحمر لباب المُستوصف المَعمور الذي اكتسب شُهرة عالمية بعِلاجه المِئات مِن البشر والحيوان والجان مِن الكَبَّة، الجُدري، الزوغوطَّة وبيض الصيبان(136)،

مُؤامرة مَسبوكة لمَنع الحُجَّاج من الوصول على ظهور الجِمال والبغال مِن شتَّى بِقاع الأرض للطواف حول عفشي المبارك وتقبيل مَقام سِيدي «مُختار السيوفي»، جدِّي لَزَم، والذي استخلصت عِظامه الباقية خِصيصًا مِن تُرب الإمام، ودفنتها في أرضية الأودة بجانب الشبّاك، مع وَضْع قفص مِن الخوص فوقه طربوش أخضر كبير، وصُندوق نذور، لجمع نفقات الجيش الذي سأُحارِب به الكُفَّار في الصين والإكوادور.

إن تعطيل المسيرة النبوية المقدسة بذلك الظلم الفادِح، مُصيبة ضربت سُوق «مَعجون سليمان» للمدامات والذي منه؛ في مقتل، بعد أن بلغ الصِّيط بالتوليفة المُباركة أن قال عنها الشيخ «صالح الدرديري» الكفيف إن «مَن دَهنَ بِها أيرَهُ في كل يوم خميس فلن يُصيبَهُ الرمدُ أبدًا». تَلا تلك الفجيعة انتقالي بكُل تعسُّف واضطهاد؛ هِيلا بِيلا، إلى أودة - مِش ولا بُد خالص - حيطانها مشققة، في الدور الأرضي للوكاندة «شبرد» بالأزبكية، سُكنة غبية، دُون عفشة مَيَّة، دُون شبابيك أو أرضية، بل ولا تطل على ناصية، إقامة جَبرية، بغياب مُتعمَّد لشِكيب عبد الصَّمد، الحواريّ المُزدوج، وسَايس حمير جهنم اللي حِسابه مَعايا بعدين مش دلوقت، وتحت حِراسة مُسلحة مُشددة مِن عَساكر «بيلاطس البنطي» الشَّهير بـ «كارليسمو العِتّين التُّص سنطي»، والذي يدَّعي الذَّكاء والنبوغ، ويتسربل برِداء الفطنة والدهاء، مُسلَّحًا بالمقرونة الإزباجت والصَّلصة الحَمرا، وبضع شَوكات، ومُمارسًا للأفاعيل البهلوانية المايعة الطرية في حَضرة الخديوي اللي ما رِضعش اللبن مِن بِز الشَّمس، والمثل بيقول: «أبو

فصادة بيعجن القشطة برجليه. قالوا: يا سلام؛ كَان بان عليه!».

إلا ما فيه جَريمة واحدة قِدِر البِعيد يفهمها بدون مُعاونة المَسيح المصري، بل وربما تعمَّد الإخفاء والتضليل، إنفاذًا للمُخطط الشيطاني الكَبير، والتي بدأت أولى خُطواته الجُهنمية، بسجني المرير وسلبي مَنصب «مُدير مَصلحة الطب السياسي» الَّذي وُعدت به خلال زِيارتي للسَّماء السَّابعة، ذلك المقام السَّامي الذي خطَّته أقلام القدَر بالحِبر الشيني قدَّام عيني، ليَظهر اسمي في أسواق الخضار، مَرسُومًا في قلب ثمرات الباذنجان والبازلاء، لترصده أعين الخلق دُون عناء؛ وذلك تمهيدًا لإضعاف وتقويض أركَان المَحروسة، والاحتفال في مِيدان العتبة بصلب آخر الأنبياء، بدون طربوش أو بومباغ، وتحت أشعة القمر المَسمومة، وطبع صُورتي في صفحات الجرانيل، تجريسًا وتشنيعًا واحتقارًا وتدليسًا، تحتها عُنوان بُنطُه تخين: «سُليمان السيوفي، مَلك القُطن، صَاحب مناجم الفحم، كاره اللحم، ومُحرر العَبيد... انتقل إلى الملكوت الأعلى من شوية زُغيّرين»؛ لتكون تِلك هِي الإشارة الأولى لبَدء غزو الأمم الأوربية للمحروسة، وأَسْر الخديوي ونفيه قبل تقوير فدان من الكوسة.

التاريخ:

يوم لا أعرفه.

إمضا

«سُليمان جابر مختار السيوفي أفندي»؛

«شَارب البحر بالكوز، وتارك الحريم العجوز مِن أجل الجَواري

الكلوكوز(137) ذوات البروز».

***

(129) قصر رأس التين: من أقدم القصور الملكية في مصر، وهو يُطل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بمدينة الإسكندرية.

(130) المارستان/ البيمارستان القلاووني: مُستشفى شامل تم بناؤه في القرن الثالث عشر، في عَهد المنصور قلاوون، وتم تخصيصه فيما بعد لعلاج الأمراض العقلية فقط. بمرور الزمن ارتبطت كلمة «البيمارستان» بالأمراض العقلية، فصارت الناس تُسميه بعد التحريف «مورستان».

(131) «وليم جلادستون»: رئيس وزراء بريطانيا «١٨٦٨ – ١٨٧٤». اشتهر «جلادستون» بموقفه المُعارض لتحرير العبيد، لتأثره بعمل والده كأكبر تاجر للعبيد في بريطانيا. في فترة ولايته الثانية من سنة ١٨٨٢ – ١٨٨٥، صعَّد «جلادستون» أصوات الغضب ضِد مصر في البرلمان الإنجليزي بحجة إنقاذ البلاد من «حالة عنف عسكري» أثناء ثورة عرابي، ليصبح أهم أسباب الاحتلال، وداعمًا أساسيًا لعدم الانسحاب بعد سنوات من استقرار الأمور السياسية.

(132) أبو فروة أو الكستناء: وهو أحد أنواع المكسَّرات.

(133) الأويما: مَهارة يدوية تُستخدم للرسم والنحت على الخشب.

(134) الوصيَّةُ على العرش، والتي سيطرت على المملكة الصينية في أواخر عهد أسرة «تشينغ» لمدة ٤٧ عامًا.

(135) الحرملِك: كلمة تركية تعني الجناح الخاص بالنساء، ولفظ «حريم» مُشتق من الحَرَم، وحَرَم الرجل هي امرأته التي يقاتل ويدافع عنها.

(136) الصِّيبان: بيض حشرة القمل.

(137) يقصِد الجلوكوز؛ السكَّر النباتي.

سِفر التيه/ إصحاح نِمرة ٨٧

أمَّا بعد،

فمِن العَجب، أن الأسبوع الذي مضى وانقضى، مَحَا في المُخ كُل ذِكرى للإصابة الغَامِضة التي مُنيت بها في قفايا دُون سَبب، ثقب صَغير أسفر عن خُرَّاج حَاصَره وَرم ملتهب، لا أدري كَيف أُصبت به؟ مَن الذي حَقَد وغلّ فأصرَّ واستقرّ وسط غيطان القصب فترصَّدني بالاغتيال غدرًا وطعنًا من الخلف في خيانة صَارخة؟ بل ولستُ أدري مَا تلا ذلك مِن أحداث، ولِماذا وَجدت في جَيب سروالي سِنَّتي الذهبية؟ ومشط الولية الغجرية؟ وكان كُل مَا أدركت وَسَط مستنقع النسيان؛ أني فقط سُليمان، خرِّيج الليمان، ونَبي ذلك الزَّمان، ثُم جَاهدت نفسي واستمنيت سبع مرات على مدار يومين حتى أستعيد أسماء الآباء المُؤسسين للسلالة السُليمانية إلى أن وَصلت للجِد الأكبر «السيوفي» بصُعوبة بالغة وإنهاك.

لقد استيقظت في لوكاندة «شِبرد» مُنذ أيام، في أودة يَعافها الدبَّان، بعد هَدم مُستوصفي الحرام بفيل غاضب له خرطومان، يَركبه الكَافِر «كارليسمو البُنطي»، بعد أن خَذلتني طُيور أبابيل مشويّة، لم تنجدني أسرابها حين استدعيتها بنفخات هِستيرية في الصُّفَّارة النحاسية وتلويح مجنون بالراية البُرتقاني من فوق سطح الوكالة السعيدية، والتمست للطيور العُذر صَراحة؛ فالمَحروسة ما بين شَهرَي «كيهك وطوبة»(138) غاية في البرودة، تختفي فيها الدودة، وتجف غصون الأشجار فتخلو من الحشرات الحقودة.

لقد بلغنا آخر الزَّمان، اقتربَت القيامة يا سَادة، والقهوة لم تعُد سادَة، المسيح الحُر أصبح مقهورًا ومغلوبًا على أمره، يَخضع الآن لرقابة دُولاب مِن خَشب الزَّان في هيئة إنسان، كَيف تجرَّأت إدارة لوكاندة عريقة مِثل «شِبرد» على تعيين «دُب بلدي» لخِدمة الزبائن في الأُوَد؟ سأرفع شكوى مُكن إلى صَاحب اللوكاندة الألماني «فيليب زاك» ضد ذلك المُتلصّص الذي يفتح شبّاك زُغيَّر في بابي كُل نِصف سَاعة، ليطّلع على العبد لله من دون إحم ولا دَستور، حتى إنه باغتني أكثر مِن مرَّة، وكُنت أستمني في الرُّكن خِشية أن يتقاعد أيري ويطلب المعاش، أو يُصيبه الإحباط والانكسار والعجز فيتقهقر في حَربه مَع أقرب حُرمة وينال هزيمة منكرة، وزاد الطين بلّة، أن ذلك الدولاب لا يأتيني بالطعام في اليوم إلا مرَّة واحدة، يَفتح الباب المُغلق بالمِزلاج من الخَارج ليُلقي بطبق صَدِئ على الأرض، وكَأني كَلب أرمَنت(139)، فيه قُلقاس وخُبّيزة وحِتة جِبنة إسطنبولي يَعافها ضُرضَار، حُرمانية ونجاسة مع سبق الترصُّد والإصرار، ليس للصدفة مَكان في زمن الاضطهاد الوحشي لسليمان السيوفي، ألَمْ أُحرِّم ذلك الطَّعام بالذات على المؤمنين برسالتي في الأسفار؟ كُل دَه كُوم، والزيارات اليومية لحَارس الإيطالياني النجس - والذي لا أعلم اسمه حتى الآن - كُوم تاني، لا أدري لِماذا تضخم أنفه كثمرة بطاطس حامضة؟ ولماذا يَملؤه الحِقد مِن ناحيتي كَأني حبَّلت بطن أُمّه بخمسة توائم قمحيين دُون إذن منه؟ يأتيني في كل يوم من بعد المغرب، يَدخل الأودة فلا يُلقي السَّلام، ثم يَسألني بعربية مِدَغْدَغة: «هل تذكَّرت شيئًا؟»، ولما أُجيبه بالنفي، وأطلب منه الإذن في زيارة بُوظة «كتّي» لأشرب الكونياك وأمتص الأفيون تحت لساني، أو حتى

أخطف رِجلي إلى السماء بسرعة لأشرب فنجان قهوة مع الملايكة ونلعب دور ضُومَنة لعلّي أتذكّر، يَرمقني بغِل أكبر، ثم يَسبّني قائلًا: «فا آه فارتي فوتّيريه بيتزو دي ميردا»؛ بمعنى: «لينكحك جميعُ أهل الأرض يا كُتلة من الخِراء»، ثم يَرحل بأنفه المتورم بعد أن يأمر الدولاب الحَارس للأودة قائلًا بخنفٍ فادح: «مَحظون عَنيه ذانِك البَجنون أن يُخنُج مِن هُنا دُون إذْن مني، أو مِن السيد «كانيسمو» بهما حَدَت».

بعد يَومين، انفتح مِزلاج الباب، وتدحرَج الخَائن الغدَّار المتواطئ المتآمر «شِكيب - الإسخريوطي العرقان - عبد الصَّمد»، بعين يُمنى مُغلقة بورم باذنجانيّ اللون مَشوب بصُفرة، تدلى حتى الخَد. العَور؛ عَلامة الدجَّال المُفضلة في وجوه عصابته، أو أن السمين أُصيب بِبُكسات مُتتالية ومُفترية، مِن قبضة شخص أيسر - كَارليسمو البنطي كما رَصدت في اللقاء الأول - مُنذ ما لا يقل عن أسبوع، ذلك بالإضافة لفقد سِنتين أماميتين، وقَطْع جائر في حَلمة الأذن اليُسرى، انتزع القرط الصَّدِئ. لم تُضِف الإصابات شَيئًا مِن القبح على ملامح حفيد يأجوج ومأجوج، فمن بعد بلوغ قاع المرحاض ليس هناك قاع يجوز الغطس إليه.

وخُلاصة ما قال «مَلِك الصُنان» بصُعوبة شديدة جرَّاء الهَتَم الحديث في فمه، والغباء المُستحكم والرابض باسترخاء ونغنغة في تلافيف مُخه، بسبب نِكاح الموتى المزمن المُستمر؛ إنه؛ كشِكيب عبد الصَّمد، لم يعترف بمكاني أمام «كَارليسمو» حين تم القبض عليه، لكنه اعترف بكُل شَيء عدا ذلك، خَوفًا من السجن، من

الموت، وخشية الحِرمان من نِكاح جثث المُتوفيات. لقد تحمَّل - بسبب صمته - تَعذيبًا شَديدًا لا يحتمله وحيدُ القرن، أوشك فيه رجال الإيطالياني أن يَجُبّوا خصيتَيْه بمقص حديد، ويا ليتهم فَعلوا صراحة، فإن مُوسم تزاوج شِكيب طقس لا يُحتمل. ونزلت الدموع من رَبيب المَسمَط، دموع التماسيح التي لم ولن تَخِيل على العبد لله، ثم أقسم بشرف عَمّتي «تفيدة مَاكوين»، أن يكشف لي أيره لأرصد بنفسي الضرر الذي لحق بخصيتَيْه جراء القرصات والسحجات، وكَان ذلك كابوسًا يجعل الرضيع شايب في لمح البصر، صَفعته حتى تراجع عن التشليح، وأمرته بقراءة سورة البقرة كاملة، سُبعمائة ستة وثمانين مرة، حتى تأتيني السماء بعلامة براءته مِن الخيانة المُرَّة، أو أنفيه إلى مِرحاض زاوية «المزنوق» بالدرب الأحمر، ليستنشق الروائح ويقتات من القبائح مثل المِعيز الشاردة.

لم أكن أعلم حتى تِلك اللحظة؛ أن البعيد ليس لديه مِلَّة من الأساس، ولا يعرف ما هي سُورة البقرة أو سورة الناس، فأدخلته الإسلام، ثُم وَعدته بالمسيحية كَمان، بشرط حَاسم لا يقبل الفِصال والجدال؛ بأن ينزل الشارع ليَبيع مِن أجلي صُكوك «الغُفران» في السِّر، مُزيلة بوصَاية مِنّي، وخِتم يَحمل الحروف الأولى من اسمي كاملًا، عشر أجداد (وهبة الصَّك ١ جنيه إنجليزي) ١٠٪ ضَريبة الوقاية مِن نُور القمر، ويُجدد الاشتراك كُل سنة حتى يوم الوفاة، ليَضمن المُؤمن لنفسه مَكانًا بريمو في الصفوف الأولى للملكوت، واشترطت على «شِكيب» كذلك - خوفًا من ازدحام جنة الخُلد بمَن هبّ ودَبّ - ألَّا يطَّلع على ذلك السِّر إلا ثلاث أنفُس فقط، أو خمسة وعشرين، أو

مئتين، أو كُل من يُلاقيه بين السيدة زينب والحُسين، وأخبرته كذلك ألا يذكُر اسمي مهما حدث، إلا لكُل مَن يلقاهم فقط، وكما قال المَثل: داري على شَمعِتك تِقيد.

لم تمُر تلك الليلة الغبراء، حتى تآمر القمر كعادته الوِسخة مع بائعي العرقسوس، ليطرق بابي وتحت أشعته المَسمومة؛ آخر شخص تخيلت أن أقابله في تلك الحياة... الحكيمباشي «ساسون» الله يرحمه ويِحسِن إليه... في البداية ظننتني أحلم، ثم ضَربَتني الصاعقة، وكِدت مَن الهَلع أن أنتف شوشة «شِكيب» من مُقدمة رَأسه لأحشرها في إسته وأشعل الأطراف بالكبريت، لقد مَات الحكيمباشي «ساسون» مُنذ عدَّة سَنوات، أمام عَين العبد لله، حِين هرسه قطيع حُمر وَحشية بصمجية، خَرَجت مِن بَحر الإسكندرية وقت النوّة الشتوية(140)، وكنَّا وقتها نِسبح في الميَّة بلابيص بصُحبة الحُرمة «ماتيلدا» زوجة إصطِفان الكنفاني بباب الشعرية، وقد كفَّنت الحكيمباشي بمزيد من الحزن، ودَفنته بيدي في مقابر اليهود بالبساتين بعدما حَضَرت الصَّلاة عليه في مَعبد اليهود وتلوت «الكاديش»(141)، بعد التقاط صورة تذكارية بجانبه وهو مُستلقي في التابوت.

لم يتبدَّد الهلع من رأسي إلا حين انتبهت، فلُمت نفسي على الغفلة، لقد نسيت أن مَوتى اليهود يُبعثون مع ظُهور المَسيح «لقد أحياك بَعثي يا ساسون، حمد لله على السلامة»، ذلك ما نفاه بابتسامته المَعهودة حين اقترب مني ووضع يده على كتفي بملامِح ملؤها الشَّفقة، ثم أخرَج مِن جيبه صُورة زُغيِّرة، مقاس كَارت بُوستال،

تجمعني معه أمام بِركة الفيل، ووراءنا حمار استأجرناه سَوا: «سُولوم يا مِسكين، أنا لم أمُت غرقان في بحر الإسكندرية، والحُمر غير وَحشية، بل هو حمار كَرِيناه من المكاري، عقلك كالعادة مُنزلِق مُنفلِق مُنفلِت يُخفي ويُواري، يَختلِق الضلالات دُون نية مُسبقة، لأنك توقفت عن العلاج، إيمانًا منك بأني مُتآمِر أنوي الأذيَّة»، ثُم تَطايَرَت التَّخاريف من فمه، سَكاكين مطبخ ملوثة بالدهون، طَعَنت قناعاتي بالتلفيق والغواية، قال عني في نِكاية: «إن حالتك العقلية ومن بعد عودتك مِن مَجاهل إفريقيا، انحطَّت واهتزت وتدهورت، رَفضت كُل مُحاولاتي لإقناعك بتناول «عُشبة يُوحنًّا» المُهدِّئة المثبِّطة المُبطِلة للضلالات، ومَع مُرور الأيام؛ تفاقم في عقلك الذُّهان(142)، أصبحت تتجنَّب رؤيتي، بل وصِرت تَهرب مني حين تراني، وإن جَمعتنا صُدفة بالطريق، عَبرت إلى الجَانب الآخر، ثم رَميتَني بكلمات عَجيبة: «يَهوذا يا اللي خُنت المَسيح بإزازة كازوزة»، قَبل أن يَختفي أثرك تَمامًا حين دَخَلت ليمان الديميرخانة».

سَألته بكُل ريبة وشك واستهانة: «إن كُنت الحكيمباشي «سَاسُون» حقًّا؛ فأعطِني أمارة». فهَمَس في أذني: «عَبلة زَغلول»... فانتابني الانكسار والخجل والفضول: «وكَيف عَرفت أني أسكُن لُوكاندة شبرد الآن؟»، فأجابني على طول: «مبدئيًا، تِلك الأودة؛ ليسَت في لُوكاندة «شِبرد» بالأزبكية يا سليمان، ألم تسمع بخبر احتراق اللوكاندة الفخمة مُنذ أيَّام؟ أنت الآن في أودة بمارستان قلاوون»... وقبل أن يُكمِل قصته النيِّئة الحَامضة تقيأت كُل ما أكلت وشربت مُنذ عُمر السَّابعة. أصابت أطرافي بُرودة، وضربتني رعشة، تِلك الإسبتالية

الدَّنسة أسوأ من جناح العبيد في جُهنم الحمرا، قضيت بها أتعس أيام غُمري، مُنذ ألقتني أمي وعشيقُها «شفيق وزة» في غياهب النِّسيان وأنا غض غِرّير، ليخلو لهما الجو ولاد الهِرمة في السرير.

لن أنسى الغمر في المياه المثلجة لسَاعَات، تجرُّع المُلينات المُستمر حتى يتدفَّق إسهالي إلى الإسكندرية زَعمًا بأن ذلك الطقس يُخلِّص جِسمي مِن السَّوداوية(143)، طرقات الشواكيش الرَّتيبة على الرأس حتى أفقد الزمان والمكان، المَجاذيب الذين لا يتوقفون عن الصريخ في زنازينهم طوال الليل، الشَّاب الذي ترجَّاني لشهور طوال أن أقطع أيره بمُوس مكسور، الحُرمة الكركوبة «علوية سبانخ» التي توسَّلت إليَّ أن أنكحها، وكَشفت عَن تديَيْن مُتدليَيْن حتى البلاط، لو مِشيِت على أربعة لحفرت في الأرض خطيْن متوازيَيْن. كَانت فاتنة، مُنذ مئتَيْ عام قبل الميلاد، قبل أن تصير مَعز عَجوز مَريضة بالسيلان، ذَلك بخلاف تجرُّعي الإجباري لجَالونات «عُشبة يُوحنا» التي تناولتها من الفم في أحيان، وأحيانًا مِن إسْتي، في هَيئة حُقن شَرجيَّة، الله يخرب بيت أمك يا نواعم يا مكرم أنت وشفيق زفت وزَّة.

ولتكتمل المُؤامرة، وتَستوي صِينية الأكاذيب على نار هادئة، ويلتف الزُّور والبُهتان حِبالًا حول رقبتي؛ دَخَل مِن الباب؛ النطع الذي تعلَّم الحلاقة في رءوس اليتامى، شامِم جِيص النعامة، «بيلاطس البنطي»، في سُترته «التشيسترفيلد» الأنيقة، وقناع الطَّاعُون الأسود الذي لا يُفارق أنفه، ومن ورائه حارسه الأخنف. تأمل الأودة، نَظر إلى «شِكيب» نظرة طويلة فتبول المأبون على روحه لاإراديًا، ثم اقترب

مِني وقال: «لقد عثرنا عليك بجانب مَسجد السَّيدة زينب مُنذ أيام، نائمًا وَسَط الدَّراويش، مُخرّقًا بالثُّرهات، فأتينا بك إلى الإسبتالية لعلَّك تستفيق، وتخبرنا أين ذهبت بعد الاعتداء على حَارسي الشخصي»... فأجبته بكل يقين: «ذلك إفك مبين، لم يكن المسيح ليمُد يَده بالاعتداء على إنسان أو حيوان» ثم تذكّرت لَحظة تطويح البكس النبوي وكسر زجاجة الكلوروفورم في فم الحارس، فيما عدا ذلك؛ لم يُسفر الاستجواب عن نتيجة تُذكر، ذاكرتي غارقة في ضَباب لوندرة، حَالة سُكْر لم أختبرها مِن قبل.

فَجأة، أومأ «الإيطالياني» لمُساعده، فقبض على رقبتي ودَفعني نَحو الحَائط مُثبتًا، ثم سدَّد لبطني لكمات انتقام مدروسة - أكاد أشعر بوطأتها حتى الآن - صَرخ لأجلها «سَاسُون» شفقة، وكَاد أن يتدخل، لولا نظرة رادعة مِن «بيلاطس» الذي امتلأت عيناه بجنون الارتياب، ثُم قال: «إنك تُخفي الأسرار، ورغم الخبرة والنبوغ، حمار، لقد قرأت أسفارك، وسَمِعت انطباعك عنِّي فِيما تكتُبه كل يوم»، ثُم أخرَجَ مِن حقيبته الجلدية أوراق إنجيلي التي صَادرها من المستوصف المَعمور المُتصل بالملكوت، وأشار إلى كلمة بخَط يَدي، وضع بقلمه خطَّين تحتها، صرخ في جنون: «الخاتم!»... «أين الخاتم؟ لقد أرسلت تلغرافًا إلى قوّاصة سُوهاج، فنفوا كُل خبر قصصته في الأوراق، أي ثور قابلت يا مناخوليا وأي رَجل تخطّى عُمر الإنسان؟ وأين ذلك المكان الذي زَعمت أنك نزلت فيه تحت الأرض؟»، انتابني الخرص والتسلُّخات، لكن وَمَضَات بَرق خاطفة ضَربت أطراف الذاكرة، رأيت خلالها الخاتم في إصبعي مَحشور، فقلت: «لا أعلم شيئًا، عقلي

مُشوّش؟»، ولم يُصدقني «البنطي»، نفَذت اللُّوكَّمِيّات مِن يَد الحَارس اللامة، فأشار إلى الحكيمباشي «سَاسَون» في غضب، فاقترب مني، رَبت على كتفي ومَسَح عرق جبيني بيده، العكروت يُريد أن يَضمن شفاعتي في الملكوت، قلت في نفسي: «عشم إبليس في الجنة». ثم أردف بأسًى مُصطنع ومُزيف: «تلك الجُرعة ستُساعدك لتُدرِك يا سليمان أن أرباب «المناخوليا» في بَني الإنسان؛ عادة ما يَعتقدون؛ أنهم مَسيح ذَلك الزَّمان».

ودُون أن أُبدي موافقة أو اعتراض على تلك الإشاعة المغرِضة؛ حَقَن «ساسون» وريد رقبتي بمَحلول لم أنسَ رائحته يَومًا، مَحلول يُدعى: «غُشبة يُوحنا»، طَرطَرة «بُوسيدون»(144) السّاخنة في حوض استحمام الحمير أهون، عَرق باط أم «شِكيب عبد الصَّمد» وهِي تَمسَح أحجار الهرم الأكبر بالخيشة في شَهر يُونيو ظهرًا... أرحَم وأعطَف وأحنَن.

حين تخلَّل الزيت الحَار شراييني وأوردتي بسُرعة النبض الغشيم؛ أصابتني سَكرات الخُمود والكَسل في لَحَظات، سَلسَل الزبانية رُسغي في حَديد السرير بالكلابشات، ثم ألقى «البنطي» بأسفاري المقدسة في حِجري، ومَعها قلم ودَواية حِبر، وكَان آخر ما نَطَق قبل أن تُغلق أذني أبوابها لتُصلي الجُمعة في يوم الأربعاء: «حَالتك مُزرية، واستئصال الحُمق منك أمر ميئوس مِنه، كَلب يَعود إلى ما تقيأه فيأكله ثانية وثالثة، دُون كلل أو ملل، لقد حقنك الحَكيمباشي «سَاسُون» بذلك المَحلول لتعتزلك «المَلَنْخوليا» قدرَ الإمكان، ولتعكُف على قِراءة ما كَتبته يَداك؛ ذلك أمر لا يقبل الجدال، وإن لم

يستعيد عقلك مَا حَدث وتُدوّنه بخط يُقرأ، ستذَهب إلى الديميرخانة، مُتهمًا بالقتل العَمد لكُل مَن اعترفتَ بقتلهن في أسفارك السابقة التي كتبتها بيديك أثناء إقامتك بلوكاندة بير الوطاويط، وسيساعدك «فوزي خُنفسة» على التذكُّر بطريقته المُثلى، إن مِت بين يديه أو رجليه، فسأعرض جسدك في برميل كبير مَليء بالكلوروفورم، بجانب جُثتَي العملاق والقزم، وسأضع عليه لافتة مَكتوب فيها: «المَسيح المَزعوم، مُدّعي الألوهية»... قالها «البنطي كارليسمو» بتهكم رَخيص وعصبية، ورمقني «ساسون» بشكّ، فهَمَست بما تبقى في رئتيّ من هَواء: «في يوم قريب؛ سينقلب السِّحرُ على السَّاحر، وسيأتي «جبريل» ليُنقذني من ذلك البرميل...» ضَحِك الخَسيس مِن خلف القِناع، ورماني «ساسون» بنظرة تجمع بين الشفقة والعتاب، ثم رحلوا جَميعًا عَن الأودة، إياكش يولّعوا بجاز، لم يتركوا إلا «شِكيب عبد الصَّمد» ملك الاشمئزاز، بجراحِهِ المزعومة المزيفة المُلفّقة، ليتجسس على الأقاصيص، وينقل إليهم كُل فَسْيَة تحدُث وكُل جِيص، بكل تعريص.

«رَبِّي، لقد حَاصَر الأعداءُ قلعة العبد لله،

للنَّيل مِن شمعتي الأزلية الخالدة،

ولتدمير أيْري الذي أوشك أن يَشخُر ويثور ثورة عَارمة،

تهُز عَرش مَمالك الصِّين وإسبانيا والبرتغال قاطِبة،

رافضًا شاجبًا لكُل المؤامرات الدَّنيئة التي حِيكت ضِدّه حِقدًا ونِقمة،

مُستمتعًا بالمُقارنات المُحبِطة لأعدائي؛

الراجين الآملين في كل لحظة؛ أن يتنحَّى عَن انتصابه المُشرِّف،

والذي بذل كُل الجُهد والعرق في الحُصول عليه،

وواظب على استدامته بالمعجون السُّليماني الناجِع الشافي،

وذلك مِن بعد واقعة الحُرمة «عَبلة زَغلول» التي كَادت أن تُنهي تاريخي،

وتُذهب بسُمعتي العَطِرة ومَسيرتي الشَّامخة المتعجرفة إلى مَجاهل الشقاء،

ومُستنقعات البؤس والتعاسة، ببَثّ البَلبلة والتخبُّط والفتنة

وَسَط نميمة النسوة الراقدات مَلْط في الحمَّامات الشعبية

يأكُلن المشمش ويُلقين النَّوى على بعضهن البعض في سخرية».

كَانت تِلك آخر كَلمات دَعوتُ بِها، قبل أن أسقُط سُقوطًا مُروعًا في بالوعة «يُوحنا»، فوهة اليأس، نِمت سَاعات لم أُحصِها، ربَّما يَومًا أو بعض يوم، وحين تيقظت في منتصف الليل، كُنت في الأودة مُلقًى بجانب الحائط، أشعَلت شَمعة، فرأيت ظِل شَخص آخر لا أعرفه، أكثر صَمتًا، أكثر «طُزا» في البشرية، كَسول غَافل، متقاعد، بليد وفاتر، عاجز عن التفكير، عن التدبير، لا يُجيد إلا التبول، مَن أَكَل الحَشيش بالعيش يَعلم تمامًا وزن قدم الفيل الحَكيم الدافئة التي تدهَس المُخ برفق لذيذ، تهرِس عقارب الزمن، تفرُم الذكريات، تصُمّ الآذان بفنطاس من الشمع الساخن، وتُعمي بصيرتي كخُفَّاش في

وَضَح النَّهار، والأنكى من كل ذلك، تُعطِّل أَيْري الطموح عَن التمدُّد العمراني والتمطي والتجشؤ، فيموت مقهورًا مدحورًا ومغلوبًا على أمره، مَسمومًا بعُشبة يوحنا التي طَالما نالت منه عبر السنين، يَموت أُضحية، شَهيدًا، مِن أجل أن يستيقظ «سُليمان» جديد لا يُعوَّل عليه، ولا يُعمل بمُقتضاه، ولا يَجري مَفعوله، خالٍ من الدسم، من السمن ومن العسل، هَجرت الأسماكُ بَحرَه بلا رجعة، مَطرود مِن الملكوت شر طردة، سيستبدل مَرمى الجمرات في الحرم بدلًا من إبليس(145)، وسأستبدل البغلة بركوب العار من الخميس للخميس، لم أعُد «المسيح»، لم أعُد نابليون الأنبياء، ذلك خَبل، عَتَه، مسّ شيطاني وبلَه مزدوج، وسيصير لقبي المُفتخَر من الآن؛ العِنّين المُرتخي الهُزُء الهش الوهن الخائر ابن المارستان الذي استبدل الصليب بالخازوق، بالمجّان، ملك ملوك الدُّهان، سليمان.

بصعُوبة بالغة، وتحت تأثير الأعراض الجانبية للنبتة، غثيان وإسهال ودَوران وحُمّى، بالإضافة إلى شَخير «شِكيب» الرتيب الذي شقّق الحيطان وكِدت أن أكسر أسناني طحنًا من وقعه؛ انغمست في أوراق لا أكاد أُصدّق - لولا خطي المِنغكِش - أني مَن كتبها، قرأت وقرأت، فاستعدتُ بَعضًا من المَعلومات الغارقة في قاع المُخيخ، حِمل إبرة انغمست في بحر، ثم خرجت مُحبطة من قِلة الرزق، تَخاريف لا يُصدقها عقل طفل يُعاني الحَصبة، ثور فحل يَمشي على قدمَين؟ غجرية بعين بنفسجية؟ جنّ مَخصيّ؟ ولولا الفوتوغرافيا المُرفقة التي زيلتها بإمضاء، لَمَا صدّقت أن «زهرة» قد ماتت تلك الميتة البشعة، أو أن هُناك «وَهمًا» يَحمل في أحشائه قِزمًا جَنينيّ

السُّلوك والهيئة. وبالبحث، ازدادت الظلمة ظلمة، انطفأت الشموع في ثنايا عَقلي، لكني أدركت ورغم تحجُّر المُخ جرّاء الحَقن بجُرعة مُفرطة مِن الغُشبة الجهنمية؛ أني قد تعرضت لحادثة، كَبوة غَادرة، أنسَتني الأيام السابقة، مَحتها من ذاكرتي كأن لم تكن، شكّي لا يكاد يبتعد عن ذلك الخُرَّاج المتفجّر، بُركان القفا، ليس هناك مُصادفة، وكذلك نهاية الأسفار المبتورة، ما كنت لأتوقّف عن الكتابة وأُنهِي السِّفر بذلك الشكل المُبتسر. أين ذهبت يا سُولوم في الأيام الماضية؟ مَن قابلت يا غشيم العلماء يا حِمار العباد؟ مَن الذي ختمَ قفاك؟ لقد شَخَرت كِيعاني من البلادة والهشاشة، عليّ أن أتخلص من تأثير تلك الغُشبة في أقرب وقت، حتى وإن فَصَدت نِصف دِمائي وأسقيتها لشِكيب كي يكُفّ عن الشخير، لتتحرر مَلَكات البحث في عقلي.

وكَان من أمري أن انتظرت الحكيمباشي «سَاسون» في زِيارة تَجديد الجُرعة، كل اثنتي عشرة سَاعة، دَخل ومِن وَرائه التومرجي دُولابي الهيئة، فتذللت له كجارية يَائسة وأقسمت عليه برحمة ابنته المتوفاة الزغيّرة وكَانت سبب في معرفتي به؛ أن يَسمع قولي قبل أن يُفرغ الحقنة في وريدي، فوافق على مَضض، وطلب من التومرجي أن يُحرِّر رَقبتي، فهَمَستُ له: «أنا وأنت نعلم علم اليقين؛ أن عَقلي تحت تأثير تلك الغُشبة، يَصير مغفلًا غَبيًا، مُرتخيًا كأيري حاليًا، لا أفقه مِن البَحث شيئًا، ولا أسمع أصوات الموتى وهم يحكون عمَّن قتلهم، أصير ككُل شَخص عادي تقابله في يَومك، مِثل شمعون السَّماك، مثل حَنفي الكبابجي، مثل سنية شوكت مِرات الحاج مجدي، ولولا «المناخوليا» التي أصابتني وأنا زُغيِّر، مَا أمسكت بقاتل

كوبانية الأسد منذ سنين، ما حللت لُغز مَقتل المِهراجا الهندي في التبين، وما عرفت أين خبأت ابنتك رسالتها قبل وفاتها منذ سنين، أقسم عليك يا ساسون ألا تحققني بزلال يوحنا، حتى أدرِك ما حَدَث لزوجتي الإفريقية التي سبقتني إلى الجنة، لم أقتل من كتبت سيرتهم في أوراقي السابقة، تِلك أباطيل وتُرهات زائفة، وإن كُنت كَاذبًا، فلتنزل اللعنة على سُلالتي، ولأتحسس طريقي بين الحوائط كالأعمى، ثم لتنشق الأرض وتبتلعني وتهضمني وتتجشأ.

حين انتهيت من الولولة، ومن بعد صَمت، نظر ساسون إلى جرح قفاي من الخلف، وهَمَس: «سَامحني يا سليمان»، ثم أومأ للتومرجي المَلعون؛ فقبض على رقبتي بأصابعه الغليظة، فقاومته، كَما تُقاوم الدودة ثُعبان الأصلة العاصِرة. شَخَرت وتمرغت وتففت وعضضت رسغه، لدقيقة كاملة، قبل أن يتمكن مني، فدَس «ساسون» الحقنة في رقبتي، قبل أن يتركني التومرجي فَوْرَمَا تمَّ الطعن، ويُتمم عَلى الأصفاد في رُسغي. نظر لي ساسون في أسًى، ثم هز رأسه وابتسم، قبل أن يغلق الباب.

جلست... وانتظرت أن تُمطر سَمائي بمياه البلادة والغباء، لكن ما حدث خلال الساعة التالية كَان العَكس، فقد جُن جنون نبضات قلبي، مئة وعشرون ضَربة في الدقيقة في أقل تقدير، ضَغط دم مرتفع، أحرق عينَيّ وأصابني بصداع شديد، قبل أن تعلو دَرجة حَرارتي، حُمّى مَصحوبة بعَرق بَارد، أأعلَن الخرَّاج الحَرب على الجَسد الهالك؟ كَان ذلك ما ظننت؛ حتى تحركت بُصيلات شَعري، هُناك غَريق في داخل الجمجمة يَستغيث، عقل غارق في سائل غير مَعلوم، تِلك

ليست أعراض غُشبة يوحنا يا شُولوم... «سَاسون» لم يحقنك بها كَما اعتاد أن يفعل، ولم يكن في الطبق الصفيح الذي دخل به إلا حُقنة واحدة!

لم تَطل الحيرة، فقد تذكرت فجأة؛ أن تلك الأعراض قد مرَّت بالعبد لله مُنذ سَنوات، مَوتة تقليدية لذكَر في عُمر الخمسين، وطلب مِن الزوجة المكلومة بحضوري لالتقاط الفوتوغراف، عَزاء ورثاء ووفاء، صَار على يد العبد لله جريمة قتل مع سَبق الإصرار، حين اكتشفت أن القتيل لم يُعانِ الكُوليرا، بل كَان يُعاني أعراضًا تشبه تلك الأعراض التي أعانيها الآن، قبل أن يَموت بيومين، وبالتشريح اكتشفت؛ أن زَوجته كَانت تحقِنه البول بانتظام، حقنة تتخفى وسط علاجاته المُزمنة، فقد كان مريض كلَى، لتحصُل على مِيراث، بالدم مِتعاص، ليبرأ الصُّنان؛ وتلتصق التهمة بالوباء.

انكفأتُ على جَردل البول المَوضوع بجانب السرير، أشعلتُ الشَّمعة وقرَّبتُها لأفحصه وقد استيقظتْ حواسي، فوجدت النقص فيه كبير، خَط السَّائل الذي هَبط تَرك عَلامة شَفَّافة لا تُشبه العلامة المركزة التي تركت أثرها مُنذ ساعات، فغُشبة يُوحنَّا تجعل البول مُركزًا ودَاكنًا مَع قِلَّة شُرب الماء، كَما أن رائحته النافذة كانت تفوح من سائل مسكوب على الحائط، مَسحته بسبابتي ولعقته فتأكدت، لقد حَقَنني «ساسون» ببعض من بولي المُعتَّق، مُستغلًا أن لون غُشبة يوحنا يشبه البول، أفتح شوية زُغيّرين، أفرغ الحقنة في رقبتي، أثناء مقاومتي للتومرجي الداهية، حتى لا يفشي سِرَّه؛ ولذلك ابتسم وهو راحل مُطمئنا.

رَغم المناخوليا التي أعانيها؛ ما زال اليهودي يثق في قدرة العبد لله. الآن سأستغل الوقت المُتبقي حتى الجرعة التالية، عَقلي لن يتحمَّل المَزيد من البول في دمي... أم أن «ساسون» أراد قتلي؟ رَغبة في التخلص مني انتقامًا لمن قتلتهم في أوراقي؟ إستنى إستنى، لقد تآمر رئيس الكهنة اليهودي مع «بيلاطس البنطي» لصلب المَسيح يومًا، هل كَان اسمه «سَاسُون»؟ وهل تبوَّل «شِكيب» في الجَردل الملعون؟ ليس ذلك وقت تصفية الحسابات مع الخونة، حين أخرج من المِحنة، سأعتزل النبوة، وسأصير تاجر شنطة - لطالما كان ذلك طُموحي حتى قابلت الحُرمة «عبلة زغلول» الله يِجحِمها مَطرح ما راحت - سأُفصِّل عِند أم بيدرو الخيّاطة جلبابًا خفيفًا من الكتان، يَصلح لمواجهة حَر جُهنم، له تِسعة وتسعون جيبًا، سَأملأ ثمانية وتِسعين منها ببَطَحات البيرة والسبرتو المَغشوش والعرَقيّ، كلوتات نسوان مُستعملة استعمال شديد، صُكوك الغفران للوساطة السليمانية بشأن المَصير الأبدي للكفار، مَعجون سليمان الفاخر لزوم الليالي المِلاح، صور سنايير عريانة مقاس كروت البوستال، وأكياس من الثلج النرويجي(146) المُستورد، لأن حرارة جهنم تشوي الجراثيم المنوية السَّابحة في أيُور العُصاة، أما الجيب التاسع والتسعين، فسأوصي أن يكون داخليًا، مخفيًا عن الأعين، وسأضع فيه قائمة أعدائي بترتيب أبجدي عشوائي، وعلى رأسهم: «سِت الحبايب نواعم مَكرم، عشيقها شَفيق وزة، بيلاطس البنطي ومُساعده، الحاخام سَاسُون، شِكيب الإسخَريوطي عبد الصَّمد، عَمتي تفيدة ماكوين؛ لأنها ماتت قبل أن أُولد عمدًا، عَزيزة راتب الشبكشي؛ لأن هو كدة الخازوق، يبدأ من تحت ويطلع لفوق، وعَديلة

الفار مَسمومة الحَلمات، وعَبلة زغلول، اللي جايْ مش زي اللي فات».
كل هؤلاء مُحرمة عَليهم صُكوك الغُفران، وغَسيل الأسنان، اللهم أغننا بالفُحولة عَن شر الخِتان.

قاومت أعراض الحُمَّى، وضَربات القلب المِستعجلة، وانكفأت على الأوراق لعلّي أجمع منها ما يُساعدني على استخلاص الحقيقة من بين غابات الضلالات، وبدا الأمر مُبشرًا؛ فبعد مُرور ساعات، لم أصِل إلى شيء يسترعي الانتباه، سوى ذلك المشط الخشبي الذي وجدته في جيب سِروالي بجانب السِّنَّة الذهبية، مشط الغجرية بَختة، ما الذي أتى به إلى هُنا وهو لا يفارق شعرها ليل نهار؟! أخرجته مِن جَيبي، كَان يَحمل رَائحة زيت التربنتين الجميلة، التقطها أنفي رغم البول الذي يَسري في دَمي، وكان من أمري أن سرَّحت به شَعري المَنكوش، ثلاث مرات، ودُون سَابق إنذار؛ تكوّنت في منتصف الأودة غيمة سَوداء، ظننتها في البداية جِيصًا جديدًا لشِكيب الغارق في سُبات عميق، لكن الابتسامة ارتسمت في المنتصف، سَاخرة، قليلة الحيَا، بلا أسنان، فأدركت أنني الآن؛ في حَضْرة «شَنتَف» المَخصي، أغا الجَان، وإني للتوّ قد عُدت، الخديوي سُليمان، مَلك الذُّهان، وريث خاتم ابن داود الحكيم، ومَسيح المَحروسة العنيد، ثم انتابتني رعشة، لما اقترب مِنّي فَجأة، استغثت بشِكيب، ركلت إسْته ولم يَستيقظ، فالتصقت بالحائط، ودَخَلتْ رِجلي في الدلو فاتعاصت: «انصرِف، احترِق، ادخل في قمقم فانزنِق»، قلتها بما تبقى لي من قوة بدَّدت نصفَها الحُمى، فتخلل الخصي أذني اليمنى بدخانه الأسود، وسمعته يهمس: «اخرس يا ابن اللبوة»، لم أشك للحظة؛ أنه

دفع لساسون رشوة ليستفرد بي، لَحظات وشَعرت بحريق في قفاي، مَوضِع الخُرّاج، مَغرز الطعنة يُخرج الحِمَم، قبل أن تُزال الغشاوة، وتعود ذاكرتي على حِين غِرَّة، تترنح في سَكرة، وكأن كل ما حدث منذ أيام؛ يحدث الآن فجأة، وما كان مني إلا أن أمسكت الورق، ووضعت سِن القلم في المِحبرة، خوفًا من النسيان، حقنًا للثرثرة، ولو علِمتُ ما علِمتُ الآن، لاخترت راضيًا أن أظل مَجذوبًا فاقدًا للذاكرة، ولسَجَنت «شَنتَف» في إشت «شِكيب» الخائن بدلًا من طيز الجمل.

***

---

(138) شهور قبطية تُوازي يناير وفبراير.

(139) الكلاب الأرمنت: سُلالة من الكلاب المصرية.

(140) النوّة: ظاهرةٌ مُناخية يحدثُ فيها هبوبٌ شديدٌ للريح واضطراب للبحر، بالإضافة لأمطار غزيرة، وارتفاع في الموج.

(141) الكاديش: صلاة جنائزية على المُتوفَّى في الشريعة اليهودية.

(142) الذُّهان: خَلل عقلي ضمن أحد مُكونات عملية التفكير المنطقي والإدراك الحسّي.

(143) السّوداوية: كان الطبيب اليوناني «أبقراط» هو أول مَن وصفَ هذه الحالة، وأطلق عليها اسم «المَلَنخوليا». كان يَعتقد أن ذلك المرض العقليّ ينشأ بسبب تغلُّب وزيادة نسبة «السّوداء» على الأخلاط/ الأمزجة الأربع المُسيطرة على جِسم الإنسان: «الصفراء، البلغم، الدم والسوداء»؛ لعجز الطحال عن

امتصاصها، فيدخل الإنسان في حالة ملنخوليا واكتئاب وهوَس مرَضي.

(144) بوسيدون: إله البحار عند الإغريق.

(145) رَمْي الجمرات: هو جزء من الحج عِند المُسلمين؛ حيث يرمي الحُجّاج المسلمون الحصى على ثلاثة شواخص تمثل الشيطان.

(146) الثلج النرويجي: هو المُنتج الأول في مَجال تجارة الجليد (الثلج) في نهاية القرن التاسع عشر قبل اختراع الثلاجات.

سِفر تابوت العهد/ إصحاح نِمرة ٨٨

بَيان مَا كَان؛ مِن بعد جَري الصَّنان في الشريان، وتجلّي «شَنتَف» العِزّة في أودة المَارستان، شفا قفايا مِن حِمم البُركان، وأعاد لي ذاكرتي فأتاني البُرهان.

أمّا قبل،

ففي ذلك اليوم المشئوم، وقبل وصولي إلى المارستان بأيام، اتجهت إلى الصَّاغة، دخّنت تعميرة مِعسّل مُكن في قهوة «الفيشاوي» العتيقة، حتى فتح مَحل جواهرجي أريب أبوابه، نَظر إلى الخاتم من بعيد ثم قال إن النجمة في الفص خُماسية الأذرع، كنِجمة اليهود، ثم خابت عَدسته المكبِّرة في معرفة مَعدنه، أو إدراك نوع الحجر القرمزي الذي يحكمه... قال الجواهرجي بإحباط: «ربما ياقوت، جاسبر أحمر، أو روبي، لا أعرف، إنه أمر نادر الحدوث ألّا أعرف»، وحين حلفت بالطلاق ثلاثة؛ أن الحِمم الصَّفراء فوق الحجر كانت خُطوط تجري وتتسابق، وكَان وقتها الخاتم بين أصابع الجواهرجي يَشعر بالضّجر، لم يتحرك شيء على سَطحه، فقال: «إن ذلك هو المستحيل نفسه»، ثم طردني من مَحلّه شر طردة، مُدعيًا أني مُحتال أو ملبوس أُخفي حِيَلي في الشنطة.

في طَريق العودة، رأيت في وجه المَكَاري الذي يُؤجر الحَمير مُؤامرة، وفي عَينَي الحمار الذي عَرَضَهُ عليّ تَوَاطُؤًا لا تخطئه عين، بل وحين نهق، سَمعت في نهيقه كَلمات لم تغفلها أذني الحساسة لِطشّة الملوخية من مسافة شهر: «أوراق، إحراق، انمحاق»، فآثرت

الأمان، إحنا ناقصين حميرا لا مَجال للخونة حول سليمان؛ لذا فقد اشتريت - بكرامتي - من السوق بغلة، اخترتها سَوداء عشان ما تتوسخش، وزودتها باللجام والبردعة والحبال، وأسميتها «ڤيكتوريا» تَيمُّنًا بملكة الإنجليز. حين نظرت إلى السَّماء مِن فوق ظهر البغلة المَبروكة، رفعت كفّي بالخاتم، استجداءً للمُعجزات، راضيًا قانعًا، قابلًا بما سيأتي، ولمَّا طال الوقت شَرعت في الابتهال مُتمتمًا في سِرّي بأوراد الاستعطاف والرجاء، حتى نفرت عُروق جَبهتي فجأة، وشعرت بتنميل في كليتي، وكِدت أن أنتف من التمني والترقب لحيتي، ثم حزقت حزقة مُكن، وناديت بأعلى صوتي: «يا قاااااادرا»، وإذا بصُرصار طائر، له أجنحة بُنية طويلة، يَخترق فمي المفتوح، ويُرفرف بأجنحته في سَقف الحَلق، فانقلبتُ من فوق ڤيكتوريا على الأرض، وتمرَّغت بين البعر والشّخام، حتى تففت الصُّرصار الذي طَار وكأنه لم يكن للحظات؛ في فم إنسان، فهَرعت إلى بائع عرقسوس أضحكه المشهد، صَبّ من البزبوز(147) كُوبًا مَضمضت به فمي ثم تقيأت كل ما أكلت منذ عام. لمّا هدأت ضَحكات اللئام، وانفض المتآمرون مِن حَولي غير مُدركين - لضعف عقولهم - أن مُعجزة للتو حَدثت أمامهم، وأن الصرصار مِثله مثل زُجاجة الشمبانيا التي يكسرها البحّارة على مقدمة الشُّفن التي تنزل البحر لأول مرة، إن انكسرت؛ فذلك فألُ الخير ونجاة، وإن لم تنكسر؛ فسيكون مَصير السَّفينة الغرق، وقد أسقطني الصُّرصار من فوق البغلة، علامة من السماء أني مدعوم منصور ذو حظوة، وينبغي رغم العِبء الثقيل والأهوال؛ أن أستمر في طريقي غير مُبالٍ بالأعداء، مدَد يا أبو داود(148) مدَدا

حين تمالكت أعصابي، اكتشفت فرار البغلة، وقبل أن أُوَلول كما الحُرمة - لأن سعرها الآن تخطى الأربعين ريال - بحثت عَنها حتى أرشدني أحد العيال، كانت تقف في هُدوء أمام دُكّان كُتب عَتيق، يَحمل لافتة مَمسوحة الاسم، لِجامها كَان مربوطًا في قائمة خشبية... «تلك البغلة... حبلى»... كَان ذلك صَوت حُرمة، أتى مِن رُكن في ظلمة الدُّكّان، متدثرة بالحجاب كَانت، تنفض التراب من فوق الرفوف لترسم ذراته خُيوط الشمس النافذة من أخشاب السقف... أجبتها: «البغلة حيوان عقيم يا سِت الكُل»... فأردفت: «تلك نادرة يبخل الزمان بها، وإن كان انتقاؤها لك كي تركبها؛ يدُل على أنك إنسان فريد مُنقطِع النَّظِير»، شَكرتها على ربط البغلة في الدُّكان، وحين هممت بالرحيل عقَّبت قائلة: «ما تتفضل يا أبو داود... اشرب قهوة»، قالتها في هُدوء، فسَرَت على جلدي قشعريرة، أدخلتني إلى الدكان خطوتين لم تنجحا في كشف ملامحها: «كيف علِمتِ اسمي؟»، أجابتني دون أن تلتفت: «خَاتمك الذي ترتديه؛ يُشبه في هيئته خاتم سليمان الذي سخَّر ممالك الجِن والحيوان»... تلوت في سِري المُعوذتين، ثم سألتها: «وكَيف عَرفتِ هيئته؟!»، توجهت إلى رَف في أقصى الظلام، أزاحت خيوط العنكبوت وسَحَبت كِتاب عَتيق، عُنوانه: «الخاتم السُّليماني»، فرّت صَفحاته حتَّى توقَّفت عِند رَسم يدوي، يُشبه الخاتم الذي أرتديه، ولكن يَزيد على الفص القرمزي النجمي؛ دائرة مَحفورة من حوله، مَكتوب حولها:

«لن تَرى الحقيقة المطلقة حتى تمتلئ الغرفة كلها».

تِلك كانت كلمات «جعجو» الأخيرة!

لمَّا وَجدتني صَاحبة الدُّكَّان مُرتبك، وفي الفكر غارق مُنشغل، أخبرتني أن زيارتي لدُكَّانها بَركة، مَكتوبة في سِجلات القدَر منذ أربعة وثلاثين قرنًا مَضت، وليس للصدفة مَكان، لقد انتظرت وترقبت تلك الزيارة على مدار سنين عمرها التي تخطت الآن سبعين: «إنَّ تلقُّفك لذلك الخاتم؛ فَتْح وبَعْث وقيامة وظفر بالأعداء، ذلك المَصير المَحتوم مذكور في آخر فصل بالكتاب، توكَّل يا بُني على الحيّ الوهّاب، ولتحميك جُيوش النمل مِن هجمات الذئاب»، قالتها ثم وَضَعَت الكتاب بين يدَيّ: «محبَّة من خالتك إيزيس، تجنّبك المشي على خُطى إبليس يا صَاحب الكرامات، يا وريث»... شَكرت سَعيها، وحين هَممت بمُغادرة الدُكَّان أردفتْ قائلة: «تذكَّر، أن ذَلك الخاتم لن يُصبح ذا سَطوة، حتى يُصقَل سطحه بحنوط قديس له مكانة وحظوة»، وقبل أن أكشف لها أني «المسيح» ذاته ولا داعي للتكلفة الفارغة من حنوط وخلافه، أخرجت من بين الرفوف زُجاجة زُغيّرة بها تراب أبيض، جَذبت الفِلّة وقالت «كربوناتو»، ونثرت على راحتها بَعضًا منه، ثم طلبتْ مِني أن أخلع الخَاتم لتصقله من أجلي، واجب، ولمّا قرأتْ في عينيّ التردد وتخبُّط الفِكر، اقتربتْ، رفعت الحجاب عن فمها وابتسمتْ في وِد، بأسنان مِثالية، ثم نفخت في التراب نفخة، نَثرته في وَجهي، وقبل أن أكُح أو أنفر، قبل أن أشخر، غامت الدنيا وتبخّر الوعي الحائر دُون مقاومة تُذكَر.

* * *

حِين تيقَّظتْ حواسي، من بعد الظلام الذي حاصرني في دُكان الكتب، لم أجد ريقًا لأبتلع، وأشَارت نتانة الفم أني نسيت ضمّه قرابة

قرن، رائحة دِماء مختلطة بقيح لا أعرف مَصدره ورائحة شِياط، العَرق تعتَّق ثماني عشرة سنة في برميل رَطب مُحكم الغطاء، والبخر السَّاخن، فوح بُول تخمَّر، لم يَصبِر حتى أذهب إلى كنيف لأُطرطِر، وكَان الشَّلل في أطرافي عَنيد مُسيطر، أصاب أعضائي بالتنميل، لم يعفُ عن الأير أو يرأف بزكيبتَيه، ولم يرحم مُخًّا كِدت من الغباء أن أنزع قشرة جُمجمتي لأهرش فيه، وأغوص بأظافري في ثناياه لعلّي أجد الذاكرة، أما أذناي، فقد استوعبت الأصوات تَدريجيًا، آتية من مسافة ميل سباحة، وقع أجراس زُغيّرة لها إيقاع منتظم، وهَمسَات مُلحَّنة، تشبه صلوات خافتة، أو لعلها نميمة بلُغة مبهمة.

حين همَّت يَدي بالاستكشاف اصطدمتْ بجدار خشبي، فأدركت أنني في صندوق، بل تابوت، أرقد فيه بلا كفن، بلا غُسل، ودون سبب، سألت نفسي وأنا على شفا انهيار العَصب: هل مِت يا سُولوم؟ دُون صَلب معتبر، دُون ثقب راحات يديك بالمسامير الصدئة صناعة الغجر؟ أين الألم؟ أم أن جند «بيلاطس البنطي» دفنوني تحت الأرض في غَيَابات العدم؟ ثم استرددت رُوحي بعد ثلاثة أيام، قِيامة تسبق الصعود إلى الملكوت بأربعين يومًا، سأقضيها مُعتكفًا في بُوظة «كنِّي»، أين خاتم جدي سُليمان الحكيم؟ في السبابة مُستقر وإن كَان ما حوله ورم مؤلِم، السِّكين الزغيرة التي أُخفيها في جيب الصديرية غَائبة، وكَذلك عَدستي المُكبِّرة، هُنا استعاد عقلي تركيزه على استحياء، وبدأ في حَصر الأعداء، والاحتمالات... كان أقربها للحقيقة والمنطق؛ ضُلوع سُكان القمر الحقدة الأذلاء في مؤامرة المقرونة الكُبرى التي اكتشفتْ خيوطها ببراعة، ولاد المرَة، ظفروا بي في آخر

الزمان على يد جاسوسهم الإيطالياني العِتّين، ولا بد أنهم الآن وخلف غطاء التابوت؛ حاشدين سبعين جارية من الچركس والچُورچيات - ذلك يفسر شحاحهن في الوكالات - ليستخلصن بأجسادهن البضَّة ورقصهن المشخلع؛ جَراثيم أيري المُباركة، حاسدين حاقدين على خُصوبتي المُفرطة، ليحفظوها في البراميل الخشبية كالنبيذ، حتى تختمر وتتعتق، تمهيدًا لزرعها في أرض القمر البُور، وحَصْد نَسلي بعد شهور، تزامنًا مع موسم تقديم النذور، لتجهيز جيش مُبين لمُحاربة أمَّة المُسلمين في المحروسة، واحتلال الصين.

وربَّما كَان الخاطف ثورًا آخر هَجين، أو تِمساح له من الأنياب سبعمائة وخمسين، كَان ذلك حين ارتجّ التابوت بعنف، المَلاعين ينقلونني من مَكان إلى مَكان دون إذن، رُبّما لذبحي فوق مَذبح مِن حَجر الصوّان مثل يوحنا المعمدان، أُضحية أنا كمان؟! ولم أملك من الضعف أن أقاوم، لكني صرخت بأعلى ما استطالت أحبالي الصوتية: «انتقام الرب حَان يا أولاد الأفاعي»، فتوقفت حركة التابوت بغتة. كلمة الرب من فم الأنبياء تُلقي الرُّعب في قلوب الضَّالين. فمَال جسدي بزاوية تِسعين، صِرت قائمًا على قدمين أعصابها حِبال دائبة، صَلبت عُودي، لحظَات، وتولّت الكماشات خلع مَسامير الغطاء، فغَمَر الضوء عَينَيّ، وتفحّمت الحَدقات، دقيقة؛ توقّفت فيها الهَمَسات، وخفتت الصلوات، قبل أن أتبيّن أن القاعة مُعتمة في الأساس، ضَخمة، مُربعة الرّسم، حِيطانها مبنية بحِجارة من الجرانيت مَهولة الحجم، ورُصت على جوانبها شَمعدانات مُذهبة، شَحيحة الشمعات، فوق حوامل مِن ثلاثة أرجل، وفي السَّقف، تحركت سُحب من بخور

مهدئ لم يستنشقه أنفي من قبل، تأتي ريحه مِن مجمرة كَبيرة في نِهاية القاعة، قُرب باب عظيم الدُّرف، لَمحت عِنده خيالًا يتحرك من اليمين إلى اليسار، رأس ثور فوق جسد إنسان، فأدركت أنني في بيت القتلة لا مُحال، هُم مَن قطفوا «زهرة»، بقروا بَطن «الوهم»، وسَحقوا «جعجو» في السرداب، ولن يمنعهم عَن ذبح العبد لله الآن؛ سوى خاتم جدِّي «سُليمان الأول» الذي ورثته بعد عناء.

في الأمر «إنَّ»، وأخوَاتها العوانس، فالنباهة والحذاقة وملكات البحث والتقصي تفتقت في ذهن العبد لله يوم ٧ يُوليو ١٨٤٩م، الساعة ١٠:١٥ أفرنكي، ليلة فرح البِت «شوزان أطلس»، حين أجلستني الحُرمة الأرَشانة «نِحمِدُه» جارتنا على حِجرها، وكَانت الصَّراحة هَجَمة(149) وملفوفة القوام، عَبثت بأيري الطموح الجَامح في الخباثة، وَسَط زَحمة النِّسوان الرغَّاية، حتى بلغت الحُلم بين يديها لأول مرة في حياتي، ثم أطلقتني لألعب مع العيال، مَبلول عَرقان وجَعان، بعدما قرصت لباليبي ونفحتني قرش صاغ، صِرت منذ ذلك اليوم أسيرًا لها، أزورها سِرًّا، مِن بَعد خروج عم «حَمدي سُكّر» زوجها إلى دُكانه بباب الشعرية، عِشرة عُمر وصُحبة أُنس، لقَّنتني في السرير النحاسي أبو مخدة ريش نعام خرائط ودروب أجساد النسوان، ويامَا فطّرتني مِفَتّقة وجُلاش على رُمّان، مَا كُنت لأنسى جميلها بعدما تجلّت علامات النبوغ والعبقرية وأنا في حِجرها، ولم أكن لأنقطع عنها يَومًا، لولا أصابها رُوماتيزم في العِظام، ثم شُرخ حَوضها أثناء وطئي لها فوق منضدة خَشبية مخلَّعة، قبل أن يضرب عقلَها الخرَف مثل «محمَّد علي باشا» سَاكن الجِنان في أواخر

أيامه، باتت المِسكينة تصرُخ في وجهي بكلام مُبهم كُلما صادفتني في الحارة، ثم أخذت تُسرِّب سرَّنا إلى آذان الجيران، كَان ذلك قبل أن تقع «نِحمِدُه» المِسكينة مِن فوق سَطح البيت في يوم غائم إلى أرض الحارة وهي تنشر الغسيل، حادث أليم...

بتلك الخبرة التي حصَّلتها مُنذ مُراهقتي، أستطيع أن أقول وبكل ثقة: «إن الخاطفين الذين وضعوني في ذلك التابوت؛ قد تنبؤوا مُسبقًا بأنني مَلك المُلوك، صَاحب الملكوت، وأني مُهدِّد لعروشهم البائدة، وبِداية تاريخ جديد سِمَته نُصرة الفقراء والمعدومين على يدَي العبد لله وتوجيهاته الصائبة، وقد صرف الأعداء على حَربي كُل ما معهم من بنكنوت، وكان أول جنيه؛ الرشوة التي تلقَّاه حامل أوساخ السلخانة وملك المُوبقات: «شِكيب الإسخريوطي عبد الصَّمد»، فنظير جوز إقلام على الخد المكعور، ثلاثون قطعة من الفضة، وصينية بسبوسة بالقشطة، سلَّمني إليهم تَسليمًا، والآن، هُم يَستعِدّون لمُحاكمة طارئة، يَضعون فيها تاج الشوك على رأسي، قبل أن يُسمِّروني فوق الصَّليب ليشمت بي معشر الجِن وعلى رأسهم «شَنتَف» المَخصي.

حَول التابوت، وقف جَمع من الرِّجال والنساء، تخطَّت أعدادهم الخَمسين، كَانوا ينظرون إليّ في ثبات لا يخلو من شَّغف، الرءوس تتنافس وتتمايل من أجل التطلع إلى مَسيح العصر، مِن وراء أحجبة كالمَنخُل، ثقوبها دقيقة، كافية أن تُخفي الملامح، على الشعر قبَّعات كُحلية هَرمية الشَّكل مُطرزة بخيوط من الفضَّة، ويرتدون زِيًّا مُوحدًا عَجيبًا، سُترات بيضاء مُنمَّقة، خياطتها يَدوية، تصِل حتى منتصف

السَّاق، الأكتاف عليها تطريز مُذهب يُشبه الرتب العسكرية المزركشة، يَخرج من تحتها حزامان كُحليّان يتقاطعان في منتصف الصَّدر، مُشبك فيهما شَارات ذَهبية، رُموز مُبهمة غير مَحلية، لا تنتمي لأي شكل أدركته مَعارفي السَّابقة، وفي المنتصف، أمام القلب مباشرة، يَستقر مُثلث مِثاليّ، ذكّرني بالحرق الجليّ في ظهر الأضحِيات.

الجَمع كَانت أعمارهم لا تقل عن الخامِسة والأربعين، وقلة من المُسنّين تخطّوا الثمانين، وإن كَانت الأيدي الناعمة المليئة بالخواتم الذهبية تدُل على رَغَد العيش وترف المعيشة. بَينهم، مَيّزت وجهًا مألوفًا، تقابلنا مرة ولم يتسع المجال لاحتساء فنجان قهوة، مَلامح شرقية صوَّرتها كاميرتي من زاوية عالية، الأعين المُحاصرة بالكُحل، البؤبؤ الواسع، وخُصلة شَعر بيضاء تخرج من الجانب الأيمن للرأس لتندمج في ضفيرة تتدلى على الكتف لتشتبك في حِزام الخصر، إنها الحُرمة التي رفعت كفيها على شكل مثلث أسفل سور مَجرى العيون، سيدة الصورة الجماعية التي شهدت لحظة تدلّي جسد «الوهم» من الساقية العارمة في ذلك اليوم المشئوم، وهي؛ سيدة دُكان الكتب، التي نفخت في وجهي النوم؛ إيزيس كان اسمها.

«يا ابن نواعم، تقدَّم ولا تخف» قالت الحُرمة، فأخرجتُ سَاقي اليُسرى مِن التابوت، مُومياء تتمطى بعد تحنيط دام عقود، ثم خذلتني القدم اليمنى في الخطوة التالية، كِدت أسقط على رُكبتي، لولا أن قبضتْ على عَضدي يد غليظة، حَارس ضَخم البنية، له رأس صَقر منقاره آنف ومَهيب، وريش، غطَّى ياقته المنشية، العينان السوداوان الواسعتان عَكَستا ملامحي الملتاعة رغم أن تجلّيه

في تلك الساعة كان أقرب للمنطق، بعد مواجهة هجين ثور بجسد إنسان في السرداب، سلّمت أمري إلى القادر، فأرخى قبضته الطائر، وخرجت من فمي كَلمات الحق كمِياه فائرة اندفعت من القناطر: «مِن غير لف ودَوران، أنتم جماعة الماسون(150) ، البنّائين الأحرار الذين انتشر خبرهم مُنذ عهد بُونابرته(151) ، أنتم أعداء الدين الأغيار، ناكري المسيح، حارقي الأسفار، صانعي الفتنة بين الشعوب حتى تبيعوا السلاح للأحزاب المتعادية بالإجبار، شياطين الإنس الذين ربوا المسيخ الدجال وآووه وعلفوه بلحم الحمير مُنذ خُلقت تلك الــ... الــ... البتاعة»، وأعانتني سيدة الضفيرة البيضاء: «أتقصِد الأرض؟»، هززت رأسي إيجابًا فسَاد صَمت، قبل أن تنفجر الضحكات مِن حولي: «اجلس يا سليمان».

لم أكسِف قولها صراحة، كنت أشعر بالدوار، وضع لي الصَّقر الهَجين كُرسيًا وسَاعدني في الجُلوس، ثم ناولني كوب ماء، كثَّر خيرُه على كُل حَال، تجرعته وأنا أتأمل خلقته في عَجَب، مُقاومًا عقلي الذي فشل في تخيل كيفية النكاح بين ذكر صَقر وحُرمة، ثم اقتربت ذَات الضَّفيرة، وَضَعت يَدها على رأسي وتمتمت بكلمات لم أفقهها، شَيطان يرقيني مِن الشَّيطان، ثم أزاحت جفني الأيمن إلى أعلى بظفرها، نظرت في عينَيّ للحظات ومالت برأسها ثم قالت: «سيكون عليك أن تخلع ذلك الخاتم بإرادتك يا سليمان»، رَفعت إصبعي المتورم: «أرى أنكم وبجلالة قدركم قد حاولتم نزعه، ولم تنجحوا، أليس بينكم رَجُل عَفيّ؟»، فأشارت إلى جَسد رَجُل مفتول العَضلات، مُستلقيًا على بُعد أمتار مني، مُغطّى وجهه بمنشفة، وأسفل رأسه

بِركة دِماء تعوم فيها سِكين: «أجل... وقد تُوفي أحدنا وهو يُحاول خلعه، نزفت دِماغه من الدَّاخل وسَال المُخ مِن الأنف حين حاول قطع إصبعك، فأغلقنا عليك التابوت ثانية».

هُنا علمت؛ من أين أتت رائحة الدماء، قبل أن أدرك أن قميص القيامة الأصفر ألافرانكة قد تلوث بها... أردفت إيزيس: «نحن نبحث عن ذلك الخاتم مُنذ قرون خَلَت، ولا نَكاد نعرف الأسباب وراء وراثتك إياه دُونًا عن باقي البشر، لعلّ الأمر صُدفة، أو أن الإفريقية الخائنة أباحت لك بسِر دفين له سَطوة، سيسعدنا حقًّا أن تُشاركنا في حملِه حتى يأتيك اليقين»... كَظمتُ غَيظي، وإن ارتاح قلبي لسماع لفظ «الإفريقية». هؤلاء المسوخ يعلمون حقيقة ما حدث لزهرة.

مَسَحتُ القاعة بعينيّ لعلّي أجد مَخرجًا مِن ذلك الإعدام المُمل المُهين، ثم سَألتها: «لماذا يبحث أبناء الماسونية عن ذلك الخاتم منذ قرون؟»، فأجابت بعصبية: «نحن لسنا «ماسون» يا سُليمان، بل نحن... أتباع مُخلصون، ذَوو هدف سَامٍ وقصد رفيع، وذلك الخاتم؛ ليس خاتم «سُليمان الحكيم» كَما تظن، بل هو خاتم مَكنون، صَنعه كَبيرُنا مُنذ آلاف السِنين، من مَعدن كَونيّ ليس له نظير في تلك الأرض، قبل أن يختطفه الغَجر في هجمة بربرية على أحد القصور، أخفوه، وتوارثوه، ولم يُدركوا قوته وقيمته يَومًا، لنقص في العقل وقُصور، حتى ظهرتَ أنت من العدم، نبشت جُحر العجوز الملعون «جعجو» نيابة عنا، وأرشدتنا إليه بعد زمن مِن التقصي والبحث العقيم عن ذلك الفأر المُعمِّر، تلك المُهمة حَملناها على عاتقنا وتوارثناها طوال عقود»... وتوقفت عند كلمة. «أرشدتكم!».

«هل كُنتم تراقبونني؟ هل كان سُليمان مصيدة للفأر؟!»، ابتسمتْ: «بل كُنا نتبع الحَجر النجمي الذي ترتديه في سلسلة، وكذلك جعجو، كان ينتظر مَن يأتي به حاملًا، والآن، لعلك تَسأل عن خُصوصية ذلك الخاتم الذي كِدنا أن نقطع إصبعك من أجل استرداده»... أرادت أن تثير شَغفي، وأفلحت بنت الرفضي، ثم أخرجت الأكاذيب تباعًا مِن البالوعة التي تقع أسفل أنفها، وفحوى ما قالت الحُرمة: «إن ذلك الخاتم غير قابل للانصهار أو الكسر، مَن وضعه في إصبعه؛ هو الوحيد القادر على انتزاعه، ويجب أن يكون ذلك بكامل إرادته، وإن مات أو قُتل؛ وَجَب على مَن حَوله دَفنه في التراب حتى تتحلل جثته كَاملة، عِظام ولحم، قبل استخلاصه بكُل حذر، وتجنب لمس الخاتم للفم، أما النفع والاستخدام، فهو المسئول عن توارث المُلك بيننا، باختيار مَن يَحكمنا، وطاعة الأوامر واجبة لمَن يَملكه، دُون نقاش أو جدال وبكل مُطاوعة».

الماسون يَخشون خرق حكم الخاتم، ولا يخشون غَضَب السَّماء على العبد لله إن خلع العَطيَّة التي وهبها الرب له، كيف آمَنَ السذج بألا آمُر الخاتم بسحقهم في التو؟ وكَان ذلك أول ما فعلت، رفعت الخاتم للسقف، فانتشرت الهمهمات وتحركت الأعين في تخبُّط، وقبل أن ينتفض الصَّقر وينشر أجنحته، قبل أن تصرخ الحُرمة إيزيس، صرختُ بأعلى صوت وبكل شُموخ وإباء. صرخت: «يا مردة الجن من زمن جدي الإنبراطور سليمان الحكيم؛ استدعاء، اتركوا الأحراش، غادروا البيوت الخربة في الخَلاء، وفارقوا كل كَنيف تسكنوه فالرائحة بلاء إن كنتم لا تعلمون، تحركوا لنجدة الحكيم سُليمان

«مُكرر عام ١٨٦٩»، الغوث الغوث الغوث، والمُلك لك لك لك لك لك لك يا صاحب المُلك»، تلك ترجمة لصيحة الهدهد في كُل صَباح، ولكن الكفَّار لا يفقهون قول الطير.

سَاد صمت، انتظرتُ بعده أن تسجد الجموع على الأرض خُشوعًا، ليبايعوني مَلكًا على المَاسون، أو يتدخل مَردة الجن حاملين النبابيت وأغطية الصحون، ووراءهم جيوش النمل وفيالق الحلزون، فيسيطرون على القاعة ومَن فيها ويفرضون الإتاوات والضرائب، لكن الحضور المنمقين رمقوني باستغراب شديد؛ لأن الخاتم القرمزي خذلني، والصَّقل الذي أغفلته كَان للأسف هَامًا ومفيد، فآثرت المُساومة والمُماطلة من جديد، لكسب الوقت، حتى تكتمل جوانب المفهومية في رأسي، وأُدرك ما عليّ فعله في ذلك الوضع الملخفن المُزري، وكَذلك، لأتجنب الصَّقر الهجين الذي مَال على العبد لله في لحظة تجلي، يستعد أن يشُخ على كتفي كي أرضخ وأستسلم، وشخَّة الصقر كما تعلمون؛ لا تكسي المرء بالملابس مثل زبل الحمَام.

بثقة لا أملك ربعها، طلبت أن تكون «المَعرفة الكَاملة والفهم لكل ذلك اللغط؛ شرطًا كي أخلع الخاتم من سبَّابتي»... «ولكن، المعرفة قد يكون ثمنها الموت يا سليمان»، هكذا قالت ذات الضفيرة البيضاء مُحذرة، فنظرت إلى الوجوه المتربصة مِن حَولي، ثم قلت بكل يقين بعدما ذكَّرت نفسي بأن: «الموت ينتظرك على الصليب يا سولوم، لا على كرسي خشبي فوق البلاط، ليكُن الموت إذن يا متآمرين يا خونة المسيح»، كان ذلك حين ميَّزت في الصَّف الأخير بين زحام الوُجوه، حَركة، رأيتها مرَّة في أودتي بالوكالة، اليد البضَّة، والحِناء

رَديئة الرسم التي تكسو الرسغ وأطراف الأصابع، تصنع بالأنامل مَوجة، الغجرية الأصيلة ذات البؤبؤ البنفسجي كَانت حَاضرة، تقف وَسط الحَاضرين في نهاية القاعة، عند أطراف الدائرة، تُريد أن تُرسل إشارة، تريد أن تبعث أمارة، كَيف في ذلك الجمع اندسّت تلك الحمارة؟ كَان ذلك حين اقتربت ذات الضفيرة البيضاء مني وقالت: «في تلك الظروف، دفنك حيًا يُعد حلًا مثاليًا، لن يُضيرنا أن ننتظر تحلُّل جَسدك حتى نستخلص الخاتم من إصبعك».

هزّت الغجرية رأسها، وحرّكت أصابعها بطريقة لم أفهمها، هل أُصيبت بالتهاب في أعصاب الرقبة؟ أو لعلها أرادت أن تقول اصبر وتجلّد؟ هكذا ظننت وقتها، فطغى اليقين على نفسي، ونظرت لذات الضفيرة بكل ثقة: «هل تعلمين كم تتخذ العِظام من الوقت حتى تتحلّل؟ وإن مِت؛ كيف تضمنين ألا أصعد إلى السماء فأجلس بجانب الرب وألقي بالشكوى على مَسامعه في حضرة الملائكة، ثم أذكر اسمكِ ووصفكِ فتنزل عليك صاعقة مِن السماء تمسح بكِ البلاط فلا يبقى منكِ إلا ضفيرتكِ الشائبة؟ لن أخلع الخاتم حتى أعلم مَن قتل أم جلال، قولًا واحدًا». التفتت الحرمة إيزيس، ونادت ببقايا الصبر: «بَختة»... وللعجب، تخللت الغجرية الصُّفوف، ابنة الإسخريوطي سَارت على السجادة بحذاء، فردة من العار وفردة من الغدر، ومن ورائها سَار عَبد حَبشي طَويل القامة، مَفتول الصدر يمشي باستقامة، اليدان والقدمان مُسلسَلة بالحديد، وفوق عينيه عصابة. حين أصبح في مَرمى بَصري، رأيت نصفه السُّفلي، فتغاضيت في عزة نفس عَن مُقارنة أير تأرجَح كبندول السَّاعة وكاد يحتكّ بالبلاط، بأيري الحبيب

الذي خَدمني أكثر من أربعة وثلاثين عامًا بقدرة ٧٠٠٠ كيلو واط.

فجأة؛ أضاء عقلي أنواره، وفي لمح البصر أدركت المُخطط الجُهنمي للمؤامرة الكبرى، لقد استدعت بنت الغجر الخائنة ذلك الأخطبوط الإفريقي الأسود ذا الثلاث أرجل كَي يلُوطني لوطًا شديدًا أمام الجميع، لِخَرق هيبتي، وتقوير كرامتي مِثلما تُقوّر أمي الكوسة قبل حَشو الرُّز، وسيلتقطون بالطبع صُورة تذكارية بكاميرتي المُنافقة الغدارة، وأنا مفعول به منصوب بالفتحة، لوضعها في صَدر غُلاف جُرنال «الوقايع المصرية»، وفوقها عنوان بُنطه عريض «فضيحة مدوية» نكتة يومية سيتحاكى بها الناس حتى منابع النيل، وسأسير لِمَا تبقّى مِن عُمري موصومًا مُطأطَأ الرأس ذليل، أسير العار والسخط والخزي، مُثيرًا للأقاويل، أبدًا، ولو باعوني في وكالات الجلّابة، لن يكون ذلك مَصير سُليمان ابن نواعم المُقرفة الكدابة، وإن سكبتم في دُبري برميل مِن زيت الكَافور، وفشختم أطرافي الأربعة بحبال تجُرها أحصنة مِستعجلة تُعاني سَكرات الإسهال.

وقفت أمامي الخائنة، وبكُل تبجُّح خَلعت الحِجاب ذا الألف ثُقب من أمام وجهها، فبدت الملامح هادئة، لا تمُت للندم بصِلة، رَميتها بنظرة مِلئها الاحتقار والخزي، ثم قبضت عَضلات البروستاتا في استماتة، وتربست دُبري بخشبة، ثم جَمعت كل ما أملك من لُعاب في فمي استعدادًا للبصق بَين ثدييها، لكنها هَمست بأريحية مُفتعلة: «سلِّم الخاتم يا سليمان، لم يعُد الأمر بيديك الآن، وأعِدك؛ أن تعلم ما حَل بزوجتك الإفريقية»، ولمّا رأت في عينَيَّ التحدي والعِناد، اقتربت من العبد الحبشي، وأزالت العصابة عن عينَيْه، فعرفت أن أمر

لُواطي قد حُسِم، والنية المُبيَّتة؛ أن تتم الواقعة علنًا، مِثلما كَان يفعل المَماليك في بعضهم البعض، لكَسر الهِمم، وتدمير العزائم، والوصم الأبدي بالفاحشة، كَان ذلك قبل أن ألحظ العين الزرقاء. نظر لي العبد الحبشي طويلًا ثم قال: «ليكو، نِجي يا يو مازي»، وكَان ذلك يعني بلغة «النيام نيام»: «أبي... أنا ابنك جلال الدين السيوفي».

لم تُصدِّق أذني ما سَمِعت، ولولا أن تذكَّرت؛ التسوية طويلة الأمد والتي تخطت الأربعة عشر شهرًا في بطن أُمه، خروجه الفريد من الفك، صَلب طُول عَاجل بعد الْتهامه لحبله السُرِّي، ونُمو فائق جعلَه يتكلم منذ اللحظات الأولى، لقُلت إن عقلي خذلني وفقدَ السيادة والريادة، ثم اطمأن قلبي حين رَصَدَت عيني الشَّامة التي توسطَت إسْته، عَلامة التفرد في نَسل السيوفي، ذَلك العبد لم يكُن حَبشيّ، بل مِصري نيام نياميّ، إنه جَلال الدين السيوفي؛ الشهير بمِيخائيل حِسين بُطرس حنًّا أبو نرجس القمَّاح، وريث الملكوت مِن بَعدي وحامل ترسانة السِّلاح، يقف أمامي أسيرًا كسيرًا ومُسلسَلًا كعبيد وكالات الجلَّابة، تلك كَانت أصعب لحظات العُمر يا سادة.

«اخلع الخاتم من إصبعك يا سليمان». قالت الغجرية آمِرة في استبداد، ورمقتني الحُرمة «إيزيس» بنظرة ملئها القهر والاضطهاد، كَيف جاءوا بوريثي الوحيد مِن غَابات «الكونغو» البعيدة إلى المحروسة؟ هل باعَه ابن العم «باكا» عبدًا لرِجال «الزُّبير رَحمة» كَبير النخاسين؟ وكَم يبلغ سِعر ابن المسيح الآن؟ هل هو يقينًا جلال الدين؟ أم أن تلك الشامة مرسومة بالحبر الشيني؟ وذلك الذيل الزُّغيّر الذي يبرز من فوق مؤخرته؛ هل هو ذَنَب قِرد مُخيّط بدقة

في الجلد؟ أم ورثه مِن الأم؟ وهل يُعقل أن يتسارع نمو جلال بتلك الوتيرة؟ وقبل مرور عام؛ يَصير بِسم الله ما شاء الله عَريس؟ لم يَحسم الجدال في رأسي سوى العين الزرقاء، تلك الطفرة الخرقاء لا مجال فيها للاختلاق والتدليس.

نظرت إلى السِّكين الواقع بالقرب مِني على البلاط، وللطائر المتحفّز بجانبي استعدادًا للانقضاض، وبحِسبة بسيطة، أدركت أن فُرصتي في التملص والنجاة من ذلك الجحيم، وبصُحبتي جلال الدين؛ صِفر على الشمال. خلعت الخاتم من إصبعي صَاغرًا، حَقيرًا، ذليلًا، مُهَانًا، وَضِيعًا، خاضِعًا خَنُوعًا عاجزًا مَغلوبًا مَقهورًا، فالتقطَته الحُرمة «إيزيس»، وغمغم الجمع منبهرين، وكأنها تلقّت جَمرة نار ملتهبة من بُركَان فيزوف(152) ، تأمّلته الحُرمة في شَوق، غَير مُصدِّقة حجم الإنجاز الذي حققته، ثُم رفعته عَاليًا، فبجّله الحَاضرون بصيحة حَماس، قبل أن تُشير إلى جانب مُظلم في نهاية القاعة لا تُضيئه الشَّمعدانات، فتحولت الرءوس إلى هُناك، ثم انفتح في الأحجار باب، بطقطقة رهيبة أثارت الغبار، وخرج منه أربعة ثيران بشرية، أبناء عم الوحش الذي قتله «جعجو» في السِّرداب، يَحملون عرشًا ارتفاعه لا يقل عن ثلاثة أمتار، جَلَس فوقه بثبات؛ جَسَد، مُغطى بملاءة قُرمزية، أفسَح الحُضور الطريق للموكب في إجلال، وما لبثت الثيران أن توسَّطت القاعة، وَضَعوا قوائم العرش على الأرض بعناية، فانحنت الجُموع في خُشوع، ثم سَاد صَمت مَهيب، تمجيدًا لملِك المَاسون، لحظات، وسَحَب أحد الثيران الملاءة، بإشارة من الحُرمة «إيزيس»، فانكشف ما تحتها، صَنم معبود، من حَجَر أسود

أظنه البازلت، على هيئة رَجُل، مثاليّ الخلقة، يُشبه آلهة الجِريج في التَّشريح، إلا أن رأسه مُستترة، بداخل قناع فِضيّ يُطابق قناع «زهرة والوهم»، كَان يَجلس على العرش بأطراف واثقة، يَده اليُسرى مُستقرة على المَسند، والسبابة مَمدودة نحو الأمام في استرخاء، مِثل تِمثال لاظوغلي(153) تَمام. أمَّا اليَد اليُمنى؛ فكَانت تقبِض على شَمعة، أشعلها أحد الثيران، فتألق الجَسد المنحوت، وظهرت عليه عَشرات الآذان... الحقيقية، آذان بشرية، مِن لحم ودم، ليست مَنحوتة من نفس الحَجر، بل مُثبتة بمَسامير على مَسافات ثابتة في الجسد، سُترة من القرابين، مَيّزت بينها أذن لا تُخطئها العين، بطول يَصل إلى شِبر، تَسمَّرت فوق الكتف الأيسر للصنم، إنها أذن «الوهم» المبتورة، وسَاعتها أدركت أن أُذن «زهرة» لن تكون بعيدة عنها إن دققت في جسد جامِع الآذان.

بعد خُفوت هَمهمات الانبهار، سَاد صَمت الترقُّب والانتظار، فتقدمت الحُرمة «إيزيس» مِن الصَّنم، انحنت في هَيبة، ثم وَضَعت الخاتم في إصبع يده الممدودة بحِرص وخُضوع، فهتف الحاضرون: «آمون... آمون» وما حدث بعد ذلك كَان أعجب مِن العجب، فقد انقضّ هجين الثور على «جَلال الدين» ابني، قبض على رقبته، رَفعه دون مجهود يُذكر، وحين هممت بالتصدي له، خفق الصَّقر الكَافر الرابض لحراستي بجناحين مِن الجُلّاش، ليُسقط نَبي السَّماء على الأرض، نحن في يوم الحساب، قبل أن يقبض على ساقي، ويَرفعني كالأرنب، مقلوبًا، إيذانًا بالذبح.

مِن زاوية ترى الحضور واقفين على السقف؛ راقبت «جلال الدين»

في قبضة الثور، كان يثور، يتلوّى ويرفص ويُرغي زبَدًا حتى توسَّط ذو القرنين الجُمهور، مُقاومة يائسة لم تُسفر عَن حرية تُذكَر رَغم قوة البِنية التي وَرِثها عني، ومَا كَان مِن الوحش إلا أن أمسك بساق ابني، ورفعه عاليًا ليخبطه في سَطح مائدة رخامية مُستطيلة، مثلما تُضرب أجساد الضفادع في المَعامل حتى تدوخ، خَمَدَت حَركتَه، وسالت ريالته مَخلوطة بدماء، فشبك الوحش سلاسِلَه في حلقات بأركان المائدة الأربعة، صَلب أفقي غير شَرعي، تحت عين صَنم لا يدري، فصرخت من مقامي المقلوب صرخة مدوية، ولعنت كُل أعضاء الماسُونية الباطنية، ولم أجد لاستغاثتي أذنًا مُستمعة، كَانوا صمًا عُميًا لا يفقهون شيئًا، أما المتآمرة بَختة، فأخذت تُراقب الحَدث الجَلل بكُل اهتمام ووجل، ولم تلتفت نحوي لثانية حين حَاصر «جلال الدين» سَبعة رِجال أشداء، عَرايا، أجسَادهم مَصبوغة بلون أحمر، بَرَك اثنان منهم فوق ساقيه، واعتلى أسمنُهم صَدرَه ليشل حَركته بالوزن، ثم قبض اثنان على ذراعيه، وسَادسهم، ثبّت كتفيه، فيما اقترب السَّابع، سَدَّ أنف جلال، فشخ فمَه، ووضع مشبكًا مَعدنيًا في طرف الفك ليمنعه من العض والانغلاق، وكِدتُ من مكاني أن أختنق توحُّدًا مع رئتيه التي تعاني الانسحاق.

تلقَّت «إيزيس» مِن أحد الثيران جِرابًا جلديًا مُطعَّمًا بالجواهر، فتحَته فاستخرجت منه سِيخًا حَديديًا، نِهايته مشقوقة مُلتوية، ذلك المَشهد رأيته يَومًا على الجِدار، في الكَهف، يوم ولادة جلال الدين، هُنا؛ فوّت قلبي سَبَع دقات، وكِدت من فرط الحركة والصراخ أن أفلت مِن قبضة الصَّقر العَارمة، فتتحطم رأسي على البلاط مُهشّمة،

كَان ذلك حين نظرت «إيزيس» إلى ثور وقف في رُكن، بِجانب مُربَّع أبعاده متر في متر، مُغطًّى بالقُماش، كَشفه الثور بعد إيماءة من رأسها، فشهِق الناس، لقد كَان في ذلك الصندوق... لا شَيء، فراغ، هَواء، مربع من الزجاج الأصفر ليس بداخله إلا سبع شمعات مُتقدة، يشبه صندوق نُذور في كنيسة، وهنا، رَفَعت «إيزيس» السِّيخ نحو الصندوق، أغمَضَت عَينيها، تضرَّعت في خُشوع، وبدأت تهمِس، فحيح، فتطلعت أعناق الجُموع في تركيز، حيث أشارت «إيزيس» إلى أطراف جلال المشدودة إلى المائدة، ومسحت على أذنه اليمنى، وقالت: «أنا أفتح فمك لكي تستطيع أن تتكلم، وأفتح عَينيك لكي ترى، وأُذنيك لكي تسمع، وقدميك لكي تكون قادرًا على السَّير، وذِراعَيك لكي تدرأ بهما خطر الأعداء».

انتهت الولية من الصَّلوات، نظرت للصنم الأخرس على بُعد أمتار منها، تنتظر إشارة، وإذا بالشمعة في كفه تتوهج، وشمعة من شمعات الصندوق الزجاجي الأصفر في نفس الوقت، تنطفئ، فغَرَزَت الولية المَخبولة السيخ المشقوق في فم ابني، بكُل برود. صَرخ المِسكين صَرخة مدوية، وصِرت أنشال وأتخبط وأنحل وأتربط، ولما يئست من الانفلات، قوَّست ظهري في قبضة الصقر كَي أنثني فلا يفوتني ما يَحدث، جَسد جلال انتفض كَمَن مسَّته الكهربا، أسقط من اضطرابه الرَّجل السمين الذي اعتلى صدره، لحظات لم تطُل، مُقاومة باءت بالفشل، وأفواه القطيع لم تنغلق من الدهشة والانبهار، قبل أن تخمد الحركة نِهائيًا في الابن البار الذي مات... فِداءً للبشرية.

قَسَمًا بِالَّذي أَماتَ وأحيا

وتَوَلّى الأَرواحَ والأجساما

لا رَفَعتُ الحُسامَ(154) في الحَربِ حَتّى

أترُك القَومَ في الفَيافي(155) عِظامًا

يا بَني الماسون ستلقون رقعًا

من صَليبي لتجري الدماء سِجامًا(156)

وتضجُّ النساءُ من خيفة السَّبيِ

وَتَبكي عَلى الصِّغارِ اليَتامى

مِن أشعار صديق الأسفار «عنترة بن شداد»

(مع تصحيح ضَروري ولازم في البيت الثالث)

إسفوخس على الخليقة أجمعين، أبناء قابيل المتآمرين الضالين، لقد قُتل عمُّهم المِسكين «هَابيل» بيد أخيه «قابيل»، فأدمن الأحفادُ قتلَ أنبياء السَّماء الكُمَّل العارفين، وعَبدوا الأصنام من دون الله طوال عقود، وأنكروا المسيح، هَكذا هَتفت بقلب تفحَّم حُزنًا، مُتوعدًا الأوساخ الأنيقين، وصنمهم الذميم، جَامِع الآذان، بأسفل موضع في الجحيم، لينالوا بركات الشياطين، دُعاء نبي مظلوم، مضمون الاستجابة، ألقيته مِن بين يدَيْ طائر رجيم، أُسوَة بخالي «يونس» الذي ابتهلَ من داخل فم حوت لا يَستعمل الفُرشة والمَعجون.

لقد قتلت «إيزيس» جلال الدين أمام عيني؛ قُربانًا لآلهة الكافرين،

من أجل رضاهم؛ سَكن جَسد خليفتي الأسود إلى الأبد، سَافر إلى أمه بلا سبب، ولم تُجْدِ مُحاولاتي المُستميتة في الوُصول إليه لأتلقى عنه ذلك السِّيخ، حتى أفلتني الصقر مِن الزهق لأسقط على وجهي. طَارت مِن فمي سِنَّتي الذهبية، وأصاب البلاط وجهي بكدمة، وحين جلست مُقاوِمًا دوارًا أصابني؛ أتتني الغجرية الخائنة، حيَّة تسعى وتتلوى، جثت على رُكبتيها أمامي، وربتت على كتفي وكأنها تومرجية بالمارستان، ثم هَمست بكل حنان: «اهدا يا سليمان، الأمر مش زي ما تعتقد».

«تعتذرين الآن؟ وكَأنكِ هرستِ قدمي بكعب حذائك؟»، رفستها، فوقعت على ظهرها، غير مُبالٍ بشَنتَف أغا الذي يَسكن شعرها، يا ليته يِركبني الآن ويمسّني بالسحر فأفقد لجام العقل الذي لا أملك سواه، وتسكن في رأسي أصوَات المُعاناة. وما كان منها إلا أن التقطت سِنَّتي التي طارت، ووضعتها في جَيبي وهمست: «كَي لا يلتقطها أحد فيزرعها في أرضه»، فاندفعتُ، مُزيحًا أبناء الشياطين دفعًا، اتجهتُ إلى جلال الدين، قبَّلت يديه، لعله يُسامحني على خذلاني، لعلي أزرع فيه الروح من تاني، بمُعجزة من مُعجزاتي، وحين هَمَمت بالدعاء والابتهال، تَصدى لي أحد الثيران الأربعة. اتخذ وضعية الانقضاض، فقلت يا روح ما بعدك روح، سأتنازل عن الصلب مِن أجل جلال، لكن «إيزيس» نهت الثور بإشارة من يدها، فتركني، فانكببت على جَلال، غير مُصدق أني قد حُرمت منه قبل الأوان، دُون أن أَشفِي غليله في مقتل أمه، دُون أن أُورّثه المُستوصف الحرام الذي يحج إليه الناس، ومن فوقه «شِكيب عبد الصَّمد» علاوة، دُون أن

أُسلِّمه أوراق البنكنوت التي أحتفظ بها في خزينة بالسماء السابعة، وقبل أن أتنازل له أمام المحاكم الشرعية عن حِجج ملكية الملكوت.

تأمّلت الجسد الأسود في ألَم غير محدود، بدا سَاكنًا مبتسمًا، له زُرقة عين أمه، الله أكبر! طِعِم، ومِن العبد لله؛ وَرث فُحولة تخجل منها الثيران وتشتعل حقدًا وحسدًا، مَا كُنت لأرضى أن يفوقَ أيري في الحَجم؛ غير أير لابن يحمل اسم «السيوفي» من بعدي. رَسَمت الصَّليب بالريق على جَبينه، ثم قرأت الصَّمدية، قبل أن أضغط على رسغه وأهمس في أذنه: «قُم من ثباتك يا جلال، أبوك المسيح يُحييك؛ كَفاك استهبال»، وإذا بالمُعجزة تتحقق أمام أعين الكفّار! مُعجزة؛ سيتحدث بها الخلق لآلاف السنين من بعدي، وسيبكون في مهابة حين يقرأونها في أسفاري، لقد تحركت الأصابع المرتخية. ارتعشت، وعلا الصدر فجأة بالأنفاس، لحظات، وفتح جلال عَينيه الزَّرقاء، ثم جلس في هُدوء، منتصب الظهر، والأير، وكأنه استيقظ من نومه للتوّ، فارتفعت الشَّهقات، وعَلَت الدَّهشةُ القسمات، وجَرى الهَمس بَين الجُموع سريعًا، وما كان من «إيزيس» إلا أن أشارت لذوي القرون، فالتقطتُ أنا السِّيخ المشقوق من يَديها في غفلة منها، طوّحت به مَن حولي في حَركَات مَدروسة عَشوائية، كمُصارع ثيران محترف، وصَرخت بأعلى صَوتي متجنبًا خنف اللحمية: «جالكم المسيح يا لمامة يا أولاد الأفاعي»، ثم رفعت يدي بالسيخ عاليًا، نظرت في الوجوه اليائسة الجزعة، نطقت دُعاء النصرة، ثم هويت به فخبطته في البلاط أسفل مني، لتنشق الأرض مثلما انشق البحر لخالي «مُوسى» ويَغرق جيش الكفّار حين يتبعوني باستهانة،

الصراحة لم تكن مُعجزتي، لكن قلت أجرِّب يمكن تمشي، ولم يَحدث شيء، رُبَّما احتاج الأمر لجردل مَاء أصبّه على الأرض مِن تَحتي أولًا لتسري المُعجزة بسلاسة الكهرباء، كَان ذلك حين سَعَل جَلال، كُحة شَرعيَّة، حبيبي، بعد غرس ذلك السيخ في حلقه، براحته، قلت له بلغة النيام نيام مُطَمئِنًا: «كويي سوبا نيدو ماني ناكو نا ياندِ توبا جونيه»؛ بمعنى: «لا تخف يا بني، إن الرب معنا، ومفاتيح الملكوت في جيب سروالي الأيسر وبُكرة تزُوق وتِحْلَى».

الصَّدمة كانت عارمة، والعودة من الموت ليست بالشيء الهين على جسد تُوفِّي ثم رجع في دقائق معدودات، لكن الابن - بسم الله ما شاء الله - قام على قدميه لهلوبة، ذلك شأن آل «السيوفي» دومًا في أحلك الظروف. ابتسم ابتسامة خالية من الخوف، بل خالية من كل مَعنى معروف، قبل أن يدور حول نفسه ليُواجه الصَّنم، وبدلًا من أن يُحطمه مثل جده «إبراهيم» عليه السلام حين حطّم أصنام المعبد، رفع جلال يده ناحية الصنم، ثم جثا على ركبتَيه في خشوع، ليرفع الجمعُ هتافًا هز القاعة: «آمون... آمون».

«بعدما أحياه الأبُ بمُعجزة مَلاكي خُصوصي مُكن؛ جلال الدين السيوفي يَشكر صَنمًا والعياذ بالله».

ذلك كان عنوانًا ببنط عريض في جرنال سليمان، أما التفاصيل فهي كالآتي:

«لقد انصبّت على جلال الفاجر التهاني والمباركات من المعَازيم، ولا «جيمس ميس»(157) بجلالة قدره بعد فوزه على «جوي جوس»

مِن كَام سنة، واكتملت الفضيحة المؤلمة حين اقترب الثور مني، واختطف السيخ من يدي، صِرت أعزل، قبل أن يقبض على رقبتي كالفرارجي المتمكن، رَفعني عَاليًا، ليسود الصمت إلا مِن صَرخاتي المختنقة، أقسمت على جلال باسم أمه «زهرة»، لعلّه يتدخل عِند الكفرة فيوصيهم خيرًا بالعبد لله، فلم يهتز له جفن، نظر إليَّ كمَن لا يعرفني، قبل أن تُشير «إيزيس» إلى «الثور» بإشارة، تهيأ بعدها للقتل، اعتصر رَقبة مُصوّر الموتى الغلبان، كمّاشة لم يقف في طريقها إنس ولا جان، صَارت شموع القاعة زرقاء، والوجوه حَمقاء، مُخي يفتقر للهواء، كَان ذلك حين قفزت «بَختة» قُرب أذن «إيزيس»، وهَمَست ببعض الكلمات، فرَفَعت البعيدة ذِراعها نحو الثور مشيرة متمهلة، فخفف قبضته على رَقبة الأب المَكلوم اللي هو أنا، وحين أدركت أول الأنفاس، اقتربت «بَختة» مني، استخلصت من شعرها المموّج إبرة نُحاسية، وغَرستها بكل سلاسة في قفاي، طعنت المخيخ، فضربني ألم لا يُحتمل، وقبل أن تختفي الحيطان من حولي، قبل أن تتلاشى وجوه شلة الكفَّار المتجمعين عند النبي، ذلك بخلاف الصقور والثيران، يا أخي أبو شكلهم كلهم، وعلى رأسهم الابن العاق الذي أنكر أباه بعدما أحياه بمُعجزة خَارقة ستتحاكى بها الأُمم جميعها، قبل أن يتلاشى كل ذلك العار؛ أطاح الثور بجسدي فارتطمت في الجدار، نَيزك هَبط مِن السَّماء السابعة بسرعة البرق.

* * *

(147) بزبوز: المقصود به فَم قربة العرقسوس.

(148) أبو داود: كنية لكل مَن تسمَّى بـ«سليمان».

(149) هَجَمَة: ضخمة.

(150) الماسون: ويقصد هنا جماعة «الماسونية»، أو إخوة البنّائين الأحرار؛ وهي منظمة سرية عالمية تحمل اتهامات بأنها تسعى للسيطرة على العالم، وأنها تحارب الدِّين، لكن لم يثبت وجود أي أدلة على ذلك.

(151) عرفث مصرُ المحافلَ الماسونية مع وصول «نابليون بونابرت» وأسطوله لمصر سنة ١٧٩٨.

(152) بركان جبل فيزوف: انفجر في سنة ٧٩ ميلادية، وهو واحد من أكثر الثورات البركانية كارثية وتدميرًا في التاريخ.

(153) تمثال محمد لاظوغلي باشا: تم تكليف المَثَّال الفرنسي «جاك مار» بصُنع تمثال للاظوغلي باشا؛ وزير مالية محمد علي باشا، وأول وزير للحربية، كما شغل منصب رئيس وزراء مصر عام ١٨٠٨، وإليه تُنسب فكرة مذبحة القلعة الشهيرة للتخلُّص من المماليك، ويقع التمثال في ميدان بوسط البلد بالقاهرة يحمل اسم صاحبه.

(154) الحسام: السيف القاطع.

(155) الفيافي: صحارٍ واسعة لا ماءَ فيها.

(156) سجام: سالَ كَثيرًا.

(157) جيمس ميس: أحد أهم أبطال الملاكمة الإنجليزية، وبطل العالم في الوزن الثقيل، وذلك خلال حقبة الملاكمة العارية بدون قفازات.

سِفر الطوفان/ إصحاح نِمرة ٨٩

غَجريّ: «اسم».

والجمع: غَجَر، المؤنث: غجريّة، والجمع للمؤنث: غجريّات.

قال العَرب إن «الغجرية» في اللغة؛ هِي امرأة تَسحر الرجال، وتسكُن التلال، ولا تُنجب العِيال، وقيل إنها إن أُلقيت في البحر بالأغلال الحديدية فلن تغرق، وإن امتلكت مناجم الذهب فسوف تسرِق، وحدَّثنا «أبو حمامة ذو الولاولة الحمرا» عَن الغجرية، فقال: إنها امرأة إن نزلت لتستحمّ في دِلتا النيل؛ خَرجت من ضفاف الفُرات، وفي اليوم الواحد تستطيع أن تحجّ لمكة سَبع مرات، على ظهر جَمل، فلا تحجّ هي، بل الجمل هو الذي يحجّ، وقيل إنها مضَّاغة للبان، ذات سُوسة في الأسنان، تُسخِّر الإنس والجَان، وقال بعض العرب إن «الغجرية» هي الفطيرة والبغاشة، والسمكة البلطي الحشاشة، وقيل إنها المِسك والكافور، لا تشرب من مياه الصُّنبور، ولا تهاب الصرصور.

حين انتهيت من تدوين مَا أَنْسَتني الإبرة النُّحاسية التي ثقبت دِماغي وبَعثرت اللَّحمية؛ لم أمنع نفسي من البُكاء بحُرقة، فقد رأيت بعيني فلذة كبدي «جلال الدين» وقد أصبح شَخصًا آخر، تبدّل، تحوّل، رَكِبه جِن، التبسته رُوح لا تعرف سليمان السيوفي، رُوح لها تابعون ومُريدون من جماعة الغدر، لماذا لم تقتلني الحُرمة إيزيس؟ لماذا مسحت من ذاكرتي ما رأيت بعدما مَسحت بكرامتي الأرض؟ ولماذا الآن استعدتُ كل ما حدث؟ إنها «الغجرية»، كَانت

مُجبرة مُضطرة مُرغمة، تواطأت مَع الجَماعة المَاسون؛ لأن الغدر في القلب مَكنون، مِثل أنثى العقرب، تلدغ دُون أن تدري السبب، لكنها في لحظة قتلي تراجعت، لسبب ما، ارتدَّت، انسحَبت، تقهقرت، عِشق سُليمان لم تفلت نتاية من براثنه إلى يومنا هذا، حتى الحُرمة «أباظة» الصّماء البكماء الكفيفة مَشلولة الأطراف الأربعة، دقَّت اسمي كَاملًا على فخذها الأيمن، مُزيَّلًا بلقب «مِحوَر الكَون سليمان».

لقد دسَّت الغجرية في جيبي المِشط الخشبي وسط الزحام، بصنعة لطافة، حتى إذا سرَّحت شعري به؛ حَضَرَ «شَنتَف أغا»، ضرَّتي الشفافة، ليُعيد إليّ ذاكرتي، قبل أن يَسيل العقل مِن الأنف فيَغرق قميص الجنة الأصفر ذو السبعة جيوب. وربَّما؛ هَمست الغجرية في أذن «إيزيس» بمؤامرة جديدة: «اتركيه ليَعيش يَومًا آخر، وسأجعله ع الحديدة»، لم أعُد أعرف مَن الخائن في الحقيقة؟ الفِرار من ذلك المارستان لم يَعُد اختيار، الإيطالياني الواطي إن علم أني استعدت ذاكرتي ولم أخبره بما كَان، سيسلُخني حَيًّا، فقد شرع في تنفيذ مُخططه، وأوشك أن يقدمني ككبش فداء للخديوي حتى ينال الحظوة ويستقر له الأمر دون منافس.

وكَان من أمري أن أيقظت زِفت الطِّين «شِكيب»، وأبلغته أني مُصدِّقه، مِن بَعد رؤيا أتتني أثناء نومي، رأيته فيها يأكل البرسيم في شم النسيم، ثم رأيت أني أذبحه بسكين تلِم. البرسيم في المنام نصرة، عَهد جَديد، والذبح فِداء، أكيد، والسكين التلِم تعني الطاعة، فبكى الحواريّ المُزيف وبربر يبيجي سَاعة، ثم حاول أن يحتضنني فتمنعت، وقرصت حلماته ليستفيق، فطبقًا لكِتاب «أصل الأنواع

- بقاء الأعراق المفضلة في أثناء الكفاح من أجل الحياة» للعلّامة الإنكليزي الشهير الأستاذ «تشارلز روبرت دَاروين»؛ والذي صَدر مُنذ عَشر سنين، في «فصل التهجين» ص٤٧٣، نجد أن «شِكيب» لا يمُت بصِلة إلى جِنس الإنسان، وفي نفس الوقت هو ليس حيوان، بل هو أقرب لنتاج زواج أقارب، حَدَث بين نتاية فرس نهر وذكَر من دُود القز، في مِياه مُستنقع ضحل؛ لذا فإن ذكاءه لن يبلغ دَرجة تُمكِّنه مِن الاستنجاء بعد التبول، كَما أنه يَملك لِسانًا؛ لا يُفرّق بين الحلو والمالح، الوِسِخ يُفضل نِكاح الموتى على مُضاجعة جَارية شَركسية زَرقاء العَين حَمراء الشَّعر رائحتها المسك والعنبر، يَملك ضَميرًا، مُؤقتًا، وولاؤه كَوَلاء الحمير، وحين خيَّرته بين الذَّبح، أو أن يَفدِي المسيح بروحه حتى ينجو، اختار «ناكِح الموتى» أن يَفدِيني دُون تردُّد.

حين دخل التومرجي وفي يَده الوَجبة المَسمومة المُعتادة، لم يتوقع أن يندفع «شِكيب» نَحوه تلك الاندفاعة، دَانة مَدفع مِن الضَّأن، مُحمَّلة بالأمل في الخلاص من خطيئة آدم، أراد أن يُكفِّر عن ذنبه لينال مَغفرتي، ويتشرف بصُحبتي في الملكوت، ليشرب من أنهار العَسل والكونياك، وينكح حُور العين الميّتَات، ولم أُرِد أن أعكّر مزاجه فأُخبره أن ذلك باطل حتى لا يتراجع عن مساعدتي.

واصطدم الذُّبّان، كَادا أن يَخترقا الحَائط، سَقطا بدَويّ هز الأرض، قاوم التومرجي وزنَ «شِكيب» ببسالة مُحارب من مُحاربي الفايكينج، لمدة رُبع سَاعة تبدَّدت فيها قوتهما، وكَاد التومرجي في النهاية أن يغلبَ شِكيب، لولا أن الأخير اعتصر رأس خصمه مُصادفة، تحت الإبط الأيسر، وما هي إلا لحظات؛ وفقدَ التومرجي الوَعي،

سَقط في غيبوبة لم يعرفها بشريّ من قبل.

حرَّر «شِكيب» يَدي مِن الكلبش، ارتدى زِي التومرجي الذي سَلْسَلْنَاه بعد سدّ فم المِسكين بلباس «شِكيب» ذي الألف ثقب كي لا يَصرخ. أخفيت أسفاري في سروالي، خشية أن تقع في يد الإيطالياني، ثم خَرَجنا مِن الأودة إلى المَمر، شِمال في شمال، التقطت أحد الأقنعة الجِلدية المُعلقة على الحائط، الكِمامة المُخصَّصة لكبح جماح كُل مَن فقدَ السيطرة على النفس. وكَأنِّي مَريض كفا الله الشر، سِرت بين المَجاذيب مُشفِقًا عليهم، يتأبّط «شِكيب» ذِراعي في حزم مُفتعَل، وكِدت أن أتقيأ من التأثر حين تداعت في عقلي الذكريات، الحوائط المدهونة بالآلام، والأرض التي تنبض بالمغص والكآبة، الحُرمة الكركوبة «علوية سبانخ» التي توسّلت إليَّ أثناء نِكاحها منذ عشرين عامًا؛ ألَّا أنام، ما زالت على قيد الحياة، وافقتُ على رغبتها يومًا بعدما هدَّدتني بأن تُفشي سِرِّي، لأنها رأتني أتقيأ العلاج في المِرحَاض، وذلك عقابه عند التومرجية حبسٌ انفرادي مَلْط في أودة مُظلمة لعدة أيام. وكَذَلك لَمَحت الشاب الذي أرادني أن أقطع أيره بالموس نيابة عنه، وأظن أن ابن العبيطة فعلها منذ زمن، حركاته تنضح بميوعة لا تُخطِئها العين. حين بلغنا باب المارستان، كان «ساسون» الحكيمباشي واقفًا بالمرصاد، تأملني للحظات، وقد أدرك بمفهُومية المُرابين ما فعلث بالتومرجي قبل لحظات، وحين شرع «شِكيب» في الدفاع عني، هَزَّ «سَاسُون» رأسه وهَمَس: «ارحل، إن عُدت إلى هُنا ثانية، فلا أضمن لك أن تخرج»، قالها الأصيل، وابتعد كأنه لا يعرفني حتى لا يثير الشكوك فيمَن

يتابعنا من بعيد.

خرجتُ إلى الشارع بصُحبة شِكيب، سِرنا سَاعة، قبل أن ألحظ الغيمة المثقوبة التي تتبعني أينما ذهبت، تُظلِّل طريقي، ومن الثقب فيها؛ تسلَّلَت أشعَّة الشَّمس لتضرِب رأس شِكيب دوني، تكفيرًا لذنب خيانته، فرَفعت يدي للسماء تحيةً على ذلك الواجب الخُصوصي، كَان ذلك حين التقيت ببائع الجرانيل، كَان يُنادي: «جريمة جديدة لقاتل الفضَّة»، اشتريت نسخة بنقدية كانت في جيب التومرجي، الصُّورة التي توسطَت الصَّفحة الأولى كَانت لرَجُل جلس على كُرسي، فوق رأس تِمثال «أبو الهول» المَطمور في الرمال(158)، وعَلى رأسه القناع الفضي إياه، تِلك لم تكُن المُعضلة، المُعضلة كَانت في الصورة المُجاورة للقتيل؛ صُورة القاتل الذي لم يكن سوى «جلال الدين سُليمان السيوفي». وَقْع ذلك كان أقسى مِن رؤيته وهو يموت على يد «إيزيس»، ثم عودته للحياة عاقًّا لأبيه.

لم أملك سوى أن أتجه من فوري إلى «ضَبطية مِصر» لأُقابل الإيطالياني مُجبَرًا، مُرغَمًا، مُكرَهًا، سأتوسل إليه وأتذلل، بكل نفاق وحيلة ومُداهنة، سأعرض عليه أن يأخذ «شِكيب عبد الصَّمد» بمُشتملاته ودُون مقابل، وليُلقِه في النيل لتأكله التماسيح، وسأنكر أني المسيح وسأنكر علنًا أني المسيح، سأخبر أتباعي أني «كُنت باهزر»، بل إذا أعطاني الآن سبع بارات(159)، سأجلِب له نواعم لينكِحها، لَعلِّي أستطيع إقناعه أن أقابل «جلال الدين»، لن يعرف الإيطالياني أنه ابني إلا إذا قارن الأير بالأير.

في بناية «ضَبطية مِصر» الكئيبة، ووسط زحام وهرج ومرج لم

أره من قبل، طلبت مُقابلة «بيلاطس البنطي»، وكَانت تنتظرني مُفاجأة بحجم «نيسترا سينورا دي لا سانتيسما»(160). خرج لي حارسُه الضخم، وبعينين مُتحجرتين، تصارع فيهما الغضبُ مع المرارة، جذبني إلى أودة جانبية وأغلق الباب، نظر مِن حوله ثم قال: «إن الجثة التي وجدها القوّاصة فوق تمثال «أبو الهول» المَطمور، الجالس على الكُرسي، لم تكن سوى جثة سيدي السينيور «كارليسمو». «يا نهار اسود ومنيِّل بستين نيلة، غَريمي! بَطَل مُؤامرة المقرونة الإزباجت ومَسيخي الدجَّال بذات نفسه؛ أصبح أضحية؟ لقد نجّى الرب المحروسة مِن مَكيدة أروباوية عثمانلية كادت لتطيح بها، وأغرقني في حيص بيص. مَن قتله؟ جلال الدين ابني؟» شُلّ تفكيري للحظات، وكَمسيح لا يُجيد إلا المغفرة، المَشي على الماء، إحياء الموتى وإنقاذ البشرية ساعات؛ رَسَمت الصَّليب بين جبهتي وكتفَيّ، وطلبت من الحارس أن أقابل القاتل الذي تمَّ القبض عليه مُتلبسًا.

قال: «لم يتمَّ القبض على الزنجيّ مُتلبسًا، بل كَان يَجلس أسفل تمثال «أبو الهول»، قُرب المأمور القتيل، في هُدوء مُريب، وكأنه ينتظر مَن يأتي ليُلقي القبض عليه، ليس لديّ سُلطة عليه لحين البَتّ في أمره، لقد انتهت مُهمتي في القاهرة الملعونة، وإني لأرغب في تكفين سيدي قبل تكريمه مِن قِبل الخِديوي إسمائيل، ثُم مُصاحبة جثمانه إلى مسقط رأسه في روما ليُدفن هناك».

بعد إلحاح، وافق الحارس على مُساعدتي في فحص الجُثمان، قال: «أوافق فقط لأن سيدي - ورغم المناخوليا التي تُعانيها - كَان يثق

في قدراتك على حَل المعضلات الجنائية». وعَنها، انتقلت بصُحبته وصُحبة «شِكيب» إلى المشرَحة، هُناك، كَان غَريمي العِنّين يَستلقي في انتظاري فوق الطاولة، بجانبه دُوقتور الصحة المتواطئ في المؤامرة، يَستعد لتشريحه، طِبقًا للخُرافات والخُزعبلات السائدة، والتي تلقَّاها في مَدرسة الطب الفاشلة.

طلبت من الحارس - والذي أخجلُ بعد كُل تلك العِشرة المُخجلة من أن أسأل عن اسمه - أن يتدخَّل، فحاول أن يُثني الدوقتور عن التشريح، مُتحججًا بأن هناك أمرًا من السرايا بأن يتولى «سليمان» أمر القتيل، ولما بدأ الدوقتور في الصريخ كالولية المُطلّقة، مُشيرًا بكل غُرور إلى أنه مُكلف مِن قِبَل الخاصَّة الخديوية بتقديم التقرير والمشورة عن مقتل ريس البوليس، وضعتُ ما تبقى من الكلوروفورم فوق قُطنة، وقبل أن أكبسها أمام أنف البِعيد، خبطه الحارس الإيطالياني لُوكَّامية أسقطته على الأرض، وزفر بعدها: «بُوركا بوتانا»؛ بمعنى: «زمن مُعقد وملبَّخ، فيه الأسد يتوبّخ، واللبوّة تِشخُط وتتنفَّخ»، وتولى شِكيب سحب الدوقتور إلى رُكن بعيد عَن طاولة التشريح، فقرأتُ الفاتحة على رُوح «بيلاطس البنطي» ناكِر المسيح الذي لم يُسعفه الزمن لِصَلْبي، ثم مَسحت جَسده بالعدسة المُكبِّرة قبل أن أمسك بالمشرط، وكانَ أن اكتشفت حول رقبته بودرة سوداء، هِباب، آتية من تحت القناع، لم ألاحظها في الضَّحايا مِن قبل، لعلها ذابت في مِياه النيل مَع جريان الماء على عُنق «زَهرة»، وتاهت آثارُه في رَقبة «الوهم» بعدما اختلطت بصدأ الطوق الحديدي. جَمعت مِنه عَيّنة فوق قطنة بيضاء، وقربتها إلى أنفي الذي لم يتردد في الإجابة،

إنها رائحة الرصاص. ثانيًا، القتيل كَان بعيدًا كل البُعد عَن الماء، ذَلك النمط الذي ظننته ثابتًا في الضحايا، وكَذلك، هو ليس من عَجيبي الأطوار، هذا إذا استثنينا الأير الزُّغيّر الذي يُميز كل مَن هو ليس بسليمان السيوفي، وأخيرًا، الكف المَقطوعة المُعتادة، لم يكن القاتل ليغفل عن تلك العلامة.

قبل أن أشرع في التشريح؛ خَلعت السُّترة «التشيسترفيلد» البنفسجية بحِرص مِن فوق جَسد «كارليسمو»، وناولتها لابن عبد الصَّمد النجس، وأمرته أن يَدُسَّها في صُندوق الكَاميرا بعناية، على أن يُوصِّلها إلى «أم بيدرو» الخياطة لتضبط مقاسها، وحين تساءل الحارس عن السبب؛ قُلت: «إن هُناك أدلة تستوجب مني التحفظ على تلك السُّترة لفحصها»، والحمد لله، كَانت نَظيفة، لا يُلطِّخها نزيف، مُنذ رأيتها في ڤاترينة الطرزي «أورلاندو» بالعتبة في يوم ثلاثاء بعد صلاة الجُمعة، وأنا أهيمُ بها حُبًّا.

المُفاجأة الحقيقية؛ كَانت أسفل القميص الحريري لكارليسمو الله يرحمه، أربطة بيضاء من الشَّاش العَريض، تدور حَول الصَّدر، وتلف من وراء الظهر، أخفت تحتها... ثديَيْن رَشيقَيْن، لسيدة جميلة تخطَّت الثلاثين. حين أزلت السِّروال اكتملت المأساة، كارليسمو البنطي، كان سَمكة بُنطية، لم يكُن عَنّينًا، بل حُرمة طرية، تقص شعرها كما الرجال، لها عُضو ذَكريّ ضَامر مُتآمِر، أسفل منه مهبل كَامل، غِشاء البكارة فيه استعمال دوقتور صِحّة ضعيف الصحة، يَحتاج إلى طِن مِن توليفة سُليمان، وفِي الجوف، كان الرَّحِم سَليمًا، تَستطيع الإنجاب غدًا إن أرادت.

ألجمتني المُفاجأة! وألجمَت حَارسَه الذي أصبح في لحظة، حارسَها، كَيف لم يلحظ مِن قبل أنه في حَضرَة «خُنثى» طاليانية؟ وكَيف عاشت تلك المسكينة في المحروسة كُل ذلك الزمن دُون أن يشعر بها أحد؟! حواء فقعت مرارة آدم ولم تكسر ضِلعه فقط، هَل يَعلم الخِديوي إسماعين أن رئيس قوّاصته خُنثى؟ هل راودها عَن نفسها يَومًا ورقصت له رقصة النحلة(161)؟ إسماعين عكروت أنا عارفه من أيام لوكاندة بير الوطاويط!

توقَّف عقلي عن الدوران عَكس عقارب السَّاعة، وتذكرت اليَوم الذي دَعوت فيه عَلى «كارليسمو» من كل قلبي دعوة مُستجابة، قلت: «وسَأنكحك يا ابن الرفضي، لا بأيري الذي لا يَرضى بالذي ترضى به الأيورُ جميعًا، بل بأير شِكيب»، وأدركت في نفسي أنها مسألة وقت قبل أن يبدأ «شِكيب» في مُمارسة عَادته، نِكَاح المَوتى، فعجَّلت بفصل رأس «كارليسمها إيه» إجراء عَديم النفع، كُنت أظن ذلك حتى أزلنا قناع الفضة باستخدام أداة الصائغ التي اشتريتها من الصاغة لتقليل التكلفة. عِظام الحَاجب لم تكن بارزة، شَأن جماجم نِتي الإنسان دُونًا عن الذكور، والوجه كَان مُغطّى مُعظمه بطبقة رقيقة مِن الرصاص، مِما أجاب على أكبر التساؤلات؛ فالرصاص يَعمل كمَادة عَازلة، يُتيح الطلاء الكَهربي بالفضة دُون أن يَمَس الرَّأس بحَرق يَشوي الجِلد من تحته، ولكن؛ مَسبك حديث وحيد بلوندرة هو المسئول عن تلك التقنية، مَسبك لا يمكن نقله إلى القاهرة، وتقنية لم يكشفها الإنكليز قبل شهور.

كَان عليّ الرحيل عن المشرحة قبل أن يستيقظ دوقتور الصحّة

المُلقى في الركن، لَملَمتُ جثة «المسيخة الدجّالة» الإيطاليانية، التي راحت ضحية قبل أن تُضِل الخلق أجمعين كَما قالت سُنن الأولين، وبمساعدة الحارس، وضعنا الجسد في تابوت، بعدما خيَّط «شِكيب» الشق الكبير المُمتد مِن العنق إلى الرحم، أسندت الرأس المقطوع فوق الكتفَيْن، ثم قرأت الفاتحة ورسمت الصليب، قبل أن أتجه إلى «ضبطية مصر»، لَعلِّي أحظى بمقابلة مع ابني العاق جَلال الدين، المَحبوس على ذمة التحقيق، وهناك، لم أجد لذلك سبيلًا، فالقواصة الأتراك هُم أصل الغَباوة في الأمم الشرقية، وقد سبَّني كَبيرهم الذي يَستقر أمام باب زنزانته قائلًا: «صُوص خَنزير... صُوص بُودالا»؛ ينعتني بالمجنون الهُزء أبو ريالة، فأدركت الاستحالة، ولمّا استندتُ الجدارَ خلف مَبنى الضبطية، وأشعلت سيجارة، أخذت أفكر وأفكر، قبل أن أُخرج المِشط الخَشبي مِن جَيبي، سرَّحت شَعري حتى خُيِّل إليّ أن «شِكيب» قد ضَرط دُون صَوت، وحين هممت بأن ألسعه قلمًا على قفاه، سَمِعت صوت الأغا شَنتَف يقول: «لا تتعجل»، ثم لاحظتُ السَّحابة السَّوداء، قبل أن يمتد الظِّل على الأرض، قادمًا من بداية الحارة، ظِل الألماظية الخائنة، بَختة، تحمل مِصباح، حقنتْ مثانتي عن التبول من شِدَّة الروع، فاقتربتْ مني وقالت: «لم يحِنْ وقت الفِهم بعد، لنُحرّر الفتى ثم نتكلم»... وحين سألتُها عن العمل والكيفية، أخرجتْ مِن بين خصلات شَعرها المُموّج... إبرة نحاسية!

* * *

أمام الزنزانة...

اقتربتُ من القوّاص الحارس، فتنفس في ضِيق وهزَّ كُرباجه إيذانًا

بتلقيني درسًا، استمهلتُه، وبصَنعة لَطافة أشرتُ إلى ورقة أحملها بين يدي: «جئتُ بإذن من الخديوي»... وحين هَمَّ بقراءتها في قرف، وَجدها خالية من الكَلام، كان ذلك حين رفعتُ الإبرة لأغرزها في رقبته، فلَكمني... تصارعنا على الإبرة، قبل أن يتهاوى على الأرض كالخرقة حين رشقتها في صَدره بالصدفة، لم يغبْ عن الوعي، بل سالتْ ريالته بغزارة، وظهر في عَينيه خواء رَضيع لا يفقهُ من الدنيا شيئًا، ذَلك مثل ما حدث في قاعة الكفَّار الحجرية. سَلَتُّ مِن جيب الحارس مفاتيحه، أغلقتُ الباب، خلعتُ ملابسه ولم يُقاوم، بل ابتسم في غُشم معزة في يد جزار يوم عيد الأضحى صباحًا.

ودَخَلت إلى جَلال، كَان يَجلس في رُكن، واليدان مُسلسلتان بالكلبشات، رائحة البخور العَجيب كَانت منتشرة في الزنزانة، نظر في وجهي بجهل ثم قال: «مَن أنت؟»، قلت له: «أبوك يا ولد»، فنظر في عينَيّ بشكّ، ثم قال: «أبي لم يُولَد بَعد»، حبيبي يُعاني سكرات المناخوليا، سألته عما كان يفعل فوق تمثال «أبو الهول» المَطمور، قال: «كنت أنتظر وصول المارق، هكذا أُمرت»... ولضيق الوقت، لم أمهِله الوقت ليُمارس العقوق، اقتربت منه، وغرزت الإبرة في رقبته، فحدث له ما حدث مع القوَّاص، وما اختبرته على يد الكفار، صَار حبيبي أهبلَ، وكأن المخ نزل من أنفه، سَال على الأرض وتسلَّل. فَككتُ أغلاله دون مقاومة، وألبسته زِيَّ القوَّاص المُستلقي في الخارج، ثم وضعت الأغلال بين رسغي ورسغه، وقُدته إلى الخروج فأطاعني كدُمية.

كَأني المَسجون بين يدَيْ جلال، خرجنا مِن النفق المظلم إلى

السَّاحة المزدحمة، مَشينا خطوات بين القواصة قبل أن ينتبه أحدهم، صَرخ مُناديًا في شك، فتوقفنا، وحين رَفع مِصباحه في وجهنا أدرك أن هناك خطأً ما، وقبل أن يلتفت لينادي زملاءه، قبل أن أسلت الإبرة استعدادًا لغرسها في رقبته، وفي اللحظة التي أخرج فيها مُسدسَهُ وصوَّبه إلى صدر جلال، حَدَثت مُعجزة لم تكُن على البال، فقد أحاطت بنا سَحابة سَوداء، «شَنتَف أغا» كَان فيها بالمرصاد، نفخ في مِصباح القواص فانطفأ، قبل أن يصرخ في أذنه صرخة جعلته يبول على نفسه ويركض مِن الهلع، وكانت تلك اللحظات كافية، لأخرج بصُحبة جلال من مبنى الضبطية.

في تلك الليلة، جلستُ بَختة على ضَوء المِصباح في المَركب التي استأجرناها لنقضي فيها ليلتنا حتى يطلع النهار، نظرت في عينها البنفسجية طويلًا، قبل أن أطلب منها الإفصاح، ولما تأخر ردّها تردُّدًا، أخرجت من جَيبي الإبرة النحاسية مُهدِّدًا بإلحاح، فقالت الغجرية بهدوء وبعد ارتشاف القهوة: «شَنتَف يعرف الكثير، فهو مستوظف قدْ الدنيا بالمندل»، بحثت بعينَيّ في خصلاتها حتى خرج منها، ريح أسود تكتَّل وتجسَّد أمام النار، ولم يَره «شِكيب» لأن نظره شِيش بِيش، قال العِنّين الشفاف: «إن الفِهم والإدراك؛ قائمان على المعرفة، وعقلك يا سليمان، شأن عقول البشر؛ مَحدود مَقصور مَحصور بما أحاط من الخِبرة التي ورثها أجدادُك عن الأمم السابقة، سَقف، لا يَستطيع استيعابك أن يتخطّاه، ولم تكن لتحتوي أو تفهم ما هو أعلى منه».

«جَربني يا أغا، ولن تخسر شيئًا»، هكذا قلت. فأجابني: «الطامة

الكبرى أتت؛ حين حدث انقطاع للمَدد، هَبْ أن أجداد البشر مَاتوا جَميعًا في زمن لم تكن الكتابة فيه ضرورة، في صباح يوم لا يمُت لأيام الأسبوع بصِلة، بل ولم يكن هناك أسبوع مِن الأساس، هَبْ أن البشرية كُلّها تلقت في الرقبات إبرة مثل التي تحملها بين يديك الآن، فنسوا كُل ما فاتهم من العلوم والمَعارف، لتبدأ الناس في الاستكشاف من جَديد، صِفر على الشمال!».

طلبتُ المزيد من الاستيضاح، فاستطرد «شَنتَف» بعدما أشعل بسبابته غليون بَختة: «لقد غَضبَت الشَّمس يَومًا على أهل الأرض جميعًا، غَضبة تتكرر كُل اثني عشر ألف سنة، فأرسلت دَفقة مِن جَحيمها المُستعر، أحرقت أول كَوكَبَيْن من أتباعها، وعوجت مِحور الأرض، بات الشمال جنوبًا، والغرب شَرقًا، في عدة سَاعات، وحدث إثر ذلك طوفان مُروِّع، تحدثت عنه كُل كُتب الأقدمين دون استثناء، وتم نسخ ذلك في الأديان، صَاحَب ذلك الطوفان زلزال عظيم، استمر ثلاثة عشر يَومًا كَاملة دُون توقف، كَان كفيلًا بأن يسحق كل مبنى قائم، ويَمحي كُل ما أنتجه البشر السابقين مِن علوم، وللعجب، لم يمُت كُل البشر، ولم تمُت كل الحيوانات، بل نجت طائفة ضَئيلة العدد، لاذوا بالمراكب، واحتموا بقِمم الجِبال، تحمَّلوا أهوالًا، وتَناسلوا بصُعوبة بالغة، لتقوى شوكتهم عبر سنين وقرون؛ نَسوا فيها كُل ما تبقى في الذاكرة من معارف وعُلوم، وباتت الأجيال لا تُورّث بعضها إلا أماكن الطعام المُحتملَة، كَان ذلك قبل أن تجف الأرض، لتبدأ الحياة من جديد، ويظُن الأحفاد بدون سِجلات؛ أنهم الأجداد، باكورة النَّسل السَّماوي المختار، وأن حَضارتهم التي صنعوها بأيديهم؛ هِي

أولى الحضارات بين الأمم.

أما الحِجارة العِملاقة والتماثيل العَارمة التي وجدوها مُبعثرة من أثر الطوفان الذي لم يترك على الأرض أي بنيان إلا وأماله أو أسقطه، فقد نسبوها لمَخلوقات أطلقوا عليها أسماءً مثل «الحنّ والبنّ» «الطّمّ والرّمّ» واختلقوا الأساطير حولهم، قيل إنهم سكنوا الأرض قبل الإنسان، وتحاربوا جميعًا، حتى أرسل الله الجانّ، فهزموهم، قبل أن تُفسدنا القوة المفرطة، سُنة من سنن الحياة، ثم ظهر آدم، ولما طغى نسلُه، أغرقهم الطوفان، فنحت الأحفاد أسماءَ مُلوكهم على كُل ما وجدوه مِن تماثيل وأحجار، وكَذلك نقشوا المسلّات المتجهة للسماء، نَسبوها لأنفسهم، ولم يجرُؤ أحدهم على اقتحام الأهرام الواقفة في صَمت، شَاهدةً على كُل ذلك البلاء، لقد نسيَت الأجيال أن تلك الأحجار المُعجزة، هِي نِتاج بشر، ينتمون لحقبة ما قبل الطوفان، وحين بدأ زمنُ التدوين في الصَّخر، لم يُسجّلوا كَلِمة وَاحِدة عن حقيقة الماضي السحيق، وليس من بينهم مَن عرف حقيقة السادة المُبجّلين».

سألته: «وهؤلاء هم الماسون، بقايا البشر الأولين؟»، نظرتْ بَختة في عيني للحظات ثم قالت: «لا يا سليمان، الأمر أكبر من ذلك بكثير»، وحين سألت: «مَن هُم المُبجّلون إذن؟ ومَن هي إيزيس؟ ولماذا يَعبُدون الصَّنم ذا الآذان؟ ومَن هُم الصقور والثيران؟» زفرت بَختة وبصقت في النيل، فاستطرد شَنتَف: «هُنا تتوقف المَعارف يا سليمان، حتى المندل الذي نتداول فيه الأخبار، لا يعرف عن أمر المُبجّلين شيئًا، ولكي تكتمل المَعرفة، يجب أن تحصل منهم على

إذن، إجازة، مأذونية وسماح، هناك كتاب يحمل كل أسرارهم، لا يعرف لُغتَه إلا النخبةُ فيهم، كل ما قلت لك لم يكن إلا كلمات تناثرت بينهم في المجالس التي حضرتُها دون علمهم، قبل أن يُلاحظني أحدُهم، ويَصرخ في وجهي مُهدّدًا إياي بالحرق».

ولما سألته عن أسباب استهداف «زهرة» و«الوهم» و«الإيطالياني الخُنثى» قال: «إنما يريد المُبجّلون أن يُنزِلوا الروع في صدر شَخص لا نعرف اسمه، يَبحثون عَنه مُنذ سِنين، مُختار، مُصطفى، مُخلِّص، يملك القدرة على هزيمتهم، لكنه لا يعرف قدره، ولا يدري مهمته، وبالخاتم الذي امتلكوه الآن، أصبحت لديهم القوةُ التي تُمكِّنهم مِنه، إن قتل الخُنثى الأخير؛ ليس إلا تهديد ووعيد، لذلك الشخص المختار، حتى يخرج عن صمته فيواجههم».

وتفجّرت الأسئلة من جديد، عَن موضع القاعة التي سلبوني فيها الخاتم؟ عن حَالة جلال العَتِرة؟ ولماذا أقدم على قتل «كارليسمو»؟ ولِماذا استسلم للاعتقال دون مُحاولة للهروب؟ هزَّت الغَجرية رأسها في حَسرة وقالت: «ابنُكَ لم يقتل، ابنك الحقيقي خرجت روحُه أمام عينَيك، ذلك ليس إلا جسد بلا روح، لقد سلبوها أمام عينَيك، أما القاعةُ الحجرية التي تقابلنا فيها؛ فطريقُها يَبدأ عِند معبد «الوادي»(162)، أمام تمثال «أبو الهول»، حين وصلت إليها في أول مرة، وضعوا العصابة على عِينيا، وامتنعت عن اصطحاب «شَنتَف» من يومها، لأنهم أدركوا وجوده، وقرءوا عليه الطلاسم فلَسوَعُوه، وصَرخ الحارس في وَجهي وهدَّد بحرقه إن لم يتبدَّد؛ حبيبي بعد الشر عليه. أما اللغةُ التي يتكلمون بها، فهي لُغة الملائكة التي لا

يتكلمها بشر، الآن قد بلغت سَقف مَعرفتي ومعرفة الجنيّ الذي يسكن شعري».

«لماذا عُدتِ يا بَختة؟».

سألتها فترقرقت عيناها وقالت: «لم يكُن لغجرية مِسكينة ذليلة مَطرودة مثلي أن ترفض ما طُلِب منها؛ فالمُبجّلون يعرفون كل شيء، راقبوا زوجتك؛ لأنها كانت منهم، وأجزلوا العطاء في بني الغجر كي يصيروا خُدامًا لهم، ويعلموا مَكان الخاتم من أجلهم، وقد تلقيت نظير مُساعدتهم ما يُغنيني عن البشر حتى الممات، هُم لا يَملكون الشفقة على أمثالنا، نحن بالنسبة لهم أدوات، لكنهم يفهمون ما يعتري أنفسنا قبل أن تنطق به الكلمات، ولا شَيء على تلك الأرض يَستعصي على مَقدرتهم، حتى الجنّ، يَرونه ويُسخرونه لخدمتهم، ورغم كل ذلك... لم أستسغْ أن أخونك يا سُليمان، بَعدما أكرمتني ودلّعتني، وقصصت عليّ قصتك مع زَهرتك المَقطوفة قبل الأوان، وقد أصبحت خبيرة في صُنوف البشر، ورأيت في عينيك من أول نظرة، ورغم المناخوليا، أمارات الطُّهر والنقاء، فما كان مني إلا أن رقصت على السلّم من أجلك، مثلما ترقص الغازيّات، استدرجتُك كما أُمرتُ من قِبل المُبجّلين، لكني حَرّرتك لوجه الله، وأعدت إليك عقلك الذي سَلبوه، بمُساعدة «شَنتَف» أغا؛ زوجي العِترة المُعتبر، سبعي وجَملي، وسيظل مَقتل «جَعجو» هُو خَطيئتي المُنكرة، والتي سأُكفِّر عَنها حتى المَمات».

مَسَحتْ «بَختة» بَرابير الحسرة والندم، على مقتل العجوز الكُبَّارة، ثم دَسّت يَدها في صَدرها البحبوح فأخرجت العلبة النُّحاسية التي

تحوي البرغوث وقالت: «مِن الآن... أنتَ طالِق يا سليمان»، قالتها وفتحت العلبة، فأطلقت البرغوث منها إلى الهواء، فَما كَان مِن الغَشيم الأحمق إلا أن طار بالغلط، مَشدودًا للنار مَسحورًا، مِثل كُل حَشرة لا تتعلم من أخطاء غيرها. اقترب من اللهب، حَامَ، فاحترق، فشخرت ولطمت وكِدتُ من الرعب والقهر أن أُلقي بشِكيب في مياه النيل ليأكله السَّمك، البراغيث الآن علِمت بالخبر، وسيأتون أسرابًا ليلدغوا إسْتي في صَخب حتى الموت، لكن بَختة ضَحِكت، وسمعت شَنتَف يشهق ويُقهقه مِن بَين خُصلات شَعرها ويقول بصوت مائع: «دِي كانت دُعابة يا ابن الناس، إكمِن عِينك زايغة على النِّسوان، زي النسناس».

قبل الفجر، أمطرت السماء، وافترقنا عِند الضفاف، تَركت «جلال» في مَعية «بَختة» و«شَنتَف أغا» بعدما ضَممتُه وقبَّلت رأسه، دون أن يعي المسكين أني أبوه. «أوكوموكو» قلتها بلغته كما قالها يومًا عند النهر، وتعني: «الوداع يا وريث مملكتي، يا ابن عمة بنت أختي الوحيدة صفيَّة». وَعَدَتني «بَختة» الله يكرمها أن تعتني به حتى أعود إليها يومًا ومعي الحل. وكَان من أمري أن سِرت تحت المطر، مُتقيًا جبال البعر السابِح العابر لعتبات البيوت(163)، حتى وصلت إلى مَوضع السَّلطنة والتأمل، مَحطة تلقّي الوحي السماوي، بُوظة «كنّي»، رَكَنت «شِكيب» على جنب، وناولته طبقًا من الفول الحِرَاتي، ثم تكوّعت، وَضَعت سِنّة الأفيون تحت لساني، طلبت القهوة السادة، وأشعلت شَمعة الفكر المستكوفي، مُتخذًا من كَلمات «بَختة» زادًا؛ يُمكّنني من أن أستكمل الصورة المشوَّهة المُهترئة التي عَكَفتُ على

جمع أجزائها المنفصلة مُنذ اندلقت قهوتي الإفريقية في النيل، فنجان البُن الذي لم أعرف حقيقته يَومًا.

أمسكت بالورقة والقلم، وكتبت بعض الكلمات بخط لا يفقهه إنسان غيري: «إنما يريد المُبجّلون أن يُنزلوا الرّوع في صدر شَخص لا أعرف اسمه». رَسَمت خَريطة، وَوَضعت أماكن الجثامين فوقها، «زهرة»، أتت من الجنوب إلى الشمال، سابحة في مِياه النيل، مرَّت من أمام «الوهم» عند سَاقية مَجرى العيون، والذي كَان مُتجهًا بوجهه شَطر الغرب، ينظر ناحية «أبو الهول» المَطمور في الرِّمال، مَواضع القتل إن دلّت على شيء؛ فهي لا تدل على أي شيء... إلا أن مَوضع حدوثها البارز المُميَّز، صنع شكل مُثلث.

واستنتجت كذلك مِن كَلمات «الغجرية» و«شَنتَف»؛ أن أولئك السَّادة المُبجّلين، يَملكون من العلم ما مكّنهم من صَقل الرءوس بالفضة، باستخدام الرصاص كمادة عازلة، تُنثر لتُغلّف الرءوس، مثل نثر البقسماط فوق اللحم؛ وتتولى الكهربا طلاء المعدن دُون المساس بالجلد، تقنية سِرية حديثة، بالكاد بلغها الإنكليز وحدهم منذ سِنين، إن كان الطوفان قد صفَّر عدّاد البشر البائدين، فالباقين منهم يملكون في جعبتهم علومًا لم نسمع بها من قبل، أما القناع، فهو إما وَصمَة عَار، أو رُعب يُلقيه «المُبجّلون» في قلب شخص يستهدفونه بالعداء، شخص متمرد، يريد ما لا يريدون، أو أن الفضة دُونًا عن باقي المعادِن، تمنع الروح من العودة للجسد الذي غادرته. شمع أحمر، يقطع كل أمل في الولوج للجسد.

بالمفهومية التي أضاءت جنبات العقل من أثر الأفيون وقرعة

البوظة والطرب الأصيل، تجلّت التفاصيل أكثر فأكثر، واختمرت الفكرة في منطقة الحصين(164)، لقد تذكّرت الآن، أن الأداة التي رأيتها في الكهف ورأيت مثيلتها في قاعة المُبجّلين، ذلك السيخ المشقوق، يُشبه إلى حد كبير «أداة فتح الفم»(165) المرسومة في جدران مقابر قدماء المصريين، فالأسطورة تقول، إنهم كانوا يستخدمونها لتمكين المومياء من الكلام بعد البعث، واستعادة النفس.

ماذا إن كانت أداة للإحلال؟ للغرس والاستبدال؟ أليس ذلك ما حدث أمام عيني لجلال؟ ذلك يُفسر الجرح المتكرر في فم الضحايا جميعًا، لكنه لا يُجيب على السؤال، هل مات من مات حقًا؟ وأين تذهب الأرواح؟ لقد كانت بَختة تنادي «جعجو» بلقب خازن الأرواح، هل الضَّحايا - ومن بينهم زهرتي - ينتمون لمُشوَّهي الخِلقة في الأساس، أم أن فيهم «شيئًا» جدّ، استجدّ ونشأ، فأخفق الجَسد على مدار العمر المديد في أن يستوعبه ويحتضنه ويستسيغه. جَمرة، فوران، ثورة، رُوح مغايرة؟ ثَمرة نبات تحتويها الأرض التي زُرعت فيها، فما كان من الجَسد العائل إلا أن قاوم مُتبرمًا مُتضررًا، تبدّلت خَصائصه وسِماته عبر السنين، تشوهات، قد يكون لديهم ذيول أو ريش أو قشور، أو قد تحدُث وِلادة من الفم، ينمو القزم في بطن عِملاق، أو تضُم الخُنثى أيرًا ومهبلًا في ذات الوقت، أحمد الله أنْ لم ينكح الإيطالياني نفسه في حَضرتي. أما مكوث «جَلال الدين» قرب جُثة «كارليسمو» مُنتظِرًا، فيدُل على فقدان الشعور والإرادة، جلال كان في انتظار رجل يَعني لهم الكثير، رجل مُصطفى، مُرتقَب، مُنتظَر،

ومَا الذي ارتكب حتى يَصير مع مقتل كُل ضَحيَّة؛ دَعوة مفتوحة من أجله للنِّزال، للقتال، للاعتقال، لسرقة روحه بالسيخ المشقوق.

«كنت أنتظر وصول المارق، هكذا أُمرت...».

وهكذا قال «جلال» اللي مش جلال!

وكَان مِن أمري أن توكلت على الوهاب، صليت الفجر سبع ركعات، دَهنت مَرهم الوقاية من نور القمر، ثم مسحت شعري بزيت من قنديل في مَسجد السيدة الطاهرة «أم العواجز(166)»، بعدما تركت لشِكيب عبد الصمد ثلاثة وأربعين جنيهًا، تكفي لشِراء الحِبال والخشب والزوايا الحديدية وأجولة العلف والحبوب، ثم توجَّهت فَوق البغلة السوداء المَبروكة ڤيكتوريا، إلى هَضبة الجِيزة، حيث يقع معبد الوادي المهجور، أمام التمثال المَهُول، ذي الصانِع المَجهول، والملقب بـ: «أبو الهول».



---

(158) في ذلك الزمن كان تمثال «أبو الهول» مدفونًا في الرمال، ما عدا رأسه..

(159) البارة: كلمة فارسية تعني «قطعةً» أو جزءًا، وتُعد أصغر وحدة نقدية في الدولة العثمانية. الأربعون «بارة» تساوي قرشًا واحدًا.

(160) «Spanish ship Nuestra Señora de la Santísima Trinidad»: سفينة حربية إسبانية تُعد الأضخم في التاريخ خلال القرن التاسع

عشر.

(161) رقصة النحلة: ظاهرة كان فيها النساء أو الرجال (الخولات) يقومون بالادعاء بأن نحلة دخلت جسدهم ليقوموا بالتعرّي من الملابس قطعةً قطعة.

(162) معبد الوادي: معبد يقع أمام تمثال «أبو الهول»، خُصّص لإقامة الطقوس الجنائزية للملك المُتوفّى؛ من تطهير للجسد، وتحنيط، وتلاوة الصلوات الجنائزية.

(163) مشكلة انتشار بَعْر (روث) الحيوانات الجارّة مثل الحمير والبغال والأحصنة كانت مُعضلة كبيرة قبل اختراع السيارات وتطوير شبكات المجاري، خاصة مع هطول الأمطار في الشتاء، والتي كان ينتج عنها تسرُّب البعر إلى البيوت.

(164) الحصين أو قرن آمون (Hippocampus)؛ يوجد داخل الفص الصدغي بالدماغ، وهو يلعب دورًا أساسيًّا في التعلم والذاكرة.

(165) طقوس فتح الفم: كان قدماءُ المصريين يتبعونها بعد أن يتم تحنيط جسد المتوفّى، قبل وضعه في التابوت، في حضور الكهنة، وكان الغرض منها إعادة الروح للمُتوفّى.

(166) يقصد مسجد السيدة زينب؛ أم العواجز، وكان ذلك لقب السيدة الجليلة والذي يعني السيدة التي تَعتني بالمُسنّين والعَجَزة.

سِفر أبو الهول/ إصحاح نِمرة ٩٠

دَعوني أُوفي السيف في الحَربِ حَقَّه

وَأَشرَبُ مِن كأسِ المَنِيَّةِ صافِيا

وَمَن قال إني سَيِّد وابن سَيِّد

فسيفي وهذا الرُّمح عَمّي وَخالِيا

حَان وَقت الثَّأر مِمَّن قَطَف زَهرتي

وسيكُون سَيفُ الرَّب لمَسيحِه كَافِيا

الشاعر «عَنترة بن شدَّاد»

(عَدا البيتين الأخيرين، من استنباطات العبد لله)

حين وصلتُ إلى هَضبة الجيزة، وَجدت الشَّمس مَقموصة؛ أصل نِفسها عزيزة، أدارت وجهها للغرب إيذانًا بِلَيلة مَلِيلة بستّين لِيلة، كَرب. تركت السَّماء فيها مَكسوّة بلون ثائر حائر، الأحمر لا يليق في لَون الستائر، مُهيّئة لاستقبال قمر كامل، نوره مَسمُوم؛ لأنه بائر، وكَان من بوادر النَّحس؛ أن توقفت «ڤيكتوريا» فجأة عن المُضيّ، حين بلغنا تمثال «أبو الهول»، نزلت من عليها لعلها تستريح، ووضعت لها بعض البرسيم والشِّيح، لكنها فرّت، رَكَضَت فجأة دُون إذن، حتى طوتها الكُثبان، فنظرت إلى رأس الرجل العابس منذ الأزل، فوق جَسد الأسد المهيب المَغموس حتى الصَّدر في الرمال، أبو الهول، انتابتني قشعريرة، تلك أول مرة أشعر بذلك الهَول، وما رأيته من قبل

إلا في رُسُوم المستشرقين الذين وصفوا مصر بذهول خلال الحملة الفرنساوية بقيادة بونابرته، بَدا في الحقيقة أضخم حَجمًا، ومَلامحه الجادة كَانت جديرة على بَثّ الرعب في نفوس الغرباء على مر العصور، وإن لم تُقنِع تلك الملامحُ أيَّ جيش بالرحيل والعدول عن الغزو، توغلوا في البلاد واحتلوها؛ فُرس، إغريق، رُوم وعَرب، لعلها أنفه(167) المكسورة هي التي أعطت ذلك الانطباع بعدم الجدِّية، وكذلك الرِّمال التي تُخفي أغلب جَسده، فلا يعرفون لهُ نيَّة.

حين أعطيث الهولَ ظَهري، دَعوت الله في سِرِّي ألا ينفض الأسد الرمال من حوله وينقضّ عليّ فيُمزقني، فركضت في عَبط غريب، حتى بلغت «مَعبد الوادي» المَطموس جزئيًا في الرَّمل، مَررت عَبر أعمدة جرانيتية، تُطابق أحجار قاعة الثيران، أشعلت فتيلة المِصباح، وفحَصْت الأرض التي طِينتها مياهُ الأمطار، فلم أعثر على أثر لنعل، لكنِّي ميَّزت حدوتَين، غويطَي الأثر، تَشيان بثقل مُعتبَر، ثور تحرك إلى خارج المعبد، بعد أن توقف المطر، تمنيت أن يعود قبل أن يَطوله الزُّكام والعَطس، ثم تتبعت خُطاه بالعَكس، حتى وَصَلت إلى حَائط غليظ، سُمْكُه متران، تبدأ الخطوات من عنده، ليس هناك مقبض لباب خفي، ولا شيء وراء الحائط حين التففت من ورائه. وكَان مِنِّي أن أطفأت المِصباح، وقبعت في ركن لا يطوله نور القمر، في انتظار بطل الأبطال، في انتظار ثور يحمل بطيخة وجرنال.

مرَّت ساعات، وقبل أن يغور آخر نُور للقمر مُبتعدًا عن مدخل المَعبد، التقطت أذني لهاث ذئب أو ثعلب، فسَلَتُّ السِّكين الزغيَّر مِن الجورب، واستعدت حواسّي لمواجهة حَاسمة، ثم لاحَ ظِل الحيوان،

ضخمًا، يسير على أربع، إنها سِلعوَّة(168)، مَسحَت الظَّلام بعينَيْن مُضيئتَيْن، حتى ميّزث موقعي بنت اللئيمة، ربما اشتمَّت رائحة المسك التي اشتريتُها من «سنوسي» العطَّار، وحين بلغت المسافة بيني وبينها عدة أمتار، تمتمت بآيات من سِفر «دانيال»(169)، فانقض عليها ظِل مارد، قدَر له قرنان، لم أشك للحظة أنه أحد الثيران الأربعة، قبض على رقبة السلعوَّة، فصرخت في شراسة، قبل أن تلتقط أذناي صَوتَ فقرات الظهر وهي تنكسر، ثم سَكنت الأصوات بغتة، وسَمِعتُ وقع الْتهام، تِفافة، لم يعجبه طعمها، فألقى على الأرض الجيفة، فزحفتُ وتواريتُ، حتى عَبر الثور من أمامي وتجشأ، اتجه إلى الحائط، وَقف أمامه ثواني، قبل أن يهمس بكلمات، تُشبه هَمس «جَعجو» أمام الجدار في السرداب، فانفتح في الصخر باب، دَخل منه الوحش، وقبل أن ينغلق بثانيةٍ، قفزتُ وراءهُ إلى المجهول.

وبعد دقائق...

خَفَتَ وَقْعُ حدوة الثور على درجات السلّم، لم تعد أذناي تلتقطان احتكاك قرنَيْه بالجدارين المتوازيين كُل بضعة أمتار، فنزلت وَراءه بحِرص، أعمى يلتمس طريقًا إلى جهنم. الدرجات من بعد الحَصر كانت؛ مئتين وعشر دَرجات، مِما يَعني أني قد نزلت سَبعة طوابق تَحت الأرض، بارتفاع ٤.٥ متر للطابق الواحِد، مقسومة على ١٥ سنطي متر. حين استقررت على الأرض، توهَّمت أني بالصمم أُصِبت، فليس هناك حتى شِبه صوت، عَدَم، اتخذت عَيني وقتًا حتى اعتادت الظلام الدَّامس، قبل أن أُميّز بَقايا نُور، هَبو، قادم من بعيد، فتتبعته في ترقُّب ويقظة، بشعر مُنتصِب، وأَيْر انقلب مهبلًا مِن

الرُّعب، وبالتدريج، بَدأت عَيني في استيعاب تَضاريس المَكان، كان أقرب لمدينة كَاملة، مَهجورة مِن البشر، ليس لها سَماء إلا سقف من الحجر، هناك شَوارع، حارات، أبواب مغلقة وحُجرات، وآلات مُبعثرة في الأركان، لا أدري كُنهَها، ولم ترَها عَيني من قبل، تُرُوس عِملاقة، أسطوانات، صُخور مستديرة شفافة، وتوابيت حَجَريَّة من الجرانيت، تشبه توابيت المومياوات، عدا أنها أغلظ من اللازِم.

فجأة، لمحت الثور، كَان يَشرب مِن حَوض كَبير ويَعِب، قبل أن يتَّجه إلى بوابة، دلف إليها في هُدوء فتتبعته، واكتشفت حين دلفت؛ أني في القاعة التي زرتها من قبل وأنا بداخل التابوت، قاعة الصَّنم، جامع الآذان. كَان مُنتصبًا في الوَسَط، والشَّمعة في كَفه مُشتعلة، وكَذلك الصندوق الأصفر الشفاف، كان في الركن البعيد، شُموعه مُطفأة. كُل شَيء كَان في مَكانه كَما تَركته، كأنه البارحة، لكني فَجأة اكتشفت غياب الثور، اختفى وكأنه جِنيّ مَسحور، مرَّت دَقيقة تلبّكث فيها معدتي، قبل أن أدرك أنه لم يَعد في القاعة، ربما ذهب ليَلحق بصَلاة العشاء جَماعة، أو وَضَعَ القَهوة على النار لضيافتي، فاقتربت من الصَّنم، تأمّلته عن قُرب، ودُرت من حوله، فأحصيت على جَسده «سبعة وسبعين» فردة أذن يُمنى، مَيّزت من بينها أُذن «زَهرتي»، كَانت سَوداء، بُن غَامق مُحوِّج، والحلَمة، مُعلق فيها حَلق ذَهبي على شَكل غُصن زَيتون، أهديته إليها يوم عيد زواجنا الميمون، لم أقاوم الرغبة التي انتابتني في انتزاعها من جَسد ذلك الإله المأبون، فعلْت، وفي نفس اللحظة؛ اشتعلَث شمعة بداخل الصندوق الزجاجي، فاتجهتُ إليه بعدما كفَّنت الأذن في مِنديلي المحلاوي الأبيض.

في الصندوق الزجاجي الأصفر، كَانت الشمعة تقف بَين زميلاتها في شُموخ، لامَست الزُّجاج بكفي فتوهَّجت، دُون هَواء، فسألتها من باب الفضول: «مَن أنتِ؟»، فانطفأت. ثم اشتعلْت بعناد: «إن كُنتِ رُوح زَهرة، فمِيلي إلى اليمين مرة»، ففعلت، خفق قلبي وتعلق، نظرت مِن حَولي لآمَن غَدْر الثور، قبل أن أعود إلى الشمعة: «أريد أن أفهم!»، سألتها ولم تُجِبني، فبحثت عن قفل الصندوق، ثم عالجته بسكيني فانفتح، سحبت منه شمعة «زهرة»، فانتابتني رَعشة عَارمة، ثم سَمِعت خُطوات الثور تقترب، فارتبكت: «أين أذهب؟!»، ارتعش اللهب ثم مال إلى اليسار، فميّزت بالجدار باب، توجهت إليه بسرعة فانطفأت الشمعة، دخلت، وبحثث عن الولاعة في جيبي، وقبل أن أفرك الحجر؛ اشتعلت الشمعة وحدها.

الحُجرة كانت واسعة، أشبه بمَصنع، مَدبغة، غُرفة تَشريح مُرعِبة، رائحة دِماء واضحة، طَاولة حجرية في المنتصف، بطول جسد، عليها طاقم من السواطير المسنونة، مقابضها من الذهب، وعلى اليسار آلة، لها تُروس عَجيبة مُعقدة، لا تعمل بقوة البُخار، مُتصل بها حَوض مِن المَرمَر، يخترقه قُطبان من النحاس، ومَملوء بخام الفِضة المتحجِّرة، تنتظر الأمر كي تسيل فوق رأس الضحايا. وهُناك صُندوق من خام الرَّصاص البودرة، وَجدت بقاياه على رقبة الإيطالياني، فتأكَّدت أني واقف على أرض المَعمل الذي تمت فيه طُقوس الشيطان، فرجعت إلى الشَّمعة، إلى «زَهرة» العُمر، وسألتها في لوعة: «ماذا أفعل؟»، مَالَ لهبُ فتيلتها إلى اليمين، دُولاب عَتيق من الحَجر، اتجهتُ إليه ففتحته، كَان فيه ثلاث كُفوف مبتورة؛ كَف حُوت وزنه طِن، كف

طالياني أبيض أملس الجلد، وكَف إفريقي بطعم البُن، لم أصدق أني أصافِح «زهرة» إلا حين ارتعشَت الشمعة، قبل أن تتوهج في حَسرة.

في أسفل الدولاب كان هناك كِتاب، له غلاف من النحاس، وموضوع في صندوق مُدرّع، أخرجته وقرأت عنوانه، اللغة كانت بائدة، وحين شرعت في تصفحه، شعرت بحركة من ورائي، ولما التفتُّ، وَجدت «إيزيس» حَاضرة، وقبل أن أجد مَخرجًا؛ صَرخت صَرخة مُدوية، تستدعي الثور والصقر والديناصور، كَان ذلك قبل أن تستل خِنجرًا، في كَسر من الثانية، وتُمرّره على عُنق العبد لله، جرحتني، ذبح لم يكتمل، ومَا كَان من «المسيح»، اسم الله عليا، إلا أن أخرج الإبرة النحاسية، قاهرة الذاكرة، وأهجم بعزم قوتي على الولية، وبعد جُهد جَهيد، كِدت فيه أن أخنقها بضفيرتها، رشقت الإبرة في عُنقها، فسقطتْ على الأرض، سَمكة خَلَت من العظم، كَان ذلك حين دخل الثور من الباب، فانطفأت الشمعة، زهرة شاطرة، وضعتها في جيبي واستغللت العتمة، مَشيت على أربعة، أحمل الكتاب بيد، وباليد الأخرى أزحف، حتى إذا بلغت ما أظنه الباب، اشتعلت الآلات، دَارت التُّروس فانبهرت الحدقات، نور شمس يتوهج من كُرات شفافة، قبل أن يجذبني الثور إلى الحَوض، رفعني في ثانية، وشَرع في تغطيس رأسي في المَسْبَك، الفضة كَانت تبقبق، رَفست قدمي، بكل ما أملك من حلاوة رُوح، وأمسكت بجوانب الحوض لعلّي أفلت أو أتزحلق، وحين مَسَّت الفضة السَّائلة شَعري، سَكتَ كُل شَيء بغتة، تيبَّس الثور في مكانه، قبل أن أفلت من قبضته، ليسقط بجانبي، زِلزال عَارم، تِلك المرَّة لم يَذبحه «جعجو» الذي تخطى المئتين

وخمسين، بل سِت هانم، لها ضفيرة بيضاء، تُدعى «إيزيس»، وقفت مِن وَرائه بوجه يضج بالألم، وفي يدها سَاطور مِقبضه من الذهب، للتو سَلتته مِن قفا الثور.

اقتربت، ناولتني الكتاب الذي وقع مني، خلعَت الخاتم ذا الحجر القرمزي مِن إصبعها ووضعته في كفي، ثم قالت: «لا أعرف مَن أنت، لكني أعلم أنك يجب أن ترحل الآن من هنا»، وما كان مني إلا أن ركضت، أرنب مذعور، الشمعة في جيبي، الكتاب بين يديّ، والخاتم في إصبعي، كَان ذلك حينما بَرز الصَّقر من العدم، الله يِهدها الوليَّة أم ضفيرة - التي صِحِي ضَميرها لسبب أجهلُه - صريخها أيقظ الوحوش النائمة، قطع نفَسي ابن الهِرمة، ولم أستطع أن أستدل على مَكان السلالم التي نزلت منها إلى ذلك القبو، لكني وَصَلت إلى درجات أخرى، لا أعلم أين تصِل، فصَعدتها بآخر أمل في صدري، حتى بلغث بابًا حَجريًا، أزحته بعِزم ما أُوتيت، وخَرجت ألهث، لأجد نفسي فوق ظهر «أبو الهول»، بعدما خرجت من فتحة سرية بالرأس، ووقعت من الألم، فلعنت الزمن، ولعنت الحُب، ولعنت بوظة «كتّي» التي دمرت رئتَيّ بالمعسل المضروب، وما كان للصَّقر أن ينهزم من أرنب! خرج من الباب فنشر جناحَيه، وتهيأ لنقري بمنقاره الحاد، فأخرجتُ الشمعة، كُنت أقصد السكين الزُّغيّرة والنِّعمة، فما كان منها إلا أن اشتعلت وحدها. «زهرة» تعمل بلُقمتها، وكَان منّي أن هدَّدت الصَّقر، بحَرْق الكتاب المقدس، فتوقف، تراجع، خشي وأحجم ونكص على عقبَيْه، ثم سمعت الانفجار المكتوم، أتى صَوته مِن أسفل المَعبد المواجِه لـ«أبو الهول»، اهتزت الأحجار في وَجَل، وأوشكَت الأعمدة

على الانهيار، لكنها تحمَّلت الصدمة، واستقرت بعد لحظات، وتجشأ أبو الهول في ارتياح، خرج من فتحة رأسه دُخان لا يوحي إلا بانقضاء عهد تلك المدينة العتيقة، أخفض الصَّقر جَناحيه للأرض، ثم ضربهما بقوة وغضب، فبعثر التراب وصعد، إلى السماء العليَّة، فاختفى خلف القمر الذي يُكنّ لِي كُل كَراهية.

قبل أن يَخفت النهيج في رئتَيّ بَكَيت، مِن ألَم الساق، مِن لوعة الفراق، من عدم الفهم وقلة الاتساق، نظرت إلى الشَّمعة المشتعلة بين يدَيّ، وأدركت أني لن أرى «زهرة» مرة ثانية، أذنها اليُمنى في جَيبي، سأدفنها بجانب الجَسد، وكفَّها للتوّ صَافحني بآخر سلام، للأبد، كيف سأنكِح شمعة؟! سيحرق اللهب أيْري، أما الكتاب، فلُغته مُبهمَة، عويصة غامِضة مُلْغِزة، وأنا الحِمار الذي يحمل أسفارًا، لن أفُكّ طلاسمه إلا بمُعجزة!



---

(167) في كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، قال الرحّالة «شمس الدين المقدسي» في القرن العاشر الميلادي، إنه رأى حادث تحطيم أنف «أبو الهول» بنفسه، حيث ثار عدد من الناس عندما عرفوا أن الشيطان كان يدخل إلى أنف «أبو الهول» ويُحدّثه، فكسروا أنفه، كما أن اللوحة الزيتية التي رسمها البحّارة الدنماركي «فردريك لويس نرودن» لـ«أبو الهول» - قبل ولادة نابليون - بِقُرون، وضَّحت أن «أبو الهول» كان بدون أنف.

(168) السِّلعوّة: يُقال إنها حيوان غامض هاجم بعض السكان في مصر، وقيل إنها هجين بسبب تزاوج تم بين الذئب والثعلب أو الكلاب البرية أو ابن آوى.

(169) تم إلقاء النبي «دانيال» في جُب الأسود بعد مؤامرة من أعوان الملك، وكانت المعجزة أنه نجا بعد قضاء ليلة كاملة دون أن تلتهمه الوحوش.

سِفر الولوج/ إصحاح نِمرة ٩١

أخبار ما كَانَ مِن أحداث جَلَل، بَعد مُرور وَاحد وعشرين يَومًا على واقِعة «أبو الهُول»، أكتبها بحبر الزعفران الروحاني الطَّاهر، في الأودة نِمرة سبعة، الدور الأخير، في «لوكاندة بير الوطاويط».

بَعد مُساومة حَامية مع «بِشماف جَودت أنزور» مُدير اللوكاندة الشَّركسي المُتآمِر المَغرور، استعدتُ حقِّي المشروع في استئجار الأودة التي تركتها غَصبًا جرَّاء حَبسي ظُلمًا وقهرًا في سجن «الديميرخانة»، وجرى الاتفاق على أن أستأجر السُّطوح بمنافعه، لُزوم المَشروع الذي أنتوي عمله في سِرية بالغة، نظير توظيف «شِكيب» في اللوكاندة دُون أجر، ومَهامّه اليومية - بالإضافة للعمل الإضافي يوم الجُمعة لتحسين الدخل - تتلخص في: تنظيف أُود الزبائن كل صَباح بَاكر، عَجْن الخبز والفطائر، مَسح السلالم بالماء الفاتر، ومباشرة مَدخل اللوكاندة خِلال سَاعات الليل بَدلًا من «بِشماف» وحتى أذان الفجر، وكَنْس الشارع، وتنظيف بَعر بِغال سكان اللوكاندة؛ وذلك تمويهًا ومكرًا ومراوغة حتى أكشف خيوط المُؤامرة التي يَشترك فيها «بِشماف» مع «لويس الثاني» مَلك البُرتغال، ليدُسوا السّم في طَبيخي، ويَرثوا عني: سَاعة الجيب «نوردمان فريرس- طراز ١٨٥٥»، قميصي الأصفر، وسِر توليفة مَعجون سليمان تمهيدًا لبيعها قطّاعي في مُستعمرات الإنبراطورية البرتغالية.

أمّا قبل...

بعد عَودتي مِن الجِيزة، واستقراري في اللوكاندة التي تحمل ذِكرياتي العَزيزة، توجّهت إلى مَقابر «الإمام»، دفنت أُذن «زهرة» اليُمنى - بَعد استخلاص الحَلق - بجَانب الجَسد، ثم استحمَمت وتطهَّرت مِن الحَسد، صَلَّيت رَكعتَي رَجاء، دَعوت فيهما أن يَأكل الصَّيف الشتاء، ثُم أشعلت عُود بُخور هِندي مُكن، ووَضَعتُ شَمْعة الحب المُقدس على المنضدة في طبق أبيض نظيف كَانت «زهرة» تأكل فيه المِسقَّعة بنص رغيف، أشعلت الفتيلة يدويًّا، فارتعشت نارُها بكل لَكاعة، أغمضت عَينَيّ بخُشوع وتضرُّع وانسجام، وسألتها إن كانت موجودة أن تميل لليسار، انتظرتُ التجلّي والظهور والبيان، ولم يَحدث شَيء، فنذرت نَذرًا، بأن أمشي أمام الناس على الماء، وأُحيِي الأموات، وأَشفِي الأمراض عمَّال على بطَّال حتى تُغلق الإسبتالية أبوابها من قلة الزبائن، ومع ذلك، لم تستجب الشَّمعة لأي سؤال. عَزيزتي «زهرة»... «تحية طيبة وبعد، جِئت ولم أجدكِ بالجوار... المُخلص سليمان». ونويت البحث في الكِتاب، لعلّي أعرف الأسباب، فأستعيد الأحباب، وكَانت اللغة مُستحيلة الفهم والإدراك، وخُصوصًا؛ أني تلقيت فيضًا من معلومات لا يحتمله عقل إنسان، فازدحم الدماغ بالخبال، وغمرني الإجهاد، فأخذتني سِنَة من النوم، قيلولة، فرأيت «جعجو» في المنام، لابس أبيض في أبيض، وأنفه يُعاني الزكام، عَطس عَطسة عَارمة، طار فيها عن الأرض عدّة أمتار، ثم التفت لي وقال: «لن تَرى الحقيقة المُطلقة حتى تمتلئ الغرفة كلها».

واستيقظت مِن فَوري، شَاهقًا زافرًا، غارقًا في عَرقي، بماذا

تمتلئ الغرفة؟! بالمياه؟ بالفاكِهة؟ بسُلفات الصُّوديوم؟ مِن اليأس؛ شَرَعت في وَضع المِصباح فوق الكتاب، وكِدتُ مِن خَبَلي أن أحرق الصفحات، ثم تذكرت فجأة... الخاتم القرمزي، أخرجته من جيب السُّترة، ونظرت فيه للحظة، إن كَان هؤلاء الكفرة الفسقة قد ارتكبوا كُل تلك المُوبقات من أجل العثور على خاتم، فلا بد أنَّ فيه المَعرفة الكَاملة، وكَلمات «جَعجو» لا تعني إلا شيئًا واحدًا.

الغرفة لا تمتلئ كلها إلا... بالنور.

نصبتُ الشمعة على المنضدة، وأغلقت الستائر المُتربة، فساد الظلام، أمسكت بالخاتم القرمزي، وقرَّبت الحجر المستدير مِن الفتيلة المشتعلة، فإذا بالحجر يَسخن، ويَشِع، فينعكس نوره على الجُدران، ليملأ الغُرفة كلها، بالكتابات؛ أبجدية كَاملة، ورسومات، استطعت مِن خِلالها أن أفهم لغة الكِتاب، ففرحت فرحة «شامبليون»(170) حِين فَكَّ أسرار هيروغليفية المِصريين القدماء، لقد انجلى الظلام، تبدَّد ضَباب الجَهل، وأمطَرَت سُحب الحقيقة المُطلقة على رأس سليمان، رَعْد وبَرْق صنعوا فرقًا في شَعري همجي الخصلات. قالت المقدمة: إن ذَلك الكتاب هُو الشَّهادة الوحيدة الباقية على زمن مَا قبل «الأجساد»، زَمن؛ كَان فيه كَوكب الأرض يَغلي بالحرارة المفرطة، بَعد تكونه بسنوات، كُل شَيء، كَان نار ودُخان، حتى البِحار، كَانت بُخار، وكَان «الإنسان» في ذلك الوقت، رُوح حُرة، ليس لها جَسد، قُدرات هائلة، تنفذ من الجدران وتطير وتخترق، تُثير الحَسد... لكنها لا تتناسل.

سَيطر الإنسان بروحه على الأرض والبحار والسماوات، مَلايين من

السِّنين خَلت، كَان فيها السيدَ بلا مُنازِع، حتى أبطأت الأرض حَركتها مِن التَّعب، وبدأت الحرارة في الانخفاض تدريجيًا، فتكوَّنت البِحار، وتكتَّلت الخلايا التافهة، فصنعت الأجسام، وانتشرت المَخلوقات، أغلبها عَديمة النَّفع، طُفيليات، أسمَاك، زَواحف وقُرود، مَادة خصبة للصيد والقتل من قِبَل أرواح الإنسان الأعلى قُدرة والأخف حركة، والأقل عددًا... كَان ذلك حتى ظهر البشر، مَخلوقات مَحدودة الذَّكاء، جلدها تعرَّى مِن الشَّعر، لأنها أدمنت النِّكاح، أطلق أفرادُها على «أرواح الإنسان» اسم «المبجلون»، لِما وَجدوا فيها مِن قُدرات فائقة؛ خفاء، وكَرامات، فقدَّسُوهم أيما تقديس، وسجدوا لهم بالجباه على التراب.

ولأن الحَسَد ليس له اتجاهٌ مُحدَّد، وقد يَسري في بعض الأحيان من الغَنيّ إلى الفقير، فقد أصاب روحَ الإنسان. نظرَ بغيرة إلى أجساد البشر الفانية، فأراد أن يُجرّب الوُلوج فيها، ليختبر وَطء الإناث، ويُقاسي ألم الجَرح والوَضع والنفاس، ويَخوض قِتالًا مَع الأُسود في البرية، ثم يَموت في لحظة انتصار حقيقية، ليخرج من الجسد البشري سليمًا، مُنهكًا، ينهج مِن الإثارة ويضحك، وقد أصابته نَشوة عارمة فوّارة، كيلو من الأفيون في سيجارة، والأهم من كل ذلك، تجربة الإنجاب، تلك المتعة التي تفتقدها الأرواح، فالأعداد لم تزِد ولم تنقص، منذ نشأ الكوكب، وعَنها، علمت الأرواح أنها تستطيع الالتحام بالبشر، عن طريق الغدة الصنوبرية بالمخ، فأدمَنت الولوج في الأجساد، حتى باتت الرُّوح الواحدة؛ تقضي مُعظم العُمْر بين الضُّلوع، ونَدر؛ أن يَعيش إنسان بلا جَسد بَشري يتحكم فيه ويقوده

حيث يُريد، ويتباهى به على أقرانه، يُصارعهم، يداعبهم، ينكحهم ويقارعهم، يَهزمونه ويَهزمهم. زَهْو، لَعِب، لَهْو، عُجْب وتَغطرُس، تَشامُخ ومَرَح، مُوضة، ليس فيها – عدا مَوت جَسد البشري في أغلب الأحيان - خُطورة، فالروح طاقة لا تَفنَى ولا تَنفد، ثم تحولت تلك العادة عبر الأجيال إلى ضَرورة حتمية، فتفشَّى النسيان في «روح الإنسان»، وكَثيرًا ما قضى الواحد منهم عُمره كُله في جَسد بَشريّ مِن لَحم ودم دُون أن يخرج، حتى يحين الموت، ليفنَى الجسدُ البشري، وتخرج روح الإنسان منه، وقد نَسِيَت ما كانت تملكه من قدرات، لتصير روحًا هائمةً في الخرابات.

وزاد الطين بلَّة؛ أنَّ الإنجاب مِن إناث البشر، فرَّخ أجيالًا من الأرواح لا تُتقن الخروج من الجَسد، نَمَت المَشاعرُ فيهم، وتمسك الآباء بالعيش مع أبنائهم، ولم تكن كُل الأجساد لتحتمل الطبيعة المتغيرة، بعضها كَان يَنفلت ويتحوّل، فيتشوّه لطول الأمد وكثرة الاستعمال، وآخرون، كان يَحلو لهم التهجين، فأخذوا يلهون بالنِّكاح في كُل اتجاه، رغبة في الحصول على أجساد أشد قوة، فظهرت ثيران مُجنَّحة، وصقور ذات أجساد بشرية، وكُل مَا رَسَمه المِصريون القُدماء على جدران قبورهم والمعابد المنسية، قيل عَنهم مَجاذيب، كُفَّار، عَبدة لآلاف من الآلهة، ولم يكونوا إلا شُهودًا على حقيقة ملموسة مرئية، عَاصرتها أجيال منهم قبل الطوفان العظيم. ومَا هي إلا قرون أخرى، وبدأ زمنُ الحُروب على المِلكيّة: الجسد، الأرض، الثمار، النساء والمَيَّة.

الفصلُ الأخيرُ من الكِتاب أكملَ باقي القِصّة المَأساوية.

لم يُهاجر بنو الأرواح كُلهم إلى عَالم الأجسَاد، ظَل فِيهم مَن تمسَّك بالهوية الروحانية، أصبحوا يُعرفون بالمَلائكة الحُرَّاس، ومِنهم مَن ضَل طَريقَهُ وحبَّذ الانتقام، أطلقوا على أنفسهم «المُبجّلون»، وصَاحبَ ظهورَهم الخرابُ والدمارُ والمُجونُ، تِلك الفئة؛ صَاغت حكمًا شرعيًا لاستعادة المَجد البائد، يقضي بأن يتم استخلاص أرواح المتمردين من الأجساد البشرية، للحفاظ على سيادة عالم الأرواح، النُّدرة تجعل الألماظ أغلى من النحاس، ووسيلة النزع هي؛ السِّيخ المَشقوق، والذي عُرف خَطأً بأداة «فتح الفم»، يُخرج الروح مِن الجَسد، ليُسجَن المُتمردون فيهم داخل صُندوق الشموع، وتوضع على رءوس الأجساد التي استخدموها أقنعة فضية، لتكون عبرة، ولتُسبِغ العار والمقت والكراهية، وَصمة، تُلقي الرعب في قلوب كُل مَن رَفَض التخلِّي عَن الجَسد البشري.

فعلوا ذَلك بزهرة الفؤاد، بعدما تخفَّت لقرون في جَسدها الإفريقي، وكَذلك فعلوا مع الوَهْم والإيطالياني، وغيرهم، قُطّعت آذانهم اليمنى عبرة، لأنها لا تلتقط صوت الملائكة، وسمَّروها في جَسد صَنم على هيئة جَسد بَشري مِثالي، نِكاية في الرافضين الذين أبَوا العودة إلى عالم الأرواح، وبُترت الكفوف، لأنها أول عضو يستعملونه في السلام على زملائهم حين يَلِجُون الجسد، الأرواح التي أرادت أن تُعِدّ ثورة على البشرية، كوَّنوا جَماعة أرضية، لها زِي مُوحّد؛ أبيض مُطرّز، عليه رسم المثلث، وهو يرمز في الظاهر إلى الثالوث، وعندما يتم تصويره باللون الأسود، كالحرق في ظهور الضحايا، يُعد رمزًا للتمرد والعصيان، كما يرتبط المثلث أحيانًا بالمتنوّرين، أو... المُبجّلين، الذين

اتخذوا لأنفسهم مَقرًّا، أسفل تمثال «أبو الهول» المَطمور، أمر بديهي، فذَلك الوحش القائم؛ أقدم من الزّمان، ويَعود نحته إلى عُصور مَا قبل الطوفان، وقد غرق لقرون تحت المياه، وبدت على الأكتاف آثار النحر المائي المختلفة عن نحر الرياح؛ لذلك فموت الإيطالياني فوقه يماثل نمط مقتل زهرة والوَهْم.

أبو الهول؛ كان رَمزَ اللعبة الأكثر خطورة في تاريخ الأرض، لعبة اندماج روح الإنسان مع أجساد المخلوق البشري الذي عَاش سَنوات عُمره مُترقبًا مُبتهِلًا ومُتمنيًا ظهور «المُخلّص» المُنتظَر، الذي سينتصر بجسد بشري وروح إنسان، على المُبجّلين، وسيقودنا إلى الخلود، بشرط، أن يأتيه اليقين، ويعلم في قرارة نفسه أنه المختار المُبين، وعلامته التي لا تُخطئها عين؛ سَبع حَسنات حُمْر، تمتد على خط واحد، مائل بزاوية ٣٤ درجة، والمسافات بينها متساوية، في مَكان مُميز بالجسم.

حين انتهيتُ مِن قراءة كِتاب «المُبجّلون»، أدركت أني لَستُ بمَجنون، وتساءلت في نفسي عن فِعل الحُرمة «إيزيس»، لِماذا هَدَمَت المَعبد على رأسها؟ ليس لأنها تخطّت سِن الأربعين وتوقف جسدها عن حرق الدهون! التفسير الوحيد المقبول، أنها حين تلقت الإبرة من يَدي الكريمة استفاقت، وأدركت أنها في حَضرة المَسيح «المُخلّص»، فرضخت وتأثرت وتمنّت المَوت شهيدة لتصير على يدِي قدّيسة. أو أن الإبرة؛ أعادت لها رُشدها، بعد سنوات من الضلال والغرور، فأدركت في صَحوة، أنها في الجانب الخطأ، وأن عهد المبجّلين يعني فناءَ الأرض، وربما كانت للبشر أقرب، أو أنها

برج السَّرطان وليست برج العقرب. وكَان من أمري أن حَملت شَمعة «زهرة»، وتوجّهت إلى بيت «بَختة» الغجرية بالأزبكية، كَانت تعجن الطعمية، والعين بنفسجية، وكان «شَنتَف أغا» في المندل من الفجريّة، شقيان يَسعى ويعمل؛ الله يعِينه، أما «جَلال» فكان في الركن شَاردًا، ينقّي الرُّز، في جسد بشري أصيل عليه جِلباب مُخطط، ولا يَحمل روح المُبجّلين. شَكرت «بَختة» على العناية بوحيدي، وأشرت إليه حبيبي فتبعني دُون مُقاومة، مُهمتي المقدسة كأب مثالي تبدأ في التوّ، على سليمان أن يحفظ اسم عائلة السيوفي، وأن يُربِّي شَحط طول بعرض، في زمن قاسي، مُلبّد بالمؤامرات الأروباوية على عَرش إسماعين المِضياع الثرثار المُبذّر المُبعزق لأموال الخزانة يمين وشمال رغبة في بناء قاهرته الخديوية، على حساب الفول والطعمية، وأهو رايح يفتتح لنا قناة سويسية، وعزم جميع ملوك الأروباوية، وكل ده عشان يِخلا له الجو مع الولية الإنبراطورة «أوچيني» مِرات نابليون التالت اللي نايم على ودانه في باريز، كُل ذلك الهرج سينتهي عَن قريب، حين أتولى منصب «مُدير مَصلحة الطب السياسي» الشاغر من بعد رحيل «كارليسمو».

مُنذ يومين، توجّهت إلى وِكالة «المَحروقي»، ألقيت السّلام على الياسرجي «رضوان»، لم نلتقِ منذ اشتريت «زهرة»، انتقيت مِن جَواريه بعد الفحص والتفعيص والتمحيص في البَض من اللحم الغالي والرخيص، حُرمة چركسية نقاوة، لونها وردي، وعينيها في خُضرة الجرجير الوِزْوِر، الأزرق شاحح في سوق الجواري اليومين دول، والعُمر واحد وعشرين، كَلفتني اتنين وخمسين جنيه ونص، ده

غير نَتف الشَّعر، وتنظيف القعر، كُل حاجة غِليت يا إسماعين.

في نفس الليلة؛ أرسلت «جلال» بصُحبة «شِكيب» ليُركبه المَراجيح. حُط الحُمار جنب رفيقه، إنْ ما اتعلِّم من شهيقه يتعلِّم من نهيقه. ثم اختليت بالچركسية، أطفأت المِصباح، وأوقدت شمعة «زهرة» العُمر، قبل أن أفتح فم الجارية بمِلعقة، مِش شرط يكون سيخ على فكرة، هكذا قال الكتاب. ثم تلوت بعض الطلاسم التي استخلصتها من عدة الصفحات، لتنساب رُوح حَبيبتي الإفريقية دخانًا أبيض صافيًا بداخل جَسد الحُرمة الچركسية، بسهولة شرب الماء دون حنفية، الصراحة، والحق ما يزعّلش، زهرة كَانت مَهريّة، الحَمل أصابها بالترهُّلات الفطَّة والكلَف، ده غير الفك اللي كان بيزيّق م الفتحة المتهورة في الكهف، جَت مِن عَند ربنا، والحمد لله. نِجحت العملية غير الجراحية، فتحت عَينيها، ابتسمث وقالت: «نيين بوتا أبيري»؛ ومَعناها بلغة النيام نيام: «لقد عُدتُ يا حبيبي»، وبفضل معجون «سليمان»، فعلنا الأعاجيب، ومن الصريخ الإفريقي اشتكى الجيران، وتشققت الأودة من الجدران، والله بعودة! كَان ذلك قبل أن تسبّ «زهرة» آبائي، حين نظرتْ لنفسها في المرآة، لم تُعجبها الجارية الألماظية، ولا العيون الجرجيرية، غَارت، واتهمتني بأني كنت أريد استبدالها، وأن الجلد الوردي بُهاق لا يليق بها، ولما سمعت الطرقات على الباب، نطقت الشهادة، لعلّ هُناك مَن يستنقذ العبد لله مِن ذلك الصباح النكِد، فإذا بي أمام بُوز الإخص... «عَبلة زغلول».

«سِمعت إنك اتجوّزت يا سليمان. قلت آجي أطمّن عَ المدام».

كَان ذلك أسود كَوابيسي، اللقاء الذي هَرِبت بسببه مِن أودة لأودة

طوال سنوات، وكِدت من الخوف أن أُغيّر اسمي إلى «الشيماء حسني قنديل»، اتقاءً وتلافيًا وخشية مِن ذَلك الكَمين، فعبلة زغلول، بِنت تاجر المنزول(171) الشهير زغلول الضبع، كَانَت عَشيقتي في زَمن كُنت فِيه دَلدول، جَمالها كَان يضارع جَمال «زَهرة خانوم» أميرة قاجار وعصمة الدولة، الأميرة التي انتحر ثلاثة عشر مِن خُطَّابها بعدما رفضتهم. مِن أول قُبلة حدثت بيننا في بِير السلم، ولامس لساني شنبها الناعم، صِرت عِندها عَبدًا غير حبشيّ، أحببتها، كَما يُحب الخنزير المَرمغة في الوحل، كَانت تناديني في أي وقت فأخلع الكلوت، سهل، وحين أنتهي منها، ألتقط لها عشرات الصور العارية، بعين عاشق ولهان، فتطلب المزيد، والمزيد، وتسعى في السرير للتمديد، حتى أتى عيد اللحمة، وإذا بالخروف الإسطنبولي الذي اشتريته أُضحية، يتكلم! قال بالحرف الواحد وهو يَمضغ الذرة والردَّة: «إن عَبلة زغلول مُستعملة استعمال بِغال الركوب... يا دلدول»، فانتابني الفُضول، ورفضت ذبح الإسطنبولي ابن الأصول، حلقت فروته، وطَليت جلدَه بالقَار ، وأطلقته في الشارع فظنه الناس كلبًا أجرب، وامتنعت مِن يَومها عَن أكل اللحمة، إكرامًا للنصيحة الأخوية من صاحب الليَّة، وعشان الكوليسترول في كبدي زايد شوية.

وقد تأكدت من كلمات الخروف، حين رأيتها يومًا تُناغش بائع الحليب، الذي سكب بضاعته على جلبابه بعد ضحكة مائعة من عبلة، فانتابني الغضب لوهلة، رغم أن الرجل كان في السبعين من العمر، لكنه بدَا عكروت أيضًا، وإذا بشرارة الغيرة تُشعل صدري، وما كان

مني إلا أن طبعت صورها العارية ١٦×٢٠ على ورق لَمّيع، وأرسلتهم إلى أبيها «زغلول الضبع» في ظرف، وانتظرت الخبر، سيحلق شعرها بالموس، يربط رقبتها بجنزير في عمود، ويحبسها في البدروم، وسأعبر يوميًا من أمام الشبّاك الزُّغيّر الموازي لأرض الشارع، لألوّح لها وأُخرج لساني، وأضحك ثم أضحك حين تَسبّني بصوتها الحيّاني، فيناديها العيال: «عبلة المجنونة»، ولكن، أتت الرياح بما أغرق سُفني، فقد زارني رِجال «الضبع» في ليلة، وهِيلا بِيلا، وجدت نفسي في ميدان سوق السلاح، وبحضور «عبلة» وسُكان المنطقة الكرام، ولفيف من العيال الزُّغيّرة وفي أيديهم الزمامير.

حلق صُبحي المِزيّن - زوج عديلة الفار - شَعري بالمُوس، انتقامًا وتشفيًا، ثم أجلسني الخونة على أربعة، كأني خَروف، شَمّروا إسْتي بعد نزع السروال، ثم حشوها بنوى المشمش، قبل أن يضعوا ورائي مِرآة مُربّعة، ويُشمِّموني «نشُوق» مُهيج لجيوبي الأنفية، مع كل عطسة، تصحبها حزقة، فتطير مني نواة مِشمشة، طلقة رُصاص خاطفة، تخبط في المرآة، وتُصدِر صوتًا، فيُهلّل الناس، ويحصي الأطفالُ العددَ كتابةً على الجدران: سبعين، واحد وسبعين.. وهوب، جاء الفرج، انكسرت المرآة، فدهنوا وجهي بالقار، وعلقوا في رقبتي جرسًا، ثم وضعوني مقلوبًا على حمار، دار بي في حواري الحُسين والغُورية، زَفّني أهالي الحي الكرام، وحين فقدوا الشغف، ألقوني عند ناصية. مُنذ ذلك اليوم، لم أعُد سليمان الدلدول، فقد علّمتني تلك التجربة، ألا أصدق كلام الخرفان، وقت الأضحية بالذات، فهم يَميلون إلى الكذب للنجاة من الذبح، كما نصحني «ساسون» الله

يرحمه وقتها، ولكي أتخطّى تلك المِحنة العويصة، بأن أُخرج غَضبي ولا أكتمه في صدري كي لا يصيبني السيلان، فما كان مني إلا أن وَشَمت كَلمة «عَبلة الوِسخة» على سمّانة «شِكيب عبد الصَّمد»، حتى إذا شلَّح وانحنى ليمسح الأرض في كل صباح، رأيت سبّتها بعينَيّ، فألسع سِمّانته بالنِّبلَة ليُشفَى غليلي.

الحمد لله والذي لا يُحمَد على مَكروه سِواه، أن «عبلة» وحين وقفت أمام زهرة، قارنتْ الجَمال الچركسي بالسِّحنة البلدي، لم تعُد «زهرة خانوم» أميرة قاجار، كما كنت أراها بعيني، باتت قبيحة، مَسخًا، فقد نسيت لياليها، وجلجلة خلخالها، واصطكاك أعمدة سريرها، وكَما قال أبو نواس: «يا كَثير النَّوح في الدّمن(172)... لا عليها، بل عَلى السَّكَنِ... سُنَّةُ العُشّاقِ واحِدةٌ... فَإذا أَحبَبتَ فَاستَكِنِ»، وانكسفت «عبلة» على روحها، حين رأت النفور في عينَيّ، ثم تولَّت «زهرتي» طردَها بعد شدّ شعرها الأكرت وتجريسها في قلب اللوكاندة بالرطان الإفريقي المُخيف، قالت لها: «كو امجي يكورو ناوي دك أتي»؛ وتعني بلغة النيام نيام: «إذا راودتِ زينة الرجال ثانيةً، فسآكُلكِ حيَّة نيّئة». ولأني أعرف أن «زغلول الضبع» قد مات مُنذ سنة ونيّف، أدركت أن عبلة لن تعود للمناوشة... لَم يَعُد في قلبي الآن مَكان إلا لزهرة، وجلال، وكَام فدان اشتريتهم في كوكب «أورانوس» بالشُّكك المُريح.

أما المشروع الجَديد والذي انتويث تشييده في سِرِّية قُصوى، مُتلافيًا أعين البصاصة الأروباوية بكل حِرص وحذر وحيطة، وباستخدام سَاعدي الأيمن «شِكيب» وَحده دُون الاستعانة بأي نفر

من الزعانف والعامة، لضمان عَدم سَرقة الفِكرة، باذلًا كُل ما أملك من النقدية، بعدما بِعت حلق «زهرة»، ورَهَنت الخاتم القرمزي عِند «حاييم» المُرابي بالدرب الأحمر، وقد وفّقني المولى في شراء ٢١٤ لوحًا من الخشب البريمو (توت، سنط، وكافور) بسِعر معقول، زوايا حديدية (عدد ٧٠)، بالإضافة لحِبال غليظة (٩ بَكَرات)، دهانات عازلة (عدد ٣ براميل) و١٧ مترًا من قماش تيل نادية، واثني عشر جوالًا من العلف، وذلك لصُنع مركب ضخم مستكوفي، يَليق باسم سليمان السيوفي، أحمل فيه من كل زَوجين اثنين - عدا شِكيب، لأن المسكين ليس له وليفة - اتقاءً لطوفان عارم، رأيته في المنام، يُغرق أرضي المحروسة من ورا لقُدّام، ويجِيب عليها واطيها يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢؛ لذا، فالسعي والاجتهاد؛ هُو غاية النجاة، للانتهاء من المركب قبل آخر أجوستو، حتى إذا أتى الطوفان وعلا الماء.. ارتفع بنا المركب حتى السحاب، حاويًا بداخله قائمة مَحدودة مِن المؤمنين برسالتي، ليكونوا النواة الجديدة للبشرية، بخِلاف الحيوانات جميعها، عدا حلزون المياه العذبة وعبلة زغلول.

وقد تطلَّبَت المنفعةُ العمومية؛ وحتى يتم ذلك المشروعُ المصيري في هُدوء تام ودُون غُمة؛ وجُوب إخصَاء «شِكيب»، ليَصير «كستراتو»(173) قَد الدنيا، فتميل أحبالُه الصوتية إلى الأنوثة المحبَّبة للآذان؛ وذلك ليتسنى له أن يُغني أثناء بناء المركب وهو ينظر ناحيتي: «الهيلاليصة... بُص عَ النبي»، بصوت عَذب مُستساغ، لمنافسة عَبده الحامولي، وتنحيته عن الساحة لأنه عَميل للخديوي، تمهيدًا لإحياء حفل افتتاح قناة السويس بدلًا منه، وكذلك للتخلص

مِن الهياج العَشوائي الذي يُصيبه في حُضور الأموات. وكان أن اضطُررت إلى الاطلاع على خصيتَيْه الذي أمرتُه بربطهما بخُصلة من شَعر الخيل، كي تضمُرَا في حدود أسبوعين، وإذا بي ألحظ، ولأول مرة في حياتي؛ سَبع حَسنات حُمُر، تمتد على خط واحد، مائل بزاوية ٣٤ درجة، والمسافات بينها متساوية، في مَكان مُميز جدًّا بجسم... شِكيب عبد الصَّمد.

النهاية

---

(170) شامبليون: عالِم شرقيات فرنسي، اشتهر بفكّه لرموز الهيروغليفية المصرية.

(171) المَنزول: المُخدّرات.

(172) الدّمن: ما تتركه الإبل والغنمُ مِن الفضلات، لأنه ربما نَبَتَ فيها النباتُ، فيكون منظرُه حسنًا ومنبته فاسدًا. مثال للشيء الحسَن الذي نبت في مكان خبيث.

(173) الكستراتو: مُغنٍّ ذكَر يتم إخصاؤه قبل سن البلوغ؛ ليحتفظ بالنغمات العالية ونطاق صوتٍ مائل للأنوثة، لكن العملية كان لها أيضًا مجموعة متنوعة من التأثيرات السيئة.

